بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[البقرة: ٣٢]

طه حسين
والفكر الاستشراقي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية دولة قطر

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

turathuna@islam.gov.qa

ومنذ انطلاقة هذا المشروع المبارك يسَّر الله جلَّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمهات كتب العلم والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون مختلفة، **تُطبع لأول مرة**، نذكر منها:

- **في التفسير وعلوم القرآن:**

أصدرت الوزارة عدة كتب منها: (**فتح الرحمن في تفسير القرآن**) للعُليمي، و(**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**) لابن عطية في طبعته الثانية.

وفي علم رسم المصحف أصدرت الوزارة: كتاب (**مرسوم المصحف**) للعُقيلي، و(**الدرة الصقيلة في شرح أبيات العقيلة**) لأبي بكر اللبيب.

وفي علم القراءات أصدرت الوزارة كتاب: (**البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**) لأبي حفص النشار، و(**معاني الأحرف السبعة**) لأبي الفضل الرازي.

- **وفي السنة النبوية وشروحها:**

أصدرت الوزارة عدة كتب، منها: (**التقاسيم والأنواع**) لابن حبان، و(**مطالع الأنوار**) لابن قرقول، و(**التوضيح شرح الجامع الصحيح**) لابن الملقن، و(**حاشية مسند الإمام أحمد**) للسندي، و(**شرحين لموطأ الإمام مالك**)؛ لكُلٍّ من (**القنازعي**)، و(**البوني**)، و(**المخلصيات**) لأبي طاهر المخلص، و(**شرح مسند الإمام الشافعي**) للرافعي، و(**نخب الأفكار شرح معاني الآثار**) للعيني، و(**مصابيح الجامع**) للدَّمَاميني.

كما أعادت نشر كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب عقيدة أهل السنة والجماعة.

- **وفي مجال الدراسات المعاصرة المتميزة:**

أصدرت: (**القيمة الاقتصادية للزمن**)، و(**نوازل الإنجاب**)، و(**مجموعة القره داغي الاقتصادية**)، و(**التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي**)، و(**صكوك الإجارة**)، و(**الأحكام الفقهية المتعلقة بالتدخين**)، و(**التورق المصرفي**)، و(**حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية**)، و(**روايات الجامع الصحيح ونسخه، دراسة نظرية تطبيقية**)، وغيرها.

كما قامت الوزارة بشراء وتوزيع أجود الطبعات من بعض الكتب المطبوعة لما لها من أهمية، مثل: (**مسند الإمام أحمد**)، و(**صحيح الإمام مسلم**)، و(**الجامع لأحكام القرآن**) للقرطبي، و(**الجامع لشعب الإيمان**) للبيهقي، و(**تاريخ الخلفاء**) للسيوطي، و(**التاريخ الأندلسي**) لعبدالرحمن علي الحجي، و(**الإقناع في مسائل الإجماع**) لابن القطان الفاسي، و(**شرح العقيدة الطحاوية**) لابن أبي العز الحنفي، و(**قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**) للعز ابن عبدالسلام.

ومثل (**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**) لأبي الحسن الندوي، و(**الرسالة المحمدية**) لسليمان الندوي، وغيرها.

ويسرنا اليوم أن نقدم لإصدار جديد متميز حول الاستشراق ورجاله في رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير من كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بعنوان: (**طه حسين والفكر الاستشراقي**)، وهي دراسة نقدية مقارنة، تهدف إلى بيان العلاقة بين آراء المستشرقين

والحق أنه كان لذلك الأثر الطيب في نفسي، إذ أقبلت على التعلم والدرس بجد وحرص، تحدوني الأماني، ويشملني الرجاء، أن أحقق في العلم مكانة، أو أكون في الناس شامة.

لكن سرعان ما فتر هذا الجد وتبدد ذلك النشاط، بددته دواعي الصبا ومطالب الطفولة والتفات الوالدين إلى تدبير أمر الحياة ومستلزماتها.

معرفة جديدة:

وشاء الله أن تتجدد معرفتي بالدكتور طه حسين عند بداية المرحلة الثانوية من التعليم الأزهري؛ ولكنها معرفة تصادم وتفارق المعرفة الأولى التي صورت الدكتور بأنه قمة ينبغي التطلع إليها، ورائد ينبغي السير من خلفه!!

تجددت معرفتي به من خلال كتب جديدة تناولت حياته وآثاره تناولاً مختلفًا، صورته بأنه الأزهري الشارد والأديب المعاند، وأنه المتابع لدوائر الاستشراق والمبشرين، المنفذ لخططهم وأهدافهم!! وأنهم الذين بنوا مجده وصنعوا تاريخه وأنزلوه المنزلة التي تبوأها في الأدب والثقافة.

فوقعت في حيرة بين معرفة قديمة وأخرى جديدة، وتولدت من تلك الحيرة رغبة في التبين والتبصر، ومعرفة وجه الصواب في سيرة الرجل وآثاره، فاختلفت إلى المكتبات العامة أقرأ ما كتب الرجل، وما كُتِبَ عنه، لا أفرق في الاهتمام والمطالعة بين ما كتبه المادحون، وما سطره القادحون.

عُني بالناحية الأدبية خاصة، إذ جل هذه الرسائل كان موطن دراستها كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة وهذه الرسائل هي: الفن القصصي عند طه حسين[١]، الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين[٢]، أثر النقد الفرنسي في نقد طه حسين[٣]. ثم إن بعض الباحثين تناوله في رسائل أخرى طبعت بعد ذلك في كتب يتناولها الناس مثل: «طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية»[٤]، ومثل: «فن المقال الصحفي عند طه حسين»[٥]. إلا أنني لاحظت أن جانبًا خطيرًا لم يلتفت إليه أحد من الباحثين أو تناوله بالبحث والدرس، وهو صلة الدكتور طه حسين بالفكر الاستشراقي وتأثره به، ومقدار هذا التأثر ونوعه، وهل كان هذا التأثر بمناهج البحث، أم كان تأثرًا بالآراء والأشخاص، فأحببت أن أسلط الضوء على هذا الجانب لأوضح حقيقة علاقة الدكتور بالفكر الاستشراقي وبيان مدى الاتفاق والاختلاف في الآراء والتوجهات، وكذلك بيان سر العناية غير المحدودة من المستشرقين بـ«طه حسين» وأدبه والتي تمثلت في أكثر من مظهر مثل: الكتابة عنه، وترجمة أعماله إلى لغاتهم، ومنحه الجوائز المتعددة وعددًا من الدكتوراه الفخرية... إلخ.

سبب الدراسة:

والذي دفعني لدراسة الدكتور طه حسين دون غيره من المفكرين

---

(١) للباحثة: مها شوكت أحمد.

(٢) للباحث: رمضان محمد الجارية.

(٣) للباحث: مصطفى حسن.

(٤) للدكتورة رشيدة مهران.

(٥) للدكتور عبدالعزيز شرف.

الفصل الأول: عرضت فيه للعوامل التي ساهمت في تكوين فكر وعقل طه حسين، والبيئات والهيئات والأشخاص الذين كان لهم دور في تشكيل هذا العقل.

الفصل الثاني: تحدثت فيه عن علاقة طه بالفكر الاستشراقي وقنوات اتصاله بهذا الفكر.

الفصل الثالث: تناولت فيه بعض القضايا المتعلقة بالعقيدة مما أثاره طه حسين، مثل قوله ببشرية الدين وخروجه من الأرض كما خرجت الجماعة منها، وكذلك استعماله لنظرية الشك وكيف استخدمها في الشك في ثوابت الدين، ورددت عليه قوله بالجبر الاجتماعي ونفيه للاختيار، وكذلك أوردت رأيه في نجاة اليهود والنصارى في الآخرة بدون إيمانهم برسالة النبي محمد ﷺ وقارنت بين أقوال الدكتور وبين أقوال المستشرقين في ذلك كله.

الفصل الرابع: وعرضت فيه لآراء طه حسين حول القرآن الكريم وركزت على أخطرها أثرًا وهو قوله بما يوهم بشرية القرآن، وأوردت رأيه في قضية جمع القرآن وتشككه في تمام القرآن وكماله وكذلك رأيه في مصدرية القراءات القرآنية.

الفصل الخامس: وتناولت فيه موقف الدكتور طه حسين من السيرة النبوية عرضًا وبحثًا ومن سنَّة النبي أخذًا وردًا وتناولت بالرد تحكيمه للعقل في قبول السنة ورفضها وكذلك قوله بالظن في تصحيح الحديث وتضعيفه.

الفصل السادس: وبينت فيه موقف طه حسين من التاريخ الإسلامي عمومًا ومن تاريخ الخلفاء الراشدين خصوصًا، وكيف تناول

إحياء النزعة الفرعونية وإحياء الحضارة المصرية القديمة، وكذلك عالجت موقفه من الحضارة الإسلامية وبينت ما له من كلام جيد في هذا الشأن وما عيب عليه فيه.

الفصل الحادي عشر: وعقدت فيه مقارنة بين مناهج المستشرقين في البحث وبين منهج طه حسين وصدقت على كلام الدكتور أنه تأثر بمناهج المستشرقين وأساليبهم في البحث التي أدت به إلى موافقتهم في الكثير من آرائهم مما يتعلق بالقضايا الإسلامية.

ثم عقدت خاتمة ضمنتها أهم نتائج البحث.

وأخيرًا فهذا ما وفقني الله إليه في عرض موضوع البحث «طه حسين والفكر الاستشراقي»، فإن كنت قد أصبت فأسأل الله أن يتقبل هذا الجهد خالصًا لوجهه، وأن يكفر به عني من سيئاتي، وإن كنت قد أخطأت فالكمال لله وحده، وأسأل الله أن يعطيني أجر المجتهد.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الأول

طه حسين ومرحلة الطفولة

تعريف:

في قرية الكيلو من إقليم المنيا بصعيد مصر[1] وقبل قرن من الزمان؛ وبالتحديد في الرابع عشر من نوفمبر عام ألف وثمانمائة وتسعة وثمانين (١٤/١١/١٨٨٩م) ولد طه حسين[2].

وقد كان (سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه؛ وخامس أحد عشر من أشقته؛ وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانًا خاصًا يمتاز من مكان إخوته وأخواته.. وكان يجد من أبيه لينًا ورفقًا؛ وكان يحس من أمه رحمة ورأفة؛ وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له)[3].

وكانت هذه الحساسية في التعامل من أهله نظرًا لما امتحن به طه من

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام. دار الاعتصام بمصر، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٢١.

(٢) مضى على مولده قرابة مائة وأربع وعشرون سنة.

(٣) طه حسين: الأيام. دار المعارف طبعة ٥٩ ب.ت ٧١/١ بتصرف.

(حُبِّبَ إليه ـ يعني نفسه ـ لونًا من ألوان اللهو، هو الاستماع إلى القصص والأحاديث، فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر، أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه، ومن هنا تعلم حسن الاستماع، وكانت الكتب التي يتداولونها بالقراءة تحكي قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنترة[1] والظاهر بيبرس[2] وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين وكتبًا في الوعظ والسنن)[3] فكان ذلك يسعد نفسه ويجد لذلك أثرًا عبر هو عنه بقوله: (كان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب؟[4] وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر)[5].

ولم يكن القصص الشعبي وحديث الجن والسحر جماع ثقافته بل كانت هناك أمور أخرى تشاركها في تأثيرها ومنها الغناء والتعديد (فكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهن يتغنين، وأمه وهي

---

(١) عنترة العبسي: عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي، شاعر من فرسان العرب في الجاهلية، من أهل نجد شهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً ينسب إليه ديوان شعر. راجع: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٥٨٧/٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) الظاهر بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين الصالحي رابع سلاطين المماليك البحرية، ولد سنة ٦٢٥هـ ومات سنة ٦٦٧ هـ. دائرة المعارف الإسلامية ٣٦٣/٤ وما بعدها.

(٣) الأيام ٢٤/١، ٢٥ بتصرف.

(٤) [معنى مزجر الكلب] الزجر معناه: الكف والمنع ومزجر الكلب هو منتهاه ومستقره بعد انتهاره وزجره. مجمع اللغة العربية/ المعجم الوجيز. طبعة وزارة المعارف ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٨٦.

(٥) الأيام ٢٥/١، ٢٦.

ولم تكن هذه العناية مقصورة على المعرفة بل كثيرًا ما كان يتجاوزها إلى التقليد والتجربة يشاركه في ذلك أقران له (وكثيرًا ما كان يختلط في عقولهم السحر والتصوف فيصبح كلاهما شيئًا واحدًا، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله.. وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا فقد كان يتصرف ويتكلف السحر وهو واثق بأنه سيرضى له ويظفر من الحياة بأحب لذاتها)[1].

يضاف إلى ما ذكرنا من مكونات ثقافته اطلاعه على بعض القصص المأخوذة عن «ألف ليلة وليلة»[2] الذي يعنى بالخيال وحكاية الأساطير[3]، وكان لعلماء القرية والإقليم الأثر الكبير في تشكيل عقله وذلك لكثرة ما كان يختلف إليهم ويسمع منهم، ولقد كان علم هؤلاء العلماء في أكثر الأحيان يجانب الحق والصواب.

فبعضهم ليس له بالعلم صلة ولا نسب اللهم إلا حفظ القرآن أو طرفًا من آياته يظن معه أن هذا الحفظ يكفيه ليجلس من الناس مجلس الإفتاء والدلالة على الخير.

وآخرون يدعون أن علومهم تأتيهم من السماء لما خصوا به من الولاية والكرامة.. ولقد صور طه علم أستاذه الذي كان يعلمه القرآن

---

(١) طه حسين: الأيام ١/١٠٠.
الشيخ محمد عاشور الصدفي: من قرية صدفا، بمحافظة أسيوط من خيرة رجال العلم المشهود لهم بالعلم والاطلاع، وهو والد الشيخ بكري الصدفي الذي تقلد الإفتاء بمصر عام ١٣٢٣هـ، بعد الشيخ محمد عبده، راجع: إيمان التوني: دار الإفتاء المصرية تاريخ عريق، محرك بحث (مصرس) على شبكة الإنترنت.

(٢) ألف ليلة وليلة أشهر مجموعة عربية قديمة للقصص اختلفت حولها الآراء هل كتبها فرد واحد أم مجموعة وهل هي عربية أصيلة أم مأخوذة عن أصول فارسية، لكن المشهور عنها حكايتها للقصص الخيالي والأسطوري. راجع: دائرة المعارف الإسلامية، مادة: ألف ليلة وليلة ٢/٥١٨ ـ ٥٥٤.

(٣) طه حسين: الأيام ١/١٠٠.

والخريدة والسراجية[1]. فيقبل على هذه المتون يحفظها راغبًا في نيل منزلة كمنزلة أخيه الذي يحتفي به أهل القرية حين يعود من الأزهر فيحملونه على السرج ويطوفون به أرجاء القرية بين زغاريد النساء وتيهان الشيوخ.

ـ ولقد كانت محنة فقد البصر لدى طه تشعره بشيء من النقص، ذلك الشعور الذي أكسبه نوعًا من التحدي والإصرار ورغبة في لفت الأنظار إليه!

لقد صور طه هذا الشعور في شيء من الغلو في اللفظ وهو يحكي جانبًا من جوانب طفولته فيقول: (وكم كان فرحًا حين غدا إلى الكتاب يوم السبت وفي يده نسخة من الألفية، لقد رفعته هذه النسخة درجات، إن كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد، ولكنها على ضآلتها، وقذارتها كانت تعدل عنده خمسين مصحفًا من هذه المصاحف التي يحملها أترابه (!!!)[2] المصحف! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا، وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد... الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

---

(١) راجع: الأيام ١/٦٧ ـ ٧١.

(٢) قال الأستاذ عبد الهادي مسعود معلقًا على هذا الكلام: وإذا كان طه حسين قد صاغ عباراته هذه على أنها مشاعر الصبا إلا أنه عبَّر عن رأيه هذا وهو في كامل وعيه وبعد أن صار كاتبًا شهيرًا، وحسبنا أنه اختزن مفصل تلك الوقائع في عقله منذ صباه الباكر حتى شرع في تحرير كتابه فدونها على هذا الوجه... وقد طبع كتاب «الأيام» مرات وفيه هذا الكلام، ولم يحاول هو أن يغير فيه أو يبدل منه، ولم يلتفت أحد إلى أن هذه العبارات سب مباشر في المصحف الشريف. راجع: السيد مرتضى الرضوي: مع رجالات الفكر في القاهرة، مطبوعات النجاح بالقاهرة ط١ سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٦٤.

المبحث الثاني

طه حسين والأزهر الشريف

(. . . وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيًا وأراك من علماء الأزهر قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى)[1] كلمات قالها والد طه لولده وهو يودعه حين خرج مسافرًا إلى القاهرة ليدرس في الأزهر وليصبح مجاورًا مثل أخيه الشيخ أحمد حسين.

ويصف لنا طه نفسه في هذه الفترة الأولى مقبلاً على الأزهر إقبال («صبي جد وعمل» تقتحمه العين في هذا كله ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعًا مع قائده إلى الأزهر لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين (!!) تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه. . في شيء من الرفق حين تراه في حلقة الدرس مصغيًا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه

(١) طه حسين: الأيام ١٣٨/١.

بالأزهر على مجموعة من مشاهير علماء الأزهر في تلك الحقبة في مختلف العلوم التي كانت تدرس فحضر دروس الشيخ محمد بخيت[1] الذي (أصبح فيما بعد مفتيًا للديار المصرية) في الفقه الحنفي، وحضر دروس الشيخ محمد حسين العدوي[2] في المنطق ودروس الشيخ محمد مصطفى المراغي[3] في التوحيد والشيخ محمد راضي[4]، والشيخ عاشور الصدفي[5])[6].

ولقد كان طه يحمل في تلك الفترة نفسية ناقدة تدفعه إلى معارضة أساتذته ومجادلتهم، وكانت لهذه النفسية خلفية تكمن في شعوره بالإهمال نظرًا لما امتحن به من فقد البصر تلك «الآفة» حسبما سماها التي كانت تؤلمه وتؤذي نفسه.. هذه المشاعر دفعته لأنه يحقق

---

(١) محمد بخيت المطيعي (١٢٧١ ـ ١٣٥٤هـ/١٨٥٤ ـ ١٩٣٥م): فقيه حنفي، مشارك في علوم، ولد بأسيوط، وتعلم بالأزهر ودرس فيه، واتصل بجمال الدين الأفغاني، وتوفي بالقاهرة. من آثاره: «حقيقة الإسلام وأصول الحكم وغيرها». معجم المؤلفين ١٥٩/٣.

(٢) محمد حسين العدوي (كان حيًا ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) محمد بن حسين العدوي الحمزاوي: فاضل من آثاره: تقريرات على حاشية الرسالة العضدية فرغ منها سنة ١٢٩٦. معجم المؤلفين ٢٢٤/٣.

(٣) محمد مصطفى المراغي، ولد سنة ١٨٨٠م، تولى مشيخة الأزهر مرتين الأولى سنة ١٩٢٨ واستقال منها على إثر خلاف مع الحكومة ثم أعيد انتخابه سنة ١٩٣٥، كان من تلاميذ الإمام محمد عبده وممن يترسمون خطاه في الإصلاح. راجع: د. محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. مجمع البحوث الإسلامية، مصر ـ سلسلة البحوث الإسلامية سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٥/٣ وما بعدها.

(٤) لم أستدل عليه.

(٥) لم أستدل عليه.

(٦) د. مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، ص١٠، ١١.

فقيه الكتاب مثلاً في شيء من العلم وثب عليه واتهمه بالجهل، وإذا قرأ والده بعض المأثورات هز رأسه وقال عن قراءته: إنها عبث لا غناء فيها، وإذا تحدث الناس عن علم القاضي بالمحكمة الشرعية قال طه: إنه أعلم من القاضي بالشرع وأفقه منه بالدين وأحق منه بالقضاء!!... ثم أنهى الدكتور طه تفصيل ذلك كله بقوله: «وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه، وتغير مكانه في الأسرة، مكانه المعنوي إن صح التعبير، فلم يهمله أبوه، ولم تعرض عنه أمه وأخوته ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق بل على شيء أكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق»[1].

وقد حار كثير من الكتاب والعلماء في مسلك طه إزاء أهله ومجتمعه وإزاء أساتذته ومعلميه الذي كان كثير المعارضة لهم والتندر بهم بين زملائه والتنقص لعلمهم وفهمهم!!

هل كان باعثه إظهار نفسه وإبرازها كما صرح هو نفسه ـ عن باعثه في مخالفة أهله ومعارفه في القرية[2] ـ أم أنه لم يشذ رغبة في الشذوذ، وإنما كان يوافق عقلاً وحجة كان قد أوتيها، فكان يأخذ نفسه بكثير من الجد الصارم، ويشغل حاسته الناقدة في كل ما يسمع، وكل ما يصل إليه من رأي أيًا كان هذا الرأي وأيًا كان مصدره[3].

---

(١) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر. مؤسسة دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال العدد ٣٨٧ مارس سنة ١٩٨٣م، ص١١٨، ١١٩، بتصرف؛ والأيام ٢/١٢٠ ـ ١٢٨.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٢ بتصرف.

(٣) كامل زهيري: المنهج الفكري عند طه حسين، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال ـ ب، ت، ص١٤١.

حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلى الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه وكان الشيخ قاسيًا إذا طرق هذا الموضوع وكان نقده لاذعًا وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليمًا حقًا، ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى، وكان يؤثر في نفس الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه)[١].

وكان يشاركه في عمله هذا اثنان من زملائه هما: أحمد حسن الزيات[٢]، والشيخ محمود زناتي[٣]، ولقد اتسعت المودة بينهم وبين الشيخ سيد علي المرصفي حتى كانوا يذهبون إليه في داره يتلقون عليه بعض الدروس (ويتلقون عليه بنوع خاص العبث بالشيوخ والاستهزاء بهم)[٤].

(وعلى الرغم من تبرم طه حسين بأسلوب الأزهريين وسخطه عليهم فقد كانت السنوات الأربع التي قضاها في الأزهر من أهم مراحل تكوينه العقلي التي أصبحت قوامًا أساسيًا لثقافته اللغوية والنقدية، فكل ما يمتاز به أسلوبه من الرصانة والفصاحة يرجع إلى هذه الفترة التي تعلم فيها دروس الأدب على شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ

---

(١) طه حسين: الأيام ٢/١٦١، ١٦٢.

(٢) أحمد حسن الزيات: أحد أدباء مصر المعدودين ولد بمدينة طلخا سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م درس بالأزهر ثم عمل بالتدريس في إحدى المدارس الأهلية، أنشأ مجلة الرسالة وعمل رئيسًا لتحريرها قرابة عشرين عامًا كذلك عمل رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، توفي سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. راجع: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص١٤.

(٣) محمود زناتي: كان زميلاً لطه أيام الدراسة بالأزهر، وكان يشاركه في كثير من آرائه وأعماله. عمل مصححًا بدار الكتب المصرية وكان طه يُكِنُّ له ودًا عظيمًا. راجع: د. محمد الدسوقي: طه يتحدث عن أعلام عصره، ص١٥، ١٧.

(٤) فؤاد دوّارة: عشرة أدباء يتحدثون ـ دار الفكر ـ مصر ط٢ ب. ت، ص١٦.

خروج طه حسين من الأزهر:

كانت السنوات القلائل التي أمضاها طه حسين في رحاب الأزهر محل صراع دائم بينه وبين الأساتذة، ومواقفه مع شيوخه ومربيه كان يدفعه إليها حدة الطبع ونوع من التحدي ورغبة في تأكيد الذات والمطالع للأيام ـ السيرة الذاتية لطه ـ يجد أنه لم يتحدث عن الأساتذة والعلماء في معظم المواضع إلا حديث الشانئ الهازئ، اللَّهم إلا أسطرًا معدودة سطرها في الإشادة بالشيخ عبدالله دراز[1] أشار فيها إلى براعة الشيخ في النحو ومهارته في رياضة الطلاب على مشكلاته مما زاد ذلك طه حبًا في النحو[2].

ولعل هذا الثناء القليل وسط زخم هائل من التنقص والغمز واللمز إنما كان يهدف من ورائه إضفاء روح الإنصاف والتجرد.

ولقد كان توتر العلاقة بين طه وبين الأزهر نظرًا لما كان فيه من جرأة غير محمودة كانت تتجاوز أروقة الأزهر وجدرانه لتظهر على صفحات الجرائد والمجلات، ناقدًا تارة وهاجيًا أخرى، ينتقد الأزهر ويهجوه كمؤسسة وينال من شيوخه وعلمائه بهذا الاعتبار، (ولقد أعلن الدكتور طه في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٧ من الهلال الأسباب التي أخرجته من الأزهر فقال:

بينما كنا نقرأ كتاب الكامل للمبرد[3] وردت هذه العبارة: ومما

---

(١) الشيخ عبدالله دراز: أحد علماء الأزهر الأماجد، وهو والد الدكتور محمد عبدالله دراز، أبرز آثاره: شرحه لكتاب الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي.

(٢) طه حسين: الأيام ١٣٦/٢.

(٣) المبرد (٢١٠ ـ ٢٨٥هـ/٨٢٥ ـ ٨٩٨م) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير=

اللجنة أن تسقطني في الامتحان كما كان يقال ومصدر ذلك أني هجوته بشعر نشر في بعض الصحف، ولم أحزن على هذا الرسوب، بل أكاد أقول: إني فرحت به، لأني اتجهت بعد إلى الدراسة الجامعية)[1].

هل تعمد الأساتذة رسوبه؟

إن القراءة المتأنية لما كتبه الدكتور طه حسين عن تلك الفترة تبين أنه لم يستعد لامتحان العالمية بوجه من أوجه الاستعداد، وإنه ليصرح بقلمه في مذكراته في الأيام وفي بداية الفصل الثاني وتحت عنوان:

«كيف سقطت في امتحان العالمية» بهذه الكلمات (لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثت الأسباب بينه وبين الأزهر فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه وضيقه به ومله من أحاديثه المعادة)[2].

(لقد تهيأ الدكتور طه للامتحان وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها، إنه يجيد النحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب، ولكن هناك علومًا صعبة عويصة لم يجلس إلى الأساتذة كي يستظهرها أو لم يلم بمضمونها ويصل إلى ما يبلغه طريق الفوز في امتحانها، هناك التوحيد والفقه والأصول والمنطق والحديث والتفسير والوضع والمقولات ولكل علم أبوابه الصعبة ولا بد أن ينجح الطالب في العلوم جميعها بحيث لو رسب في مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة)[3].

---

(١) فؤاد دوّارة: عشرة أدباء يتحدثون، ص١٧، طه حسين: الأيام ١٣/٣، ١٤.
(٢) طه حسين: الأيام ٩/٣.
(٣) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين حرية السياسة وحرية الفكر، ص١٢٥.

على علم بمنزلة الطالب الممتحن فقابلته اللجنة بالابتسام المشجع وعرض عليه الشيخ الجبالي أن يختار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيه من أبواب الفقه والأصول والمنطق والتوحيد فتحير الطالب ثم اختار في قلق ما رغب فيه، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار مترفقة تسأله في الأصول فلا يجيب، وفي المنطق فلا يرد وكذلك في الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه أنه لم يُلم بعلوم الأزهر، وخرج ليكتب مقالة ذاكرًا أن علوم الأزهر هذه لن تفيده، وأن الرسوب من حقه إذا لم يجد ميلاً إلى استيعابها، أين موقفه من موقف طه حسين)[1].

ومع كل ما تقدم يرى الدكتور أن الشيوخ تآمروا عليه وعملوا على سقوطه ويؤيده في ذلك كثيرون[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= بمجلة الأزهر في عقدها الأول، ومن آثاره: شفاء الصدور في تفسير سورة النور. انظر: د. محمد رجب البيومي: من أعلام الأزهر العلامة إبراهيم الجبالي ـ مجلة الأزهر عدد ذي القعدة سنة ١٤١٤هـ أبريل ١٩٩٤م، ص١٧، ٢ وما بعدها.

(١) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين حرية السياسة وحرية الفكر، ص١٢٦.

(٢) راجع: حمدي السكوت، ومارسدن جونز، طه حسين ـ سلسلة أعلام الأدب المعاصر، الجامعة الأمريكية ١٩٨١، ص٨.

طه لفت أنظار الناس إليه فواجههم بما لم يألفوه من الآراء يقول طه عن ذلك:

(تسامع هؤلاء الناس جميعًا بمقالات الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون واستهزائه بكرامات الأولياء، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبي ضال مضل قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس)[1].

كانت هذه النسبة باعثة لطه لكي يلتمس أسباب منزلة الشيخ محمد عبده ويعمل للوصول إلى ما وصل إليه الأستاذ الإمام شهرة وعلمًا.

ولقد كانت حركة الأستاذ الإمام في الأزهر حركة بعث وتجديد لفتت أنظار طه وأخذت بلبه يقول طه عن ذلك:

(إن المدة التي قضيتها في الأزهر كانت فترة انتقال فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة، والشيخ المرصفي يعلمنا الأدب وكلاهما يذم الطرق الأزهرية، وكان قاسم أمين[2] يقول بتحرير المرأة وفتحي زغلول[3]

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢٦/٢.

(٢) ولد قاسم أمين بالإسكندرية سنة ١٨٦٣م وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٨١م، سافر إلى فرنسا في بعثة لدراسة القانون وهناك شارك الأفغاني ومحمد عبده في إصدار العروة الوثقى، من أشهر آثاره: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة. راجع: مقدمة الأستاذ أحمد بهاء الدين لكتاب تحرير المرأة. الهيئة العامة للكتاب، سلسلة التنوير سنة ١٩٩٣، ص٣ وما بعدها.

(٣) فتحي زغلول (١٢٧٩ ـ ١٣٣٢هـ ـ ١٨٦٣ ـ ١٩١٤م) أحمد فتحي بن إبراهيم زغلول، من قضاة مصر، درس الحقوق في أوروبا، أتقن الفرنسية وعمل بالترجمة عنها. معجم المؤلفين ٢٢٧/١.

سواد الليل ولا أفكر إلا فيه بياض النهار، ثم أنصرف وقد عاهدت الله على أن ألزم درس الشيخ لا أعدل به درسًا ولا أنصرف عنه إلى شيء غيره ولكن الله يريد أن يكون هذان الدرسان آخر عهد الأستاذ بالتعليم في الأزهر فقد استقال من مجلس الإدارة وتحول إلى دار الإفتاء)[١].

هل تأثر طه بالأستاذ الإمام؟

كانت الحركة التجديدية في الأزهر قد سيطرت على الأفكار داخل الأزهر وخارجه بفعل الشيخ محمد عبده في ذلك الوقت الذي انتسب فيه طه حسين إلى الأزهر[٢].

ولكننا نستطيع القول بأن تأثر طه بالأستاذ الإمام يعد تأثرًا وقتيًا، فقد أعجب به وبأقواله ومناهجه، ولقد قرأ طه كثيرًا من كتب الأستاذ الإمام في فترة الطلب بالأزهر، أما حين اختلف إلى الجامعة المصرية وتلقى عن الأساتذة الأجانب من المستشرقين رغب عن أمنيته السابقة في أن يكون شيخًا مجددًا كالأستاذ الإمام وإنما قال:

(أصبحت وأنا أشد انصرافًا عن الأزهر ونفورًا من دروسه وشيوخه وحرصًا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقي وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه)[٣].

---

(١) أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره) دار الهلال، ص٥٥، ٥٦ بتصرف.

(٢) عبد الخالق محمود عبد الخالق: شخصية رجل الدين في أدب الدكتور طه حسين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثامن في ذكرى طه حسين، كلية الآداب، جامعة المنيا، يناير سنة ١٩٨٢م، ص٥.

(٣) طه حسين: أديب، مرجع سابق، ص٤٦.

دفاعيًا اتخذوه من الجانب الآخر، لم يفعلوا ما فعله طه حسين. لقد أثروا فيه جميعًا هذا شيء لا شك فيه ولكنه كان بالقطع أشجعهم انتماء لفكره ودفاعًا عنه)[1].

وهذه النظرة الغالية في طه باعثها ـ لدى أصحابها ـ الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية والتي دعا طه فيما بعد إلى الأخذ بأسبابها والذوبان فيها، تلك الدعوة التي استجاب لها الكثيرون ورأوها طوق النجاة للخروج من حالة الوهن والاستضعاف التي مني به العرب والمسلمون في عصورهم الأخيرة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= د. حسن حنفي ـ جمال الدين الأفغاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص٢١.

(١) صلاح عيسى: الكارثة التي تهددنا. مكتبة مدبولي، ط١ سنة ١٩٨٧م، ص١٤٨، ١٤٩.

السياسي الذي كان يميل إلى مهادنة الإنجليز والتعاون معهم، وفي المقابل الرفض القاطع لأي ارتباط مع الأتراك ـ الذين كانوا بمثابة الرمز للوحدة الإسلامية ـ إنما كان ارتباطه بحزب الأمة ارتباطًا شخصيًا تمثل في قناعة طه وانبهاره بشخص أحمد لطفي السيد[1].

(لقد كان لطفي السيد أكثر عقل مثقف ثقافة غربية في مصر في ذلك الحين.. لقد تعلم في أوروبا وعاد إلى مصر مقتنعًا بالثقافة الغربية اقتناعًا عميقًا وأراد أن ينقل هذه الثقافة إلى مصر.. أو بالأحرى أراد أن يجعل مصر متجهة وجهة غربية عصرية في ثقافتها الجديدة في العلم والسياسة والاجتماع...

ووجد طه حسين في لطفي السيد وفي التيار الفكري المتحرر (!!) الذي خلقه لطفي السيد بيئة ملائمة تمامًا لفكره.

ولقد كانت آراء لطفي السيد هي الآراء القريبة إلى قلب طه حسين وعقله... فلقد كان ينادي بفصل الدين عن الدولة والأخذ بفكرة الدولة المدنية العصرية، وكان ينادي بتحرير المرأة وسفورها ويتبنى الكاتبات اللائي كن يكتبن في الدعوة إلى تحرير المرأة.. وفي النهاية كان لطفي السيد مؤمنًا بالعقل أكثر من إيمانه بالعاطفة[2]، ومن هنا وجد في لطفي السيد ومن معه من مثقفي حزب الأمة جاذبية[3].

---

(١) أنور الجندي: أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث. دار الأنصار، سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية عدد رقم ٩، ص٢٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) دأب بعض الكتاب المعاصرين على وصف الالتزام بالإسلام والدعوة إلى قيمه بالعاطفة في مقابلة العقل تهوينًا من قدره وحطًا من شأنه وهو مسلك فيه كثير من الخبث والضلال.

(٣) رجاء النقاش: طه حسين والأحزاب السياسية، بحث ضم كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، ص١٩٢ ـ ١٩٧ بتصرف.

ذلك حتى توفي لطفي السيد، فلقد كان لطفي صاحب الفضل في إقرار مناقشة رسالة طه للدكتوراه والتي كان موضوعها «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» (إذ كانت الجامعة المصرية أقامت نفسها رقيبًا على رسائل طلابها وأخذت عليهم عهدًا ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هي في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرها، فلما استأذنها الفتى في تقديم رسالته وأرسل إلى الجامعة نسخة من الرسالة أحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفي السيد فقرأها ورضي عنها وأذنت الجامعة في تقديمها إلى السوربون)[1].

ثم تآزرا وتشاركا معًا في العمل الجامعي فكان لطفي السيد يجعل من نفسه درعًا واقية لطه حسين، حتى أنه كان يضحي بجاهه حماية لتلميذه ورعاية له، فلقد أقدم على تقديم استقالته من منصب مدير الجامعة حين نُقل الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب إلى وزارة المعارف.

ولقد كتب في بداية استقالته التي وجهها إلى وزير المعارف:

(سيدى الوزير أتشرف بإخبار معاليكم أني أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف؛ لأن هذا الأستاذ لا يستطاع فيما أعلم أن يعوض الآن على الأقل، لا من جهة الدروس التي يلقيها على الطلبة في الأدب العربي، ومحاضراته العامة للجمهور ولا من جهة هذه البيئة التي خلقها حوله وبث فيها روح البحث الأدبي وهدى إلى طرائقه)[2].

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢٣/٣.

(٢) أحمد لطفي السيد: قصة حياتي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨م، ص٢٠٢.

المبحث الخامس

طه حسين والجامعة المصرية القديمة

توجه طه حسين إلى الجامعة المصرية بتوجيه من أستاذه لطفي السيد[١]، وذلك في عام ١٩٠٨[٢] وبعد أن أمضى بالأزهر قرابة الثمانية أعوام[٣]، وما إن وطأت أقدامه الجامعة المصرية حتى استأثرت الجامعة على قلبه ولبه (فإذا هو يجد للحياة طعمًا جديدًا، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الأزهر)[٤] كما عبر هو بنفسه.

لقد اعتبر طه اختلافه إلى الجامعة المصرية انتقالاً من بيئة تمثل القديم والفكر المحافظ إلى بيئة تمثل العلوم الجديدة والفكر الحر (فقد كان يرى حياته في الجامعة عيدًا متصلاً كما كان يراها غيره من المصريين ولكنها كانت بالقياس إليه عيدًا تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل، كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص١١١، ١١٢.

(٢) عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٩.

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٢.

(٤) طه حسين: الأيام ١٨١/٢، ١٨٢.

الترجمة خاصة[1]، وغيرهم ممن كانوا يعملون بالتدريس بالجامعة المصرية ولم يكن اتصاله بهؤلاء الأساتذة مجرد صلة عادية بين الأستاذ وتلميذه إنما وصف طه هذه الصلة بقوله عن نفسه: (واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متينًا فكلهم عرفه، وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف، وكلهم قد أدناه من نفسه، ودعاه إلى أن يزوره في فندقه وأحب أن يقول له ويسمع منه)[2].

ولم يكن طه قد قطع صلته بالأزهر في ذلك الوقت بل «كان يختلف إلى دروس الأزهر مصبحًا وإلى دروس الجامعة ممسيًا»[3] وفي بعض الأحيان كان يرافقه في اختلافه إلى الأزهر أستاذ من أساتذته من المستشرقين (وقد أشار في مذكراته إلى أنه صحب سنتلانا إلى الأزهر فحضر معه درسًا في التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشري وكان يفسر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[4].

فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلاً: هذه جبرية مطلقة، فأجاب الشيخ البشري من أين تعلمت هذا الكفر؟ من أساتذتك الإفرنج؟! هنالك وضع سنتلانا يده على كتف طه طالبًا منه السكوت)[5].

ولم يكن إعجاب طه بالجامعة المصرية لتدريس طائفة من المستشرقين بها فحسب بل لما وجد فيها من أساتذة مصريين كان لهم

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٤، ٣٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق ٢/١٨١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٥) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢١؛ طه حسين: الأيام ٣/٣٥.

المستشرقين وعلمهم، فحين كان يثني على أحدهم يوازيه بالمستشرقين قائلاً: إنه لم ير لأحدهم ـ يعني المستشرقين ـ فضلاً على أستاذه من المصريين.

وفي المقابل يحط من شأن بعض معلميه من المصريين إذ أنه يرى فيهم (ذا العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذي يخلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذو بال)[1] كما في حديثه عن الشيخ محمد المهدي[2] الذي كان يدرِّس الأدب العربي وكذلك في حديثه عن الشيخ طنطاوي جوهري[3] الذي كان يدرِّس الفلسفة الإسلامية فهؤلاء لا يقارن علمهم بعلم الأساتذة من المستشرقين ولا يقوم له[4].

والباحث يأخذه شيء من العجب والدهشة من مسلك طه حسين إذ أنه لم يتحدث عن أساتذته من المستشرقين إلا حديث الموقر المجل، المأخوذ بما لديهم من علم وما عندهم من طرائق التفكير ومناهجه، وكأن المستشرقين طبعوا طبعة واحدة ليس فيهم صحيح

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٧.

(٢) ولد الشيخ محمد المهدي سنة (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م) في إحدى قرى محافظة الشرقية، تعلم بالأزهر ودار العلوم وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، كان كاتبًا عالي الأسلوب يؤثر الفصحى في حديثه. توفي سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م. طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٨٥.

(٣) طنطاوي جوهري (١٢٨٧ ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٨٧٠ ـ ١٩٣٩م) عالم، حكيم، أديب، مفسر، ولد في كفر عوض الله حجازي من أعمال مديرية الشرقية، درس بالأزهر، وتخرج بدار العلوم وألقى محاضرات في الجامعة المصرية القديمة من مؤلفاته الكثيرة: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، والحكمة والحكماء، الموسيقى العربية وغيرها. معجم المؤلفين ٢/١٥.

(٤) طه حسين: الأيام ٣/٣٧ ـ ٤٣.

حقوق الجامعيين؛ لأنه ألف كتابًا فيه إلحاد وكفر.

وكان طه في هذا الكتاب قد تبنى الكثير من آراء أبي العلاء من الثقة بالعقل والتشكك في الأخبار المتواترة[1]، كما أنه في هذه الرسالة «يكاد يقيد كل شيء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية فلقد كان مؤمنًا بالجبر التاريخي[2] ولعلنا نتناول هذه القضايا في فصل طه حسين والعقيدة الإسلامية. والله المستعان»

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق، ص٣٠، ٣١.

(٢) محمود أمين العالم: طه حسين مفكرًا، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص١٢٦.

من قصص وما كان يؤلف من كتب تاريخ الأدب والحضارة)[١].

(كما كان يتابع آثار العلمانيين وما نشروه من مقالات تغريبية فقرأ مقالات يعقوب صروف[٢] في المقتطف كما يقرأ لشبلي شميل[٣]، وفرح أنطون[٤])[٥].

يضاف إلى ما سبق اتصاله بلطفي السيد، والشيخ عبد العزيز جاويش[٦].

هذا الأخير الذي رغَّب طه في السفر إلى أوروبا وحسَّنه في نفسه وخصص له فرنسا بالتحديد كبلد يقصده ويتوجه إليه[٧] مما جعل السفر

---

(١) طه حسين: الأيام ١٧٥/٢، ١٧٦.

(٢) يعقوب صروف (١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ/١٨٥٢ ـ ١٩٢٧م) يعقوب بن نقولا صروف الدمشقي الأصل، الحموي المنبت، حكيم، رياضي، فلكي، أديب، كاتب، مشارك في كثير من العلوم، أنشأ مجلة المقتطف، وشارك في إصدار جريدة المقطم. معجم المؤلفين ١٣١/٤.

(٣) شبلي شميل (١٢٧٦ ـ ١٣٣٥هـ ـ ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م) شبلي بن إبراهيم شميل، طبيب، حكيم عالم بالعلوم الطبيعية، سياسي، أديب، ناثر، ناظم، لبناني الأصل، عاش في مصر في أخريات حياته، أنشأ مجلة الشفاء. معجم المؤلفين ٨١٠/١.

(٤) فرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م) لبناني الأصل مسيحي، حضر إلى مصر سنة ١٩٩٧م أصدر مجلة سماها الجامعة، وكان مجيدًا للفرنسية متأثرًا بأدباء فرنسا ومفكريها. راجع: جريدة القاهرة: العدد ١٤٠ الصادر في يوم الثلاثاء ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.

(٥) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٩.

(٦) عبد العزيز جاويش: خطيب وكاتب، يعد من رجال الحركة الوطنية بمصر ولد بالإسكندرية سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م وتعلم في الأزهر ودار العلوم، أصدر بعض المجلات مثل الهداية، والعالم الإسلامي. توفي سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م. طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٦٥.

(٧) طه حسين: الأيام ٤٧/٣.

من طوق ولا إلى الإجادة من سبيل، ماذا تريدون من رجل لم يكد يأنس إلى حياة النور والهدى حتى ردته الأقدار إلى حيث الظلمة الداجية والضلال المبين (!!) ماذا عسى أن نصنع بذكائنا في بلد قانع كمصر، قد رضي أهله بالقليل في كل شيء، فحسبهم من العلم والأدب ومن الفلسفة والحكمة ألفاظ يلوكونها وجمل يرددونها بين الشفاه. واعجبًا كل العجب، يعود الناس إلى بلادهم بعد الغربة فرحين ولقد عدت إلى مصر آسفًا محزونًا، ولقد أستحي أن أقول الحق فأعلن أني استقبلتها باكيًا)[١].

بهذه الروح المحزونة عبر طه حسين عن أسفه لرجوعه من فرنسا، بل إن كلمات هذه المقالة على ما تحمل من مرارة هي أخف مقالة عبر بها عن محنته آنذاك[٢].

ثم تنجلي أزمة الجامعة المالية وتأذن لطلابها بالعودة فيكون الفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن.

ولقد عبَّر طه عن فرحه باختلافه إلى الجامعة في مدينة مونبلييه بقوله: (كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظًّا من النجاح والتوفيق)[٣].

حضر في فرنسا (دروس التاريخ اليوناني على «جلوتز»[٤].

---

(١) أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٥٩.

(٢) انظر: نصوص تلك المقالات في المرجع السابق نفسه، ص٥٩ وما بعدها.

(٣) طه حسين: الأيام ٣/٨٠.

(٤) جوستاف جلوتز (١٨٦٢ ـ ١٩٣٥م) مؤرخ فرنسي من آثاره (المدينة الإغريقية) صدر عام ١٩٢٨م بالفرنسية ترجمة إلى العربية محمد مندور عام ١٩٦٥م.

فرانس[1].

يقول طه عن إعجابه بـ كازانوفا:

(عرفته أستاذًا في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابًا لم أعرف له حدًّا، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكني لم أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطعون أن يعرضوا في إصابة وفي توفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه، فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله)[2](!!).

وفي سنة ١٩١٧ يحصل على درجة الليسانس في الأدب من السوربون.

وفي ٩ أغسطس من نفس العام يقترن بزوجته التي كان لها أبعد الآثار وأعمقها في حياته[3] فلقد كانت المرأة التي أبصر بعينيها على حد تعبيره هو[4].

لقد ظلت سوزان بريسو الفرنسية الكاثوليكية تتردد زمنًا قبل أن

---

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٠.
(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٣٦.
(٣) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣١.
(٤) طه حسين: الأيام ١١٣/٣.

المبحث السابع

طه حسين ومرحلة العطاء

تمهيد:

كانت الثلاثون عامًا الأولى من حياة طه حسين تمثل مرحلة الطلب والتكوين، مر في خلالها ببيئات مختلفة كان لها أثر كبير في تكوينه، بداية من مرحلة الطفولة وبيئة القرية مرورًا بالطلب في الأزهر والجامعة المصرية وانتهاءً بسفره إلى فرنسا الذي انتهى سنة ١٩١٨ بمناقشة رسالته للدكتوراه والتي كان موضوعها «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون».

وفي أكتوبر سنة ١٩١٩ عاد طه حسين إلى مصر ليعمل أستاذًا للتاريخ القديم بالجامعة المصرية[١].

طه حسين والتدريس الجامعي:

استمر طه حسين في عمله أستاذًا للتاريخ القديم بالجامعة المصرية

---

(١) مجلة القاهرة، الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب: بيبلوغرافيا طه حسين العدد ١٣٢ نوفمبر ١٩٦٣.

الكبرى في الأرض ومصدرًا من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم)[1].

(وفي ربيع عام ١٩٢٦ ألقى دروسه المشهورة عن الشعر الجاهلي التي لم تلبث حين طبعت أن أحدثت دويًا شديدًا في دوائر الصحافة ومجلس الشيوخ ومجلس النواب والأزهر لمعارضتها الطابع الإسلامي وأعراف المجتمع وعقائده)[2].

إذ كذَّب صريح القرآن، وطعن في نسب النبي ﷺ وأثار عددًا من القضايا الدينية التي خالف فيها إجماع المسلمين إضافة إلى القضية الأساسية التي وضع الكتاب من أجلها وهي قضية الشعر الجاهلي الذي انتهى به البحث في شأنه إلى القول بأن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين[3].

ولقد كان رد الفعل لدى الأمة عامة والعلماء خاصة شديدًا، إذ تعرض العلماء والكتاب لآراء طه بالنقد والتمحيص وصدرت مؤلفات كثيرة تتناول الكتاب وصاحبه بالنقد اللاذع وكذلك فعلت صحف «كوكب الشرق»، و «الأهرام» و«المقطم»، و«البلاغ».

(ولم يتوقف الهجوم على طه وكتابه عند صفحات الجرائد وحدها

---

(١) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧٣.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٧، ٥٨.

(٣) كتب العلماء في الرد على كتاب الشعر الجاهلي كتبًا كثيرة منها نقض كتاب الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين، وتحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي، والشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة.

إليه بالأمس، والأخرى: شاعرة تلذ وتألم في غير نقد ولا بحث ولا تعليل، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى)[١].

وهوى الدكتور بهذه الكلمات في بئر أعمق من سابقه إذ قطع بهذه الكلمات بالتناقض بين «العلم والدين»[٢]، بل صرح بذلك في أعقاب تلك الأزمة حين أُخرج من الجامعة إذ أقام طلبة الجامعة ما أطلق عليه حفل تكريم فقال لهم:

(أرجو أن يكون بيننا عهد، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم «ألا نؤمن إلا بالعلم»)[٣].

وكان الدكتور قد وقف موقفًا لا يحمد له حين ناصر صاحبه الشيخ علي عبد الرازق[٤] حين أصدر الأخير كتابه الإسلام وأصول الحكم، الذي يقرر فيه أن الإسلام رسالة روحية فقط وليس في الإسلام نظام للحياة[٥].

---

(١) طه حسين: حول الشعر الإلهي مقال بجريدة السياسة الصادرة في ١٩٢٦/٧/١٧.

(٢) سنقف بحول الله وقوته مع هذه القضية في فصل طه حسين والعقيدة الإسلامية.

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٩.

(٤) علي عبد الرازق: ولد الأستاذ علي عبد الرازق سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م، درس بالأزهر، والجامعة المصرية القديمة حصل على العالمية سنة ١٩١٢م، تولى القضاء بالمحاكم الشرعية، له مؤلفات في الأدب وأصول الفقه، توفي سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، طه يتحدث عن أعلام عصره، ص٦٩.

(٥) راجع: علي عبد الرازق: الإسلام وأصول والحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة المواجهة (التنوير) سنة ١٩٩٣.

الأستاذ علي عبد الرازق باشا وكان وزيرًا للأوقاف وصلينا المغرب معًا، ثم قام علي عبد الرازق لصلاة سنة المغرب فلم أر أتم ولا أكثر خشوعًا منه في صلاته فسألته كيف إذن ألَّف كتاب الإسلام وأصول الحكم فأطرق علي عبد الرازق مليًا ورفع رأسه وقال: أنا ما كتبته والذي ألفه هو طه حسين واتصل بي وقال: لقد كتبت كتابًا ووضعت اسمك عليه فلا تؤاخذني فرأيت أن أضحي بنفسي حماية لمن استجار بي وهو طه حسين)[١].

وفي عام ١٩٣٢ أثيرت قضية الشعر الجاهلي مرة أخرى في البرلمان المصري أثارها الدكتور عبد الحميد سعيد[٢]، وأخرج طه على إثرها من الجامعة[٣].

وفي عام ١٩٣٤م عاد إلى الجامعة وتولى عمادة كلية الآداب في ١٩٣٦م، وظل بها حتى (١٩٣٩م) الذي انتدب فيه مراقبًا عامًا للثقافة بوزارة المعارف[٤].

طه حسين والعمل الصحفي:

اتصل طه حسين بالكتابة الصحفية منذ مرحلة الطلب الأولى وكان

---

(١) جريدة آفاق عربية، الصادرة عن حزب الأحرار المصري، العدد ٤٩٢ الصادر في ٢٢ شوال سنة ١٤٢١هـ/١٨ يناير سنة ٢٠٠١م، ص٧.

(٢) عبد الحميد سعيد من مواليد مارس سنة ١٨٨٢م بقرية سخا من أعمال محافظة كفر الشيخ، وهو سليل أسرة عريقة، عرفت بالتدين دخل مجلس النواب سنة ١٩٢٣م، وقدم للمجلس الكثير من الاستجوابات حول قضايا الإسلام والعروبة. راجع: أبو بكر عبد الرازق وثائق قضايا طه حسين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ط١٤١٢ ـ ١٩٩١، ١٩/١.

(٣) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٦٧، ٦٨ بصرف.

(٤) مجلة القاهرة: بيبلوغرافيا طه حسين، مرجع سابق، ص١٢١.

والمجلات ففي مارس سنة ١٩٣٣م قبل طلب مصطفى النحاس للإشراف على جريدة كوكب الشرق وفي ديسمبر سنة ١٩٣٤ اشترى امتياز جريدة الوادي[١] ثم تولى رئاسة تحرير مجلة «الكاتب المصري» سنة ١٩٤٦م التي أسسها سبعة من الشركاء من اليهود المصريين الأمر الذي أثار كثيرًا من الشكوك حول صلة طه حسين بالصهيونية لدى بعض المثقفين، ولقد نفى طه حسين هذا الاتهام وبين أنه لم يقبل هذا العمل إلا بعد أن استقصى فأحسن الاستقصاء أن أمر المجلة لا يتعلق من قريب أو بعيد بالصهيونية وأن المجلة هي عمل أدبي خالص بعيد عن الأطماع والأهواء والأغراض[٢].

طه حسين والتأليف:

بلغت مؤلفات طه حسين ما يزيد على خمسين كتابًا في القصة والأدب والتاريخ وفلسفة التربية وترجم عن الفرنسية بعض كتب التربية وكذلك بعض القصص لبعض المشاهير من الأدباء الفرنسيين، وترجم العديد من مؤلفاته إلى الفرنسية وإلى غيرها من اللغات.

طه حسين والحياة الثقافية:

تقلبت الحياة بطه حسين فتقلد العديد من المنازل الثقافية سواء التعليمية منها أو التي تختص بالحياة العامة فبدأ بالتدريس الجامعي ثم تقلد العمادة لكلية الآداب ثم انتدت مراقبًا للثقافة في وزارة المعارف ثم

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) د. عبد العزيز شرف: المجموعة الكاملة لمجلة الكاتب المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م، ٢٤/١.

بعقائدهم والتعصب لها عند الحديث عن عقائد الآخرين في أحيان أخرى، على الرغم من ذلك كله (فإن المنصف من الباحثين لا يستطيع أن يجحد جهود المستشرقين ولا يمكن أن ينكر تمامًا فضلهم، ولا يجوز لنا أيضًا أن نستغني على وجه الإطلاق عن دراسات المستشرقين في أبحاثهم، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربية في موضوعات تاريخنا العربي والإسلامي وإن القارئ المثقف والمطلع الفطن والباحث المتخصص يستطيع أن يقوّم أبحاث المستشرقين تقييمًا صادقًا يمكنه أن يميز بين الغث والسمين، وبين وجوه الإنصاف والإجحاف)[1].

ولقد اتصل المثقفون في العالم العربي والإسلامي بالمستشرقين اتصالاً مباشرًا عن طريق البعثات التعليمية في الجامعات الأوروبية فتعلم طلابنا عليهم وأخذوا بمنهجهم ونشروا المنتقى من أعمالهم، ونقلوا عنهم إلى العربية المئات من مصنفاتهم في الدين والعلم والأدب والفن.

وعرف المستشرقون طريقهم إلى بلاد الشرق، عن طريق الرحلات إلى بلاد الشرق، ومنهم من اتخذ الخداع سبيلاً إلى الولوج إلى الديار المقدسة فادعى الإسلام وتسمى بأسماء المسلمين حتى يسهل له الحركة في ديار الإسلام بيسر وطمأنينة[2].

ولقد استعانت كثير من المؤسسات الرسمية في عالمنا العربي

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، ط٤ ب. ت، ٣/٦١٤، ٦١٥.

(٢) انظر: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ترجمة وتعليق د. عبد الرحمن الشيخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٣٤ سنة ١٩٩٤، رحلة بيروتون إلى مصر والحجاز، ت. د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٧٧ سنة ١٩٩٥م ١/٣.

يربطهم في تكوينهم بطائفة المستشرقين)[1].

لقد كانت سعادته غامرة؛ لأن أبحاثه الشخصية تصل به إلى نتائج كبار المستشرقين، ولذا كان يتعمد ألا يقرأ أبحاثهم إلا بعد إتمام أبحاثه لكي يكون على علم بها فقط[2].

وإذا كان الدكتور يعترف بأثر المستشرقين في تكوينه فلم يكن هذا الاعتراف (غير تأكيد على ثقة طه حسين بنفسه وبقدرته على تجاوز هذا التأثير، بمعنى الإفادة منه دون التبعية الكلية أو المطلقة)[3].

فهو الذي يصرح أنه استفاد كثيرًا بمناهج المستشرقين لا بآرائهم. هذه الاستفادة التي (مكنته من استكشاف الكثير من الأخطاء التي وقعوا فيها لجهلهم بالعربية وأسرارها ودقائقها أو لغير ذلك من الأسباب)[4].

وإذا كان الفكر العربي لم يمتحن نفسه ولم يعرف مدى إفادته من أفكار الآخرين وبضمنها أفكار المستشرقين، فإن تلك المساحة، أو هذه الزاوية تحتاج إلى دراسة عميقة هادئة نستطيع من خلالها أن ندرك إيجابيات الاتصال الفكري بين المفكرين العرب والمستشرقين، وكذلك سلبياته، وكيفية الإفادة من تلك الإيجابيات، ثم كيفية معالجة السلبيات أو تلافيها. وهذا البحث في الحقيقة هو امتحان لأفكار طه حسين فيما يتعلق بالإسلام من مباحث ـ شملت العقيدة والقرآن والسيرة والسُّنَّة والفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي وقضايا الحضارات ـ لمعرفة مدى قربها أو بعدها أو اتصالها أو انقطاعها عن التفكير السائد لدى جمهور المسلمين.

---

(١) د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص٨٩.

(٢) سوزان طه حسين: معك، دار المعارف ط٢، ب. ت، ص٧٦.

(٣) د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، ص٨٩.

(٤) فؤاد دوارة: عشرة أدباء يتحدثون، ص٢٠.

(والفِكْرَةُ) الصورة الذهنية لأمر ما، وجمعها فِكَر[1].

وقال صاحب «المصباح المنير»[2]:

الفِكرْ بالكسر تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر فكر، أي: نظر وروية، ويجمع على فِكَر.

ويقال: الفكر ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًا.

(ويقول: «الراغب»[3] في «المفردات»:

الفكر: قوة التوصل إلى المعلومات، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظرة العقل.

ويقول: «الجرجاني»[4] في التعريفات[5]:

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٤٧٧، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت ط١، ٦٥/٥، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: ت: على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، ٥٨٨/١.

(٢) أحمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير: ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، ٤٧٩/٢.

(٣) «الراغب الأصفهاني» أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (وفي بعض الروايات: الفضل) فقيه عربي كتب في المسائل الدينية، أشهر آثاره: كتابه مفردات ألفاظ القرآن، توفي سنة ٥٠هـ تقريبًا. دائرة المعارف الإسلامية ٤٧٣/٧.

(٤) الجرجاني: علي بن محمد الشريف، متكلم عربي وفيلسوف ولد عام ٧٤٠هـ في تاجو قرب أستراباذ، درس علوم العربية والفلسفة وأصول الفقه في شيراز ومات بها سنة ٨١٦هـ، له آثار كثيرة أبرزها: التعريفات، وشروح على الكشاف للزمخشري وغيرها. دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٣/٦.

(٥) علي بن محمد علي الجرجاني: التعريفات. ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١، سنة ١٤٠٥هـ، ٢١٧/١.

فيه من منهج أو طريقة ما للتحليل والتركيب، وهو عادة لا يخلو من مرجعية أو معيار ما يتعارف عليه في البيئة العقلية للخطأ والصواب أو المقبول وغير المقبول)[1].

* معنى الاستشراق في اللغة:

لفظ الاستشراق في اللغة العربية مشتق من المصدر اللغوي «شرق» وذلك بعد تجريدها من أحرف الزيادة ـ الألف والسين والتاء ـ كما نجد أن هذه الأحرف الثلاثة عندما تدخل على الكلمة فإنها تدل على طلب الشيء، كأن أقول: «استسقى»، أي: طلب السقيا، وبذا فعندما أقول: «استشرق» فإنها تعني طلب الشرق بما فيه من علوم وثقافات وعادات وتقاليد.

والبحث في معاجم اللغة عن كلمة «شرق» يدل على أن: «شرقت الشمس» إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت، والتشريق أي: الأخذ من ناحية الشرق قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2]، أي: مصبحين، ويقال: شتان بين مُشَرِّق ومغَرِّبِ، ويسمى أهل الشرق مشارقة وواحدهم مشرقي[3].

---

(١) د. حسن عبد اللطيف الشافعي: تجديد الفكر الإسلامي، مجلة الرسالة، مركز الإعلام العربي بالقاهرة، العدد الأول، رمضان سنة ١٤٢٢، ديسمبر سنة ٢٠٠١، ص٥١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٣.

(٣) انظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح. دار الجيل بيروت. ب. ت، ص٣٣٦، مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٣٤١، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط٣ سنة ١٩٨٥، ٤٨٨/١، محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة: ت: عبد السلام محمد هارون، القاهرة الدار المصرية للتأليف سنة=

أو بمعنى أدق صورة الشرق لغته وآدابه وحضارته في أذهان أهل الغرب ممن عنوا بدراسته.

ولقد كتب في تاريخ الاستشراق وأهدافه كثير من الدراسات السابقة مما يجعل الحديث عن نشأة الاستشراق وأهدافه ومجالات البحث عند المستشرقين وغيرها من المباحث معادًا مكرورًا، لذا فقد رأيت الإشارة بكلمات سريعات إلى تاريخ الاستشراق وغاياته، معرضًا عما سوى ذلك من المباحث المتعلقة بتاريخية الاستشراق لتوافر الدراسات السابقة عليها، والله المستعان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

تعمل على تحقيق أهداف وأغراض في بلدان مختلفة إلا في القرن الثامن عشر (فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا عام ١٧٩٩)[١].

غايات الاستشراق:

يرى الباحثون في هذا الشأن أن غايات المستشرقين من البحث في أمور الشرق إنما ترجع في مجموعها إلى غايتين اثنتين هما:

[**أولاً**: حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به، ويحمل رايته، ويجاهد في سبيله، كما كان من المسيحيين في الشام ومصر والشمال الأفريقي وإسبانيا من قبل حين دخل الإسلام هذه الأصقاع فدخل أهلها في دين الله أفواجًا وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف وحماته والمنافحين عنه][٢].

وهذه الغاية دفعهم إليها الصراع الطويل بين المسيحية والإسلام، منذ هزمت المسيحية في أرض الشام، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، مرورًا بموجات الاحتكاك الصليبي المسلح المتمثل في الحملات الصليبية على ديارًا الإسلام، وذهاب ريحها واندحار كيدها، بدا للقائمين على أمر الصراع وسدنته من الجانب المسيحي استبدال الصراع المسلح بصراع يعتمد على الفكر والثقافة فكتبوا وصنفوا لهدف كبير هو [تصوير الثقافة العربية والإسلامية وحضارة العرب والمسلمين

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٢٠.

(٢) د. عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين ـ مجلة رسالة الجهاد ـ ليبيا العدد ٩٥ جمادى الثانية سنة ١٤٠٠، ص٨٤.

وجل العلماء مجمعون على أن لحركة الاستشراق دوافع تحركها تتخلص في هذه المحاور:

١ ـ [**الدافع الديني**: ويتمثل في إضعاف الإسلام ومثله وقيمه العليا وإثبات تفوق المثل الغربية ذات الأصول اليهودية أو المسيحية.

٢ـ الدافع الاستعماري: وهدفه دعم الاستعمار الغربي لبلاد الشرق بإمداده بالمعلومات، وتهيئة البيئة الشرقية لقبول المستعمر والرضا به.

٣ ـ الدافع الاقتصادي: وهدفه الاستيلاء على ثروات البلاد الشرقية وضرب صناعتها وتحويلها إلى سوق استهلاكية للمنتج الغربي.

٤ ـ الدافع العلمي: وهدفه فتح ميادين للعمل أمام الشباب الأوروبي][(١)]. ثم الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، ولعل هذا الدافع الأخير كان محركًا لكثير من المستشرقين في القيام بأعمالهم [في دراسة موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم وبذلوا فيه جهودًا ضخمة ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعرفة التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم وقرت بها عيون العلماء في الشرق][(٢)].

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجي: حركة الاستشراق، مجلة المنهل (السعودية) العدد ٤٧١ المجلد ٥٠، رمضان سنة ١٤٠٩هـ، أبريل ١٩٨٩، ص١٩٩.

(٢) أبو الحسن الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٣ سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٣.

يقول له ويسمع منه)[1].

ولقد بلغ الاتصال بطه مبلغه، إذ وصل إلى درجة المصاحبة كما حكى عن مصاحبة سنتلانا له ومشاركته له في ذهابه إلى الأزهر واستماعه لطه وهو يحاور أساتذته من علماء الأزهر... فإذا لج طه في المحاورة وعنفه العلماء على لجاجته ترفق به صاحبه المستشرق وأشفق عليه ورجاه أن يسكت[2].

[ولقد درس طه بالجامعة المصرية على عدد من المستشرقين منهم: كارلو نللينو المستشرق الإيطالي الذي كان يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي، وهذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضًا وفي لهجة تونسية عذبة، تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة، وهذا الأستاذ ميلوني يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر فهو يفصّل تاريخ بابل وآشور[3]، ويذكر الكتابة المسمارية[4]، ويتحدث عن قوانين حامورابي[5]، والفتى ـ طه ـ يفهم عن هؤلاء

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٤، ٣٥ بتصرف.

(٢) السابق نفسه، ص٣٥.

(٣) بابل وآشور: حضارتان ازدهرتا في سهول دجلة والفرات ويطلق عليهما مجتمعتين بلاد ما بين النهرين. راجع: ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة محرم كمال، سلسلة الألف كتاب الثاني ٢٨٣ طبعة ١٩٩٧، ص٧.

(٤) الكتابة المسمارية: تطلق على حل رموز الكتابات البابلية والآشورية وسميت بهذا الاسم لأن كل علاقة منها تشبه المسمار. راجع: ل. ديلابورت: السابق، ص٨.

(٥) قوانين حامورابي: تطلق على أثر يعود تاريخه إلى سنة ٢٠٨٣ ق.م وبه مائتين وخمسين مادة من القانون، وهو ليس قانونًا بالمعنى المعروف وإنما هو مجموعة من القرارات الملكية. المرجع السابق، ص٩٥.

وتصوّر زوجة طه طبيعة اللقاء الأول والمشاعر الفياضة التي مثلته بقولها: «كان طه سعيدًا في ليدن لاجتماعه بليتمان أستاذه القديم، وكان ليتمان يشعر نحوه بود عظيم، ولا أدري أيهما كان أشد انفعالاً من الآخر لرؤية صاحبه ذلك الصباح، لكن أعرف أن ليتمان بكى وهو يعانق تلميذه»[1].

ولقد أبان طه عن عظيم تأثره بالمستشرقين في تلك المرحلة في كتاباته المختلفة، وأنه استفاد منهم أعظم الاستفادة لا سيما وهو يعد رسالته الجامعية عن أبي العلاء والتي طبعها فيما بعد تحت عنوان «تجديد ذكرى أبي العلاء» ففي مقدمة هذه الرسالة يشيد بما أخذ عن المستشرقين من علم بقوله:

(أنشئ قسم الأدب في الجامعة، ودعي إليها جلة الأساتذة من المستشرقين في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وانتسبت لهذا القسم، وأخذت أسمع الدروس فيه، فإذا ألوان من الدروس لم أعرفها من قبل، وإذا فنون من النقد لم يكن لي بها عهد)[2].

ويكون للمصادر الأجنبية الحظ الأكبر في رسالته ـ الإنجليزية والفرنسية ـ المقروءة منها والمسموعة، فمن أهم المصادر المقروءة التي استفاد منها: دائرة المعارف الإسلامية[3]، ومن المسموعة: محاضرات

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص٩٢.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت ـ ط٢/١٩٨٣، ١٠/١١.

(٣) مؤلف وضعه المستشرقون باللغات الثلاث: الألمانية والفرنسية والإنجليزية وشارك في إعداده مستشرقون من جنسيات مختلفة، وبذلوا فيه جهدًا كبيرًا، إلا أنه حوى كثيرًا من الأغاليط، نبه المعربون على بعضها... المستشرقون ٣/٣٧٠ وما بعدها.

ويقص طه صلاته العلمية بفرنسا في عبارات موجزة تصور محاور تلك الصلة بقوله: (وأول ما وصلنا (باريس) نزلنا في تريانون بالاس أوتيل في أول شارع فواجيرار، ومكثنا بضعة أيام، وبعد ذلك سكنت عند عائلة تقطن الطابق السادس.. وفي تلك العائلة فتاة تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر فساعدتني كسكرتيرة، والفضل لها في أنه أمكنني أن أدرس اللاتينية، كما درستها مع شارل بران الصحفي المشهور والأستاذ بمدرسة لوكراند، وفي عامين درست اللاتينية، وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسي في ست سنوات بين ثانوية وعالية...

كانت حياتي بباريس مقسمة بين ثلاث معاهد أو أربعة:

السوربون: وفيها كنت أحضر دروس التاريخ القديم، تاريخ اليونان على جلوتز[١]، وتاريخ الرومان على بلوك[٢]، والأدب الفرنسي على لانسون[٣].. والفلسفة والاجتماع على دوركايم[٤]، وديكارت[٥] على ليفي برول[٦]، واللاتيني على مارنا[٧]، والثورة على أولار[٨]،

---

(١) جلوتز: سبق ترجمته ص٦٦.

(٢) بلوك: سبق ترجمته ص٦٧.

(٣) جوستاف لانسون: من أهم آثاره تاريخ الأدب الفرنسي ترجمه محمود قاسم، وراجعته سهير القلماوي.

(٤) سبق ترجمته، ص٦٧.

(٥) ديكارت ـ (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) أشهر فيلسوف فرنسي، كان عالمًا رياضيًا حاول تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة، ثار على التقليد التعليمي بوضع نظرية الشك المنهجي. راجع: د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث. دار الثقافة. المغرب ط١/١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ٢/١٢٩١.

(٦) ليفي برول: (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩م) فيلسوف علم الاجتماع كان أستاذًا بالسوربون منذ ١٨٩٩ من آثاره: العقلية البدائية. راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٥٩٧.

(٧) مارنا: لم أستدل على ترجمته.

(٨) أولار: ألفونس (١٨٤٩ ـ ١٩٢٨م) مؤرخ فرنسي كرس حياته لدراسة تاريخ=

وبريفو[1] وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة][2].

وكانت هذه الآنسة ـ زوجته فيما بعد ـ بمثابة المعلم له، فعن فضلها يتحدث طه بقوله: [كانت صديقتي أستاذًا لي، عليها تعلمت الفرنسية وفقهت ما أستطيع أن أفقهه من أدبها وعليها تعلمت اللاتينية واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس، ومعها درست اليونانية واستطعنا أن نقرأ معًا آثار أفلاطون. . .][3].

لقد كانت السنوات القلائل التي قضاها طه في فرنسا في مرحلة الطلب تمثل القاعدة الصلبة في اتصال طه بالثقافة الفرنسية والفكر الفرنسي الذي امتد بعد ذلك وصاحبه في مراحل الحياة المختلفة والذي ظهر بعد ذلك من خلال كتبه ومؤلفاته.

لقد كان طه يميل ميلاً خاصًا إلى مفكري القرن الثامن عشر في فرنسا، وأدباء الثورة الفرنسية ديدرو[4] وفولتير[5] وروسو[6]. . ويبدو أن اعترافات الثورة أثارت إعجاب طه حسين مع أمثالها في الأدب الفرنسي فكانت دافعة لكتابة الأيام ـ السيرة الذاتية لطه ـ وإن تباين الأديبان في اعترافاتهما.

---

(١) بريفو، مارسيل (١٨٦٢ ـ ١٩٤١) روائي فرنسي يغلب على آثاره الطابع السيكولوجي. منير البعلبكي. قاموس المورد، معجم الأعلام (أ).

(٢) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٢٤: ٢٦ بتصرف.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٣٢، ٣٣.

(٤) ديدور، وينس (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) موسوعي فرنسي وفيلسوف مادي وناقد أدبي كان هجاءً وروائيًا من آثاره خواطر فلسفية. الموسوعة العربية الميسرة ١/٨٣٠.

(٥) فولتير: سبق ترجمته، ص٥٣.

(٦) روسو، جان جاك (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي، له أثر في مجالات الفكر المختلفة، يعد رائد الحركة الرومانسية الحديثة. الموسوعة العربية الميسرة ١/٨٩٤.

الاتصال بالمستشرقين في مرحلة العطاء:

أ ـ العمل الجامعي:

كانت الجامعة المصرية القديمة عند إنشائها قد استعانت ببعض المستشرقين من الألمان والإنجليز والفرنسيين للتدريس بها. وامتد تدريس أولئك بها قرابة العشر سنوات حتى نزلت بالجامعة أزمة اقتصادية تداعت إليها مما نزل بالبلاد بأسرها، فاضطرت الجامعة إلى أن تستغني بالأساتذة الوطنيين للقيام بمهمة التدريس بها.

ولما تهيأت أسباب العمل الجامعي للدكتور طه حسين وتدرج في مراتبه وصار له من السلطان بها، عمل على فرض اللغتين اليونانية واللاتينية على الطلاب وأنشأ القسم الفرنسي واستقدم المستشرقين الأجانب للتدريس بالجامعة مرة أخرى، ولقد ووجه هذا التوجه بمعارضة شديدة من المثقفين والعلماء خاصة حين استدعى أستاذه في الكوليج دي فرانس المستشرق كازانوفا ـ ومعروف عن المستشرق أنه ممن يخلطون الأمور ببعضها ويلبسون الحق بالباطل ـ فلما عورض في ذلك قال في حماسة شديدة: (أريد أن يعلم الناس جميعًا أن الجامعة المصرية حين تدعو أساتذة من أوروبا لإلقاء الدروس فيها لا تأتي بدعًا من الأمر وإنما تتبع في ذلك نهج الجامعات الأوروبية الأمريكية، وهذا الرجل الذي دعته الجامعة ليس رجلاً عاديًا وإنما أستاذ حقًّا، ولقد أريد أن يعلم الناس أني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرًا لغويًا خالصًا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقًّا)[1].

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦٠.

ولم يكن البيت مقصدًا لمعارف طه من المستشرقين وحدهم بل كان يقدم عليه وافدون جدد ليتعرفوا على طه وسرعان ما تقوى بينهم أواصر العلاقة كما كان من المستشرق أندريه جيد[١] الذي تعرف على طه في منزله حين صحبه معه غاستون فييت[٢] «ولقد كان هذا اللقاء الأول بين طه وجيد واحدًا من هذه المرات، كان طه يعجب بجيد ولا شك، ولكن من بعيد قليلاً فهما لا يتشابهان كثيرًا، غير أنهما ما إن التقيا حتى تفاهما على الفور إثر مناقشة عفوية كان فيها كلاهما على رأي واحد»[٣].

ولقد كان الكثير من كبار المستشرقين يحرصون على زيارة طه حتى في أيام مرضه الأخير ويظهرون من الأسى والشفقة عليه الشيء الكثير، يمر بلاشير[٤] وكانت آخر مرة يمر فيها فقد غدا الليل بالنسبة له تمامًا[٥]، وكان يتحمل المحنة بصبر راقٍ، وإني (سوزان) لأراه ثانية في المكتب يجلس على مقعده قريب من مقعد طه... أظهر ذلك

---

(١) أندريه جيد: فرنسي ارتبط بصداقة حميمة لطه حسين من مؤلفاته التي ترجمها له طه حسين: الباب الضيق، وله مدرسة الزوجات، راجع مجلة الكاتب المصري. المجموعة الكاملة ٦٦٢/٦.

(٢) غاستون فييت (١٨٨٧ ـ ١٩٧١) اشتغل بالجامعة المصرية أستاذًا للأدب العربي ١٩١٢، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي المصري (١٩٣٠) واختير أمينًا له عام (١٩٣٩) ثم عضوًا فمديرًا لدار الآثار العربية في القاهرة (١٩٢٦ ـ ١٩٥٢م) وله آثار كثيرة. المستشرقون ٢٧٦/١.

(٣) سوزان طه حسين: معك، ص١٥٧.

(٤) بلاشير: فرنسي ولد بباريس سنة ١٩٠٠ تعلم بالمغرب والجزائر وعمل مدرسًا بالرباط ثم حصل على الدكتوراه عام ١٩٣٦ وعين أستاذًا محاضرًا في السوربون ١٩٣٨ وله آثار عديدة. المستشرقون ٣٠٩/١.

(٥) في كلام سوزان إشارة إلى ذهاب بصر بلاشير في آخر حياته.

مرحلة الطلب ونمت وترعرعت في مرحلة العطاء، داعية لأن يقوم المستشرقون بدعوة طه لحضور مؤتمراتهم العلمية.

ولعل أول مؤتمر شارك فيه طه هو مؤتمر العلوم التاريخية والذي عقد في بلجيكا في التاسع من أبريل سنة ١٩٢٣ والذي حضره ألف أو يزيد من العلماء المعنيون بالتاريخ[١].

وعلى قدر سعادة طه بالمشاركة في مثل هذا المؤتمر كان أساه لعدم استطاعته وتمكنه من متابعة كل أعمال المؤتمر إذ كان واقع المؤتمر كما وصفه بقوله: «وحسبك أنه كان يلقي في الساعة الواحدة وفي أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة، وكنا في هذا المؤتمر كالتلاميذ في المدرسة... لقد كنت ضيق الصدر فقد فاتتني خطبة فلان ومذكرة فلان... وماذا تريد أن نصنع؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا[٢]، والاستماع لوقت واحد لكل ما نحب أن نستمع له»[٣].

ويشيد الدكتور بالمؤتمر وما حقق منه من استفادات حتى كتب عن هذا المؤتمر وحده قرابة الستين صفحة في كتابه «من بعيد» ولقد أوجز الدكتور هذه الاستفادات في مقالة قدم بها هذه الاستفادات فكان

= منها مئات العلماء من مستشرقين وعرب مسلمين وشرقيين... وكان المستشرقون يعقدون هذه المؤتمرات مرة كل ثلاث سنوات أو سنتين أو بعد أربع. المستشرقون ٣/٣٦٥.

(١) طه حسين: من بعيد: المجموعة الكاملة. الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت. ب. ت ١٢/٥٤. بتصرف.

(٢) إضافة الدكتور الخلق إلى الطبيعة إضافة غير موفقة، إذ لا إرادة لها ولا قدرة بل هي مخلوقة مسخرة لله سبحانه.

(٣) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٢/٥٥.

الشرقية ودراسات آسيا الشرقية الجنوبية، والدراسات الأفريقية»[١].

وفي مايو سنة ١٩٦٠ اختير الدكتور طه حسين ممثلاً لمصر في مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام في فلورنسا[٢]، والذي نظمه جيورجيو لابيرا الذي كان عمدة لفلورنسا آنذاك[٣].

وقد ألقى الدكتور كلمة في هذا المؤتمر أثارت دهشة أعضاء الأسرة الصحفية في فلورنسا جاء فيها:

(إن واجبنا يتجلى في عقد روابط الأخوة بين العالم الإسلامي الذي أمثله هنا ـ بما أنه بوسع أصغر مسلم، إذا قال الحق أن يقوله باسم الجميع ـ وبين العالم المسيحي ومدها إلى كل الناس ذلك أنه لا وجود في نظر الله لشرق أو لغرب ولا لجنوب أو شمال وإنما العالم والناس، وعندما يمنح الله العدالة للناس، فإنه لا يمنحها للمسيحيين فقط أو للمسلمين فقط، وإنما لجميع الناس، إنني أطالبكم بمحاسبة أنفسكم. . .

ويضيف الصحفي الذي كتب مقالاً عن المؤتمر، نهض لابيرا الذي كان يستمع إلى هذا الخطاب دون أن يستطيع مداراة فرحه وقال له: «أنت أخي حقًا» وعانقه)[٤].

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٣٦٧.

(٢) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٦١.

(٣) سوزان طه حسين: معك، ص١٩٧، وقد أشارت زوجة طه إلى أن توقيت المؤتمر كان عام ١٩٥٣ وأنه كان لقاءات متتابعة في سنوات أربع متتالية، بينما استند د. عبد العزيز شرف إلى جريدة الأهرام الصادرة في ١٦ مايو سنة ١٩٦٠ والتي نشرت الخبر.

(٤) سوزان طه حسين: معك، ص١٩٨.

١٩٦٣م، فإنه اضطر للاعتذار برغم الإلحاح والإصرار مقترحًا أسماء يمكن لها أن تحتل مكانه إذ لم يعد قادرًا على المشاركة في الاجتماعات والمؤتمرات وإن لم يقطع كل صلة بها)[١].

وتعلق مرة أخرى على هذا المؤتمر الأخير بقولها: (كان من المرغوب فيه أن يرأس طه الوفد المصري لمؤتمر اليونسكو في مونتوفيدو لكنه لم يستطع ركوب الطائرة وخاصة للقيام برحلة كانت تدوم في ذلك الوقت ستًا وثلاثين ساعة... كانوا في القاهرة يستعجلون الذهاب، وفي مونتوفيدو يضجون بالشكوى حيث ينتظره الكثير من المستشرقين)[٢].

فكانت اجتماعات اليونسكو فرصة للاجتماع مع المستشرقين والتعاون الفكري.

(وفي عام ١٩٧١م أقام مركز وثائق الدراسات الشرقية بأوروجواي مهرجانًا كبيرًا لتكريم طه حسين تحت رعاية «اليونسكو» في مجال نشاطها الخاص بالتقارب الثقافي بين الشرق والغرب، وفي هذا المهرجان أقيمت ندوة أكاديمية لتحليل أعماله في جامعتي الجمهورية بأوروجواي «وسلفادور» بالأرجنتين كما أقيم معرض لكتبه الأدبية والفكرية والثقافية)[٣].

هـ ـ المراسلة والاهتمام بشأنه:

لقد كانت المراسلة المتبادلة بين طه حسين ونفر من المستشرقين

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص٢٤٨، ٢٠٢.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص٢٠٢.

(٣) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٦٢.

ولقد كان كثير من المستشرقين دائم السؤال عن أخبار طه وشديد الحرص على مخاطبته خاصة في تلك الأوقات التي كانت تمثل لطه أوقات محنة ففي الفترة التي امتحن فيها طه في أعقاب إثارة موضوع كتابه ـ في الشعر الجاهلي ـ أرسل إليه المستشرقون رسائل كثيرة يواسونه فيها ويشدون من أزره ومن تلك الرسائل رسالة ليفي ديلافيدا[1] والتي جاء فيها:

(... أحزنتني هذه الأخبار بصورة عميقة، إن تاريخ النضال من أجل الحرية العلمية لم يستكمل مسيرته بعد، لكن ذلك سيتحقق يومًا ما، وإني على اقتناع بذلك، وسيتحقق ذلك بانتصار روح الحرية والحقيقة، إن المأساة التي أصابتكم ستكون عارضة، وإني لعلى يقين من ذلك، لأن قضية كقضيتكم، بل أقول: كقضيتنا هي من القضايا التي لم تكن خاسرة في يوم من الأيام. وإني مفعم إيمانًا بالمستقبل الذي سيكون لنا دون أدنى قدر من شك، أو لأطفالنا وأود أن أكرر لكم مرة ثانية أنني مرتبط بكم بأعظم قدر من الإعجاب وبأعمق الود)[2].

أما عن اهتمام المستشرقين بطه وبما يكتب فقد بدا واضحًا من كلام زوجته عن ذلك إذ حدثت عن أندريه جيد «أنه كان يوجه أكبر قدر من اهتمامه لما كان يكتبه طه وأنه طلب إلى مؤنس ـ ابن طه حسين ـ بعض الإيضاحات المفصلة عن «الشعر الجاهلي» هذا الكتاب

---

(١) ليفي ديلافيدا: إيطالي (١٨٨٦ ـ ١٩٦٧) عمل أستاذًا للعربية واللغات السامية في جامعة روما، له اهتمام عظيم بالإسلام واللغة العربية، كتب تراجم لكثير من الصحابة في دائرة المعارف الإسلامية. المستشرقون ١/٤٤٠، ٤٤١.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص١١٠.

باطنة فالأهداف الظاهرة التعليم وتكوين الثقافة الشاملة والوعي الحضاري، أما الأهداف الباطنة فهي تشكيك المسلمين في دينهم بإثارة الشكوك حوله، والعمل بالتبشير بالنصرانية بين المسلمين)[١].

وعن صلة الدكتور طه بهذا المعهد تقول زوجته: (... في الشهر الماضي كان يحتفل في دار السلام بذكرى الأب «زندل» الذي توفي قبل عدة أشهر، وخلال حديثه عما يدين به مركز الدراسات هذا لفكر وعمل وروحانية الأب زندل الذي كان يتحدث فيه غالبًا، أضاف المطران حكيم أنه لا يمكن في هذا المكان أن يفصل اسمه عن اسمين آخرين تدين دار السلام بتألقها لهما أيضًا وهما: لويس ماسينيون وطه حسين وإني لأحب أن تجتمع هذه الأسماء الثلاثة على هذا النحو)[٢].

وكان الدكتور لصلته الوثيقة بفرنسا التي ـ (كانت لديه فكرة رفيعة عنها، وكان قد ناضل كثيرًا للدفاع عنها في كثير من المناسبات كما عمل الكثير لنشر ثقافتها ـ قد أخذ عهدًا من الحكومة الفرنسية بالسماح له بتأسيس معهد الدراسات الإسلامية بالجزائر إلا أنها عادت فنكثت هذا العهد مما أحزن الدكتور وآلم نفسه)[٣].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. علي عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص٢٦٦ بتصرف.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص٢٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٩١ بتصرف.

الإنجليزي جيب[1] التي تناولت الأدب الحديث منذ أوائل القرن الماضي والتي تناول فيها على الخصوص أدب طه حسين وجعله على رأس المجددين في الأدب[2].

ثم نذكر دراسة كاكيا والتي عنون لها بـ «طه حسين وأثره في نهضة الأدب المصري» (لندن ـ لوزاك ١٩٥٦)[3].

ثم دراسة جونز[4] عن طه والذي جعله في مقدمة الكتاب المصريين في القرن العشرين إذ جعل الجزء الأول في السلسلة عن طه حسين.

أما المستشرقون الإيطاليون فكانوا عظيمي الاهتمام بطه حسين فكتب فرانشيكو جابرييلي[5] دراسة عن طه حسين سنة ١٩٦٤م وترجمت فاليري[6]، رواية القصر المسحور سنة ١٩٦٤م، وكتب

---

(١) جيب، السير هاملتون (١٨٩٥ ـ ١٩٧١) مستشرق إنجليزي ولد بالإسكندرية في مصر خلف مرجليوث في أكسفورد (١٩٣٧ ـ ١٩٥٥) كان عضوًا في بعض المجامع العربية، المستشرقون ١٢٩/٢.

(٢) طه حسين: كلام. المجلة الجديدة (المجموعة الكاملة) نشر المركز العربي للدراسات والنشر، ط١، سنة ١٩٩٧ ٦٢٤/١.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون ٤٦٤/٣.

(٤) جونز، مارسدن المولود عام ١٩٢٠ ولد في تري كروسين من أعمال جلامورجان بالمملكة المتحدة، وتخرج من جامعة لندن عمل أستاذًا ومديرًا لمركز الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٧٧. المستشرقون ١٤٨/٢.

(٥) جابرييلي، فرانشيكو المولود سنة ١٩٠٤م كبير أساتذة اللغة العربية في جامعة روما، انتخب عضوًا مراسلاً في المجمع العربي بدمشق ١٩٤٨، عنوان دراسته عن طه حسين «طه حسين ناقدًا ١٩٦٤»، المستشرقون ٤٥١/١ وما بعدها.

(٦) فينشيا فاليري: بحاثة إيطالية انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا وإلى فقه اللغة العربية وآدابها. المستشرقون ٤٦٦/١.

ترجمه إلى الإنجليزية F.H.Paxton.

وترجمه إلى العبرية كابلوك وأتمارا .Kabilak, Atamara.

وترجمه إلى الصينية Tsingtin.

وترجمه إلى الروسية Krackovsky. Day[1].

وترجمه إلى الإسبانية إميليو جارثيا جوميث[2])[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. عبد الرحمن بدوي: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين. دار المعارف القاهرة ١٩٦٢، ص٢٧.

(٢) إميليو جارثيا جوميث مستشرق إسباني ولد سننة ١٩٠٥ في مدريد وتخرج من جامعتها سنة ١٩٢٦، عمل أستاذًا بجامعة غرناطة سنة ١٩٢٩، زار العديد من الدول العربية ونال عضوية العديد من المجامع العلمية. المستشرقون ٢/٢١٣.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٤٧٤.

الفكر الغربي ممثلاً في أصوله الأولى اليونانية والرومانية، ثم كانت مرحلة الكتابة عن الإسلام في الثلاثينيات من القرن الماضي خاصة بعد أزمة الشعر الجاهلي ومؤازرته لعلي عبد الرازق في أزمته كذلك، هذا الأمر الذي جعل الهجوم يتتابع على الدكتور طه حسين لمخالفته ثوابت الأمة في عقيدتها وحياتها.

جاءت كتاباته الإسلامية تمثل حالة من الموازنة بين الكتابة عن الغرب والكتابة عن الإسلام، أو بمعنى آخر تغيير الصورة وإثبات حسن النية[١].

بينما يرى البعض أن توجه طه حسين إلى الكتابة عن الإسلام لن يعدو أن يكون «محاولة لسرد قصة الإسلام سردًا جديدًا، بطريقة تستهوي الوجدان المصري. . . فنظرة طه للدين لم تكن - في نظرهم - لتزيد عن «بعث الطمأنينة في النفوس»[٢].

ويأتي المستشرق سميث[٣] ليؤكد صحة الرأيين السابقين حيث يرى في توجه طه أنه «تكتيك رسم لتجنب القمع الرسمي»[٤] فهذه الرؤى مجتمعة تؤكد عدم تبني طه للإسلام كمنطلق أو منهاج وإنما كتب ليؤكد ما تبناه من خط المتابعة للفكر الغربي ومناهجه والباحث بدوره لا يشايع هذا الرأي ولا يتابعه وإنما يكل النيات إلى بارئها

---

(١) ممن رأى هذا الرأي «بشر فارس» الذي رأى في توجه طه حسين «نوعًا من اللعبة الخطرة» راجع: مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص١٩٨.

(٢) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص١٩٨.

(٣) سميث، ويلفريد كانتول: مستشرق كندي ولد في تورنتو بكندا عام ١٩١٦ وتخرج من جامعة برنستون وحصل على الماجستير والدكتوراه، درس في عدد من الجامعات العالمية وله آثار كثيرة. المستشرقون ١٨٢/٣.

(٤) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص١٩٩.

والثالثة: أن للتكفير ضوابط تقتضي معرفتها الوقوف على حالة المحكوم عليه ومعرفة ما حمله على رأيه أو فعله المخالف أهو الجهل أو الخطأ أو الإكراه، أله تأويل لفعله أو قوله الذي خالفه به جمهور المسلمين والذي يقتضي الحكم بالكفر، أهو من المبتدعين لهذا القول أو الفعل أو متابع فيه لغيره فهو مقلد لا بصيرة له[1] لا بد من معرفة ذلك كله.

(**والرابعة**: تشدد أهل السُّنَّة في الحكم بتكفير المعين. فقد اتفق السلف على عدم تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة، فلا بد من معرفة ما تقوم به الحجة، وما الفرق بين بلوغ الحجة وفهمها، وما الأدلة على ذلك وهذا يحتاج إلى عناية وتدقيق)[2].

لذلك كله رأيت أن أعرض الأقوال في ضوء القرآن والسُّنَّة، مسترشدًا بعدهما بآراء أولي الفضل من المتقدمين والمتأخرين وبيان موافقته أو مخالفته لاعتقاد المسلمين، موكلاً أمر صاحبه إلى علام الغيوب سبحانه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ذهب ابن تيمية إلى عذر الذي وقع في الكفر تقليدًا إن كان جاهلاً لا بصيرة له ولا فقه فهو معذور حتى تقوم عليه الحجة. راجع المصدر السابق، ص٥٨.

(٢) سعيد بن علي بن وهف القحطاني: قضية التكفير بين أهل السُّنَّة وفرق الضلال. السعودية مؤسسة الجريسي ط١، سنة ١٤١٧ سنة ١٩٩٦م، ص٥٠ ـ ٦٢ بتصرف.

وهذا الكلام له خطورته فهو يثير قضيتين خطيرتين: الأولى: تكذيب رسالات الله جميعًا إلى الأرض والادعاء أنها من صنع البشر، وليست من وحي الله إلى رسله لهداية الناس.

الثانية: دعوى التناقض بين تعاليم الدين وقضايا العلم ودعوته لحتمية الفصل بينهما.

وكأن الدكتور أدرك خطورة ما يقول، فأراد أن يخفف من وقعه على النفوس فزعم أنه مؤمن بالشعور منكر بالعقل، ومن الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما لم يثبته العلم، ويكون عالمًا لا يقر ما لم يثبته العلم يقول الدكتور:

(فكل امرئ يستطيع إذا فكر قليلاً أن يجد في نفسه شخصيتين متمايزتين، إحداهما: عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلتا الشخصتين متصلة بمزاجنا وتكويننا، لا نستطيع أن نخلص من إحداهما، فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟)[1] لقد جاء تبرير الدكتور بكارثة أعظم من سابقتها (فمن الذي يعقل أن نفي النبوة والوحي وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل، وعلى وصف آخر دين وإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ويكون

= طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي، بيروت ـ ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٦٠٠.

(١) محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٦٠٠، ٦٠١.

والأسرة على هذا النحو ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان (!) وحينئذٍ فإنه يمكن القول بناءً على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها، إذا صح هذا التعبير... ومن ثم فليس من الممكن تبعًا لهذا الرأي أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها موضوعًا لعلم الأخلاق»[1].

فقوام نظرية دوركايم أنها تدعو إلى محاربة الدين والأسرة والأخلاق؛ لأنها ليست أصيلة في المجتمعات وأنها على حسب زعمه تحول دون سعادة الآخرين وتحد من حرياتهم.

وليس بالغريب على دوركايم أن يقول بأن الجماعة تعبد نفسها أو أنها تخترع الإله بفكرها ثم تعبده، وذلك لأنه حين عرف الدين قال بأنه «مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أي: المعزولة المحرمة) اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة»[2].

(فهذا التعريف لم يعتبر من القدسية الدينية سوى جانبها العملي السلبي وهو تحريمها لبعض الأشياء والتحذير من مباشرتها والدنو منها، وقد فاته أن المنع من لمس شيء ما ليس دائمًا دليلاً على قدسيته بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ورجس، كما فاتهم أن الشعائر العملية في كل نحلة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيهًا عن العيوب والنقائص فهو من

---

(١) محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣٠.

(٢) د. محمد عبدالله دراز: الدين، دار القلم الكويت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٦، ٥٣ بتصرف.

منيبًا إليه][1] كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2]، يقول أرنست رينان[3] في تاريخ الأديان: [إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية][4].

والخلاصة أن الدكتور خالف الصواب والحق حين تابع أستاذه دوركايم في هذا القول وكان ينبغي أن يكون للدكتور من تعليمه الذي تلقاه ومجتمعه الذي نشأ فيه عاصم من هذا القول الضال.

دعوى التناقض بين العلم والإيمان:

حين أراد الدكتور أن يبرهن على دعواه السابقة ـ وهي أن الدين خرج من الأرض ولم ينزل من السماء ـ قاده هذا السقوط إلى سقوط أعظم من سابقه فالعيوب والآفات سلاسل متتابعة فإذا وصل المرء إلى إحداها أسلمته إلى غيرها.

قاده سقوطه الأول إلى دعوى عريضة ادعى فيها التناقض بين العلم والدين وزعم أن «الدين في ناحية والعلم في ناحية أخرى وليس إلى لقائهما من سبيل»، ولم يكن هذا الادعاء زلة لسان أو جملة اقتضاها النظم الأدبي، وإنما جاء ترجمة صادقة لاعتقاد كامن في نفسه

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة ـ مكتبة وهبة. مصر، ط٩ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٩١ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٣) سبق ترجمته، ص١٠٥.

(٤) د. محمد عبدالله دراز: الدين، ص٨٧.

وأبى الدين أن يذعن لهذا التغيير، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الثمرات، فلن يتفقا إلا إذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان، والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية؛ لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار، ولأن العلم يرى لنفسه التغير والتجدد فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته، والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية؛ لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره أن يحجم، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد، ويبني ثم لا يتحرج من الهدم فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته فالخصومة بينهما أمر لا بد منه][1].

وبعد هذه النتائج يقرر الدكتور نتائج أخرى لا تقل عن سابقتها في خطورتها إذ يقرر أن (الحكومة المصرية الحديثة وكذلك الحكومة الفرنسية الحديثة لا تقومان على أساس من دين ولا من علم ولا من فلسفه وإنما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة على أساس سياسي خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل، وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه، فإن فكروا في صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر، فإنما يفكرون في طبيعة الموقف الذي يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثرة والقلة، أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها من غير اعتراف ولا إنكار)[2].

وهذا الكلام من الوضوح بمكان إذ يفيد أن الحكومات المتحضرة هي

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) المرجع السابق نفسه ١٢/١٧٢.

نستغني عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا في جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين: إما أن نؤثر الحياة وإذًا فلا مندوحة عن الحرية وإما أن نؤثر الموت، وإذًا فلنا أن نختار الجمود)[1].

إن الدكتور بتلك المزاعم يشارك نفرًا من الناس في هذا العصر ظنوا «أن الدين أمسى من المخلفات البالية وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده وتتعدى حدوده وتسير وحدها. دون رعاية لرب خالق أو تهيب لجزاء منتظر، ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فض مغاليق الكون واكتشف أسراره وأرصد لكل مشكلة علاجًا من عنده لم تبق للدين موضعًا ولا لقضاياه مكانًا.

وهذا الكلام إفك كله... إن الدين كان ولم يزل، وسيظل ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة ما أخطأ منهجه فكر ثاقب، ولا ضل صراطه طبع نظيف...

وإن العلم مهما اتسعت آماده وامتدت أبعاده، وترادفت كشوفه فلن يجيء إلا بما يصدق الوحي، ويدعم الإيمان ويمكن لهداية الرحمن»[2].

(وليس من الحق في شيء أن نحمل على عواتقنا بعض الاعتراضات الصريحة أو الضمنية التي يوجهها بعض علماء الغرب إلى مذاهبهم غالبًا، وأن نضم إليها ما ينشره بعض الناس ضد الإسلام لمقاصد سياسية أو خصومة مذهبية وأن نُقرَّ بها دون أن نرى حاجة إلى

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٢/١٨٢.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: «مع الله» دراسات في الدعوة والدعاة ـ دار الثقافة قطر طبعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٢٨.

وكلاهما من أمر الله وتقديره. وصدق من قال:

ومن أنكر الأصوات أصواتُ زمرة ... تودُّ لو ان الدين في الأرض حُيدا
يقولون: إن الدين بات قاصرًا ... مقاييسه لا تستر اليوم والغدا
ينادون «بالتحديث» قلت رويدكم ... ومن قال إن الدين يرضى التجمدا
ومن قال إن الدين للعلم منكر؟ ... بـ«إقرأ» تعالى الله قرآنه ابتدا
وأطلق للفكر الكسيح جوانحًا ... وقال اكتشف لي لا أريد المقلدا
تقولون بالأفواه ما ليس خافيًا ... فلا حقَّق الرحمن للكفر مقصدا
أعيد التحدي مرة تلو مرة ... فهذا كتاب الله جيئوا بأجودا
فلستم من الرحمن أدرى بخلقه ... ولستم رسول الله، لستم محمدا[1]

لقد كان من الخطأ الفادح في تاريخ العالم أن انقطعت صلة العلم بالله فحاد عن الصراط المستقيم (فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[2] حيث جاء ذكر العلم مقرونًا باسم الرب لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذي وهب النعمة الغالية ومنَّ بها على عبده وهو الذي خلقه فلا يتقدم تقدمًا متزنًا إلا تحت توجيهه وهدايته.. ثم يجب الانتباه إلى أن الوحي الإلهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا

(١) الشيخ محمد سويد: الإسلام وغزو الفضاء ـ سلسلة دعوة الحق ـ الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة العدد ٧٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٨هـ أكتوبر سنة ١٩٨٧م، ص٢٦.
(٢) سورة العلق، الآية: ١.

(**أولاً**: الثبات والتطور: فهو إذ يؤكد الثبات في العقيدة والأصول والقيم، فإنه يسمح بالتغيير في التفاصيل والتطوير أو التعدد في النماذج والتطبيقات ولكن دون أي: تجاوز أو خروج عن مبادئه وأحكامه العامة.

ثانيًا: الجمع بين الماديات والروحانيات: ذلك أنه يدعو إلى الثروة والغنى والنظر في الكون والتجريب في المحسوسات وعدم التمسك إلا بالبرهان، نراه يدعو إلى الإيمان والتسليم بالغيبيات واليوم الآخر مما يعجز العقل عن إدراكه والإحاطة به.

ثالثًا: التوفيق بين المتناقضات: فتراه في كافة تطبيقاته يحرص على المصلحة العامة بقدر حرصه على المصلحة الخاصة دون جحد أو نفي إحداهما لحساب الأخرى...

ولا يعرف الإسلام ذلك الانفصام الذي توهمه الفكر الوضعي وشقي به، من أفكار العلمانية من حيث قصر الحياة على المحسوسات وحصر الفكر في الماديات وما صاحبه في الفكر الليبرالي من الفصل بين العلم والدين)[1].

الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان:

لئن كان الدكتور طه حسين اتخذ من صراع الكنيسة مع العلماء ثم انتقام العلماء من الكنيسة في أعقاب الثورة الفرنسية مبررًا لوجود الصراع بين العلم والدين ثم سحب الكلام على واقع المسلمين فإن

---

(١) د. محمد شوقي الفنجري: جدلية الإسلام ـ سلسلة قضايا إسلامية، وزارة الأوقاف العدد ٥٦ سنة ١٤٢٠هـ، ص٢٠، ٤٣ بتصرف.

في الغرب وتأثروا به، فقد ردد مثل هذه الدعوى فرح أنطون[1] الذي ألف رواية جعل عنوانها: «الدين والعلم والمال»[2] انتهى فيها إلى هذا الحكم الذي ردده الدكتور، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور كان يقرأ كتب فرح أنطون وروايته في أيام الطلب الأولى وكان لها في تكوين عقل الدكتور قدر غير قليل.

لكن المطالع لكتابات المستشرقين يجد أن نفرًا غير قليل منهم أنصفوا الإسلام في هذا الجانب.

فرجل مثل «هربرت سبنسر»[3] يرد دعوى التناقض بين العلم والدين على أصحابها قائلاً:

(العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه، يوجد في كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية، ورسب في أعماق الحقائق براء من هذه الروح. العلم الطبيعي لا ينافي الدين، والتوجه إلى العلم عبادة صامته، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي نعنيها وندرسها ثم بقدرة خالقها،

---

(١) سبق ترجمته، ص٦٤.

(٢) صدرت هذه الرواية هدية مع جريدة القاهرة العدد ١٤٠ في ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م ضمن سلسلة الكتاب للجميع التي تصدر مع عدد من الجرائد في العالم العربي.

(٣) هربرت، سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣): فيلسوف إنجليزي، درس الهندسة ثم تحول إلى دراسة العلوم الطبيعية وعلم النفس، لقب: (فيلسوف التطور)، ومن مؤلفاته: أصول البيولوجيا، أصول علم النفس؛ التقى به الإمام محمد عبده في أثناء زيارته لإنجلترا (١٩٠٣)، وبنى سبنسر آراءه التربوية على أسس علمية كما فعل في فلسفته كلها. محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت طبعة ١٩٦٥ ـ ٩٦٠/١.

الوقت يؤمن الملحد إن كان ضعيفًا، ويزداد عتوًا إن كان ممعنًا في الإلحاد، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت. . .وأعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئًا قد ينكره عليَّ المؤمنون والملحدون جميعًا، أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقرير نفسه وإكبار منزلتها. . . أقول: إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه، بالبر والرحمة، فيعنى به ويحوطه ويحفظه من الطوارئ، ويعصمه من الأحداث، ويرعاه في كل لحظة، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة، متكبر يرى نفسه شيئًا مذكورًا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن في هذا الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً[1].

وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد ويتخذه مذهبًا وعقيدة فيعاند وينازع ويدفع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه وينكر الله كما يثبته المؤمن، ويعتقد أن العقل كل شيء، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار، وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والإذعان له؛ لا في إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه. هذا الملحد الذي يمعن في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة، فذلل

---

(١) ليس في اعتقاد المؤمن برعاية الله له في كل لحظة وفي كل حركة وسكنة شيء من الكبر أو المبالغة بل هذا اعتقاد يصدقه القرآن في كثير من آياته مثال ذلك: امتنان الله على عبادة بنعمة التسخير حين يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ثم الامتنان على المؤمنين خاصة بنعمة الرعاية حين يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟. . .﴾ [الحج: ٣٨] وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

وتساؤل الدكتور الأخير هذا يثير أكثر من تساؤل! أيعني بقوله: فمتى يكثر في الناس أمثال «باستور» استعجاله لما تمناه في سابق حديثه أن يوجد أشخاص يجمعون في قلوبهم ونفوسهم بين العلم والإيمان؟

أم يعني استبعاد وجود كثيرين أمثال باستور هذا فهو حالة واحدة ولا يقاس عليها؟

ولو حملنا كلامه على المعنى الأول لأوقعنا الدكتور في حيرة معه كيف يقول هذا ويتمناه ثم يقول بنقيضه في نهاية كتابه؟ وإذا حملنا تساؤله على المعنى الثاني تشابه كلامه هذا مع كلامه ذاك فلا تعارض ولا مخالفة.

القرآن والنظريات العلمية:

ومن القضايا التي نشأت عن قضية العلاقة بين العلم والدين لدى الدكتور طه حسين قضية القرآن والقضايا العلمية أو إن صح التعبير التفسير العلمي للقرآن أو لبعض آياته.

أنكر الدكتور على بعض العلماء تفسيرهم لبعض الآيات الكونية إذ ربطوها ببعض المعارف العلمية التي ظهرت في بعض العصور فلما ظهر خلافها راحوا يفسرون النصوص ذاتها بما أثبته العلم حديثًا وظهر بذلك اضطرابهم واختلافهم.

لقد رفض الدكتور موضوع التفسير العلمي[1] جملة وتفصيلاً

---

(١) قضية التفسير العلمي كانت موضع أخذ ورد بين العلماء في القديم والحديث، فممن قال به قديمًا الإمام الغزالي والسيوطي وأبو الفضل المرسي، ومن المحدثين: الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر ومصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد، وقال برد هذا=

وتناقضه)[1].

ومن هذا المنطلق رفض الدكتور طه حسين تفسير الإمام محمد عبده للطير الأبابيل[2] بقوله: (فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة، إنما كانت وباء من الأوبئة، وكانت الحجارة ضربًا من الميكروبات. إنما يقولون هذا من عند أنفسهم وهم يعلمون حق العلم أن النبي ﷺ وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب وما كان لهم أن يعرفوه. والذين يقولون: إن السماوات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه، ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل. وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه. فالدين من علم الله الذي لا

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ٣٩/١٢ ـ ٤١ بتصرف.

(٢) قال الأستاذ الإمام في بيان حقيقة الطير الأبابيل: يجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة. نقلاً عن: عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص١٩١.

المبحث الثاني

طه حسين ونزعة الشك

لم تظهر نزعة الشك لدى طه حسين عند دراسته للشعر الجاهلي من خلال محاضراته في الجامعة المصرية؛ ولم يكن كتابه «في الشعر الجاهلي» أول كتاب يُظهر فيه نزعة الشك بل إن نزعة الشك صاحبته في أطوار حياته الأولى بحكم نشأته وظروفه الخاصة، وليس هذا الكلام افتئاتًا على الرجل، إنما هو الذي اعترف بذلك في مذكراته «الأيام» حين كان يصور حاله في مراحل الطلب الأولى فقد كان من حاله أنه «. . . كان ينكر الناس وينكر الأشياء، وكان كثيرًا ما ينكر نفسه ويشك في وجوده»[1].

تبني طه حسين لنظرية الشك:

أعلن طه تبنيه لنظرية الشك حين شك في نسبة الشعر الجاهلي إلى العرب الجاهليين حتى انتهى به هذا الشك ـ كما قال ـ «إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو قريب من اليقين وهو أن الكثرة المطلقة مما نسميه

(١) طه حسين: الأيام. دار المعارف ٣/١١٤.

وهذا المنهج هو الذي نعنيه بالدراسة أما موضوع البحث ـ أعني نسبة الشعر الجاهلي ـ فليس مما يتوافق مع موضوع البحث فلا حاجة لنا في الحديث عنه.

وعنايتنا بالحديث عن هذا المنهج لنرى مناسبته وملائمته للباحث المسلم، وهل من الحق أن من ضروريات البحث أن ينسى الباحث دينه وقوميته؟!

(إن طه حسين ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساس في البحث العلمي. إن كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته الدينية فقد أصاب. أما إذا كان أراد أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحابي أو يداجي في العلم فقد أخطأ ولم يصب، إن الإنسان عليه أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر، ومعتقد بصحته كل الاعتقاد، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصًا على الحق واستمساكًا به إذا وصل إليه. إن الباحث المتدين بين محبين في الحق: دينه وعلمه، ومبغضين في الباطل: دينه وعلمه كذلك. فهو يحب الحق مرتين مرة لدينه ومرة لعلمه ويبغض الباطل مرتين كذلك. لا خوف عليه مطلقًا أن يخفي بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه، إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل. هو يعلم أن دينه حق، يعلم ذلك علمَ مستيقنٍ. ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافي بين أجزاء الحق، يعلم ذلك علم مستيقن أيضًا. فهو لا يخشى أبدًا أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافي دينه، ولذلك يمضي في أبحاثه آمنًا

نظرنا في العلوم وجدناها تكونت وتضخمت شيئًا فشيئًا بتعاون رجال مختلفين، فجاءت كالثوب الملفق أو البناء المرمم، فإذا أردنا أن نقرر شيئًا مختلفًا في العلوم كان من الضروري أن نشرع في العمل من جديد)[1].

فهو لم يعن بذلك هدم الثوابت الاعتقادية والأخلاقية التي تحكم حياة الناس وإلا كان منهجه ذلك ضربًا من الفوضى لقد كان من أخلاق ديكارت التي ارتضاها لنفسه قوله: (لقد وضعت لنفسي قواعد للأخلاق أولها أن أطيع قوانين بلادها وعاداتها، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي أنعم الله عليَّ بأن نشأت فيها منذ طفولتي، وأن أحكم نفسي في كل أمر آخر تبعًا لأكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الإفراط، والتي أجمع على الرضى بها في العمل أعقل الذين سأعيش معهم)[2].

فتجرد الباحث عن قوميته وعن دينه عند عزمه على البحث وإقباله عليه ليس من مذهب ديكارت كما نسبه الدكتور طه إليه، فقد بان لنا من كلام ديكارت أنه يراعي نظم وتقاليد الجماعة التي يقيم فيها ثم هو ديِّن محافظ على تعاليم دينه لا يتناولها بشك ولا ريب. ثم إن الفساد البين في رأي الدكتور ظاهر في قوله: «أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل» هذا الأمر الذي يقتضي أن يتولى كل فرد إثبات كل شيء لنفسه بنفسه وهذه سخافة لا يقول بها عاقل إذ

---

(١) رجاء عيد: التاريخ الأدبي والنظرية الأدبية (بحث ضمن كتاب طه حسين مائة عام من النهوض العربي. في الذكرى المئوية لمولده ـ سلسلة فكر ـ العدد ١٤ ـ دار الفكر للدراسات والأبحاث ـ مصر، ص١١٠.

(٢) رينيه ديكارت: مقالة عن المنهج. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م، ص٦٣.

معاصرة)[1]، وكثير من الباحثين يعدون أبا حامد الغزالي رائد الشك المنهجي أو التجريبي[2] الذي يسميه البعض الشك العلمي (والذي يعرف بأنه منهج يفرضه صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته واختبار معرفته، وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل وهو يمكن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لا يعلم عنه شيئًا فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة، أو المغالطات التي يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرأها في كتب الباحثين. والفرق بين الشك المنهجي والشك المطلق هو أن أصحاب الشك المنهجي يستخدمونه وسيلة لا غاية كما أنه يقتصر عندهم على العلوم النظرية المكتسبة ولا علاقة له بالوحي وأمور الدين. . . هذا المعنى يؤكده أبو حامد الغزالي بقوله: «لا يجوز أن يهجر كل حق سابق لخاطر مبطل، وإلا لزم هجر كثير من الحق كالقرآن والسُّنَّة والعقيدة» ويقول ديكارت كذلك: «إن حقائق الوحي لا تُدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة»)[3].

ومن هنا نستطيع القول بأن الدكتور لم يوافق الصواب حين اتخذ من الشك ـ حسبما صوَّره ـ تكأة لتكذيب صريح القرآن حين قال: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثت بهجرة

---

(١) عبد الغني الملاح: مقالات في طه حسين ـ بيروت. الدار العالمية للطباعة، ط١، سنة ١٤٠٤هـ، ص١٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف د. مانع الجهني. دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، السعودية ط٣، سنة ١٤١٨هـ، ١٠٩٢/٢.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١٠٩٢/٢ بتصرف.

ويريد أن يدرس الأدب كدراستهم للعلم الطبيعي، إذا كانوا قد قدسوا العلم التجريبي فآمنوا بما تصل إليه حواسهم وأسقطوا من حسابهم كل ما لا تستطيع أن تصل إليه وأغلقوا منافذ المعرفة جميعًا إلا هذا المنفذ الواحد دون سواه، إذا كانوا فعلوا ذلك كله ليتنكروا لله فلهم من كفرهم وإلحادهم ما يبرر صنيعهم، أما الشيخ طه فما حاجته لمحاكاة هؤلاء وتقليدهم إن هؤلاء صدق فيهم قول الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1]، إن حرية الأدب كما أرادها الدكتور طه حسين إنما تعني فصله عن الارتباط بالفكر الإسلامي (وأنه قد رمى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تحرج خلقي من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فني يتذوقه ويلذه، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه ولكنه الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالي أوافق رذائلها أو خالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة لا أوصالاً مفصولة، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضروريًا للإنسان فلن يكون لمن يهمه رقي الإنسان بدٌّ من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه، فنًّا كان أو غير فنّ، أدبًا كان أو تمثيلاً أو تصويرًا أو ما تشاء أن تسمي من الفنون)[2].

أخلاقية الأدب أو الصدق الفني:

دعوى يريد بها قائلوها أن يكتب الشاعر أو الأديب والفنان

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.

(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين. دار الاعتصام. ب. ت، ص٤٦.

الله له أن يكون، ليكتب من شاء ما يشاء، وينتقد من شاء ما يشاء كما يشاء فلا حياة للأدب إلا بهذا)[1].

لقد كان الدكتور دائم التحسر لعدم وجود الحرية كما يراها على أرض الواقع ولطالما بث شكواه وأظهر أحاسيسه في كلمات مملوءة بالأسى والحزن فتراه يقول: (إن حرية الأديب أسطورة من الأساطير وإن من الإسراف والغرور أن يُنظر إليه كما ينظر إلى الرجل الذي يستمتع بحرية كاملة أو شبيهة بالكاملة... وأنت ترى الآن أنه قلما يستطيع إذاعة كل ما ينتجه وإنما هو مقيد في ذلك بالبيئة التي يعيش فيها أو بالذوق العام وأنت تعلم أن هناك سلطانًا آخر يقيد الأديب ويغله في الإنتاج وإذاعة ما ينتج وهو سلطان الحكومة تهيمن على حماية المظاهر العامة للحياة الاجتماعية كالدين والأخلاق والنظم المختلفة. أفبعد هذا كله تذكر حرية الأدباء في الإنتاج والإذاعة دون أن تقرن بهذا الذكر ابتسامة ملؤها السخرية والإشفاق)[2].

الحق أن كل ما ذكرناه في هذا المبحث من نقاط يدور على محاولة الدكتور طه حسين فصل الأدب عن الإسلام كمحور ارتكاز ونقطة انطلاق والدكتور بهذا السعي في تلك السبيل أسدى لأعداء الإسلام جميلاً لا يقدر بثمن مما حدا بمستشرق مثل كامبغماير[3] يشيد

---

(١) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة ٧٨٨/٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) طه حسين: قيود وأغلال (مقال) المجلة الجديدة ـ المركز العربي للدراسات والنشر، ط١ سنة ١٩٩٧ المجلد الأول ويضم الأعداد الصادرة في نوفمبر سنة ١٩٢٦ إلى أكتوبر سنة ١٩٣٩، ٤٥٤/١.

(٣) كامبغماير، ج (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) مستشرق ألماني تخصص في الإسلام واللهجات العربية من معهد اللغات الشرقية ببرلين سنة ١٩٠٧، رأس تحرير مجلة عالم الإسلام ونشر فيها مقالات باللغتين الألمانية والعربية عن المؤلفات=

فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد، وكان وجهه جهمًا غليظًا يخيل إلى من رآه أن في خديه ورمًا فاحشًا. . .)[1].

فكلمات «كأنما سوي على عجل، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص. . .» تنافي الحس الإسلامي، وينبغي للأديب المسلم أن ينزه قلمه عن مثل هذا الوصف؛ لأنه طعن في ذات الله وإنكار عليه في صنعه، والعجب أن يصدر مثل هذه الكلمات في وصف الخلقة عن الدكتور وهو الذي حرم نعمة البصر التي بها يدرك التمييز بين حسن الخلقة وغيره، ولكنه شيطان البيان كما يسميه الأدباء، يدعو صاحبه لأن يقول ما يحلو له غير عابئ بمخالفة دين أو ذوق!

ومن هنا فلا عجب إذا جرى الدكتور مجرى أدباء الغرب وغيرهم ـ ممن لا يصدرون عن الدين ولا ينطلقون منه ـ في وصف القضاء الإلهي بالقسوة فيقول في رثاء لصاحب له: (لله قلوب الأصدقاء ونفوسهم حين يفجعها الموت في الأصدقاء! هي أزهار نضرة غضة تستقبل الحياة والضوء في جمال وبهجة. ولكن هذه اليد القاسية يد القضاء تمتد إليها من حين إلى حين في غير رفق ولا لين، فتنزع منها ورقة ثم ورقة. . .)[2] والأعجب في متابعة الدكتور لأدباء الغرب قوله بالطبيعة المؤثرة في حياة الناس كما يقولون!! وإذا كان أدباء الغرب لا يصدرون عن دين فما بال الدكتور ينسى دينه حين يكتب مثل هذه الكلمات وهو يطلب إلى إدارة الجامعة المصرية القديمة أن تضمه إلى طلاب البعثات إلى أوروبا فيكتب إليها مستعطفًا (وإذا كانت الطبيعة قد

---

(١) طه حسين أديب. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٨٨، ص١٥.

(٢) طه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة ٢٨٢/١٤.

المبحث الثالث

طه حسين وقضية الجبر والاختيار

شغلت قضية الجبر والاختيار تفكير طه حسين منذ نعومة أظفاره واستمر انشغاله بتلك القضية حتى قضى نحبه ولقي ربه سبحانه، ولعل مما يشير إلى انشغاله بتلك القضية في مراحل الطلب الأولى تلك القصة التي أوردها طه في مذكراته «الأيام» حين يتكلم عن إيثار أساتذته المستشرقين له وشمولهم له بالحب والعطف فقال:

(ولم ينس الفتى موعدًا ضربه لأستاذه سنتيلانا ذات صباح، ليحضر معه درسًا من دروس الأزهر، وقد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي. وذهب مع الفتى إلى دروس الشيخ الأكبر سليم البشري رحمه الله وكان يلقي درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي وجلس التلميذ والأستاذ بين الطلاب وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[1]، وفسر الشيخ رحمه الله

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

المؤرخون؛ ذلك أنا لا نعتقد انفراد الأشخاص بالحوادث، وإنما نعتقد أن الحوادث أثر لطائفة من المؤثرات، وعلى هذا لا نستبيح لأنفسنا أن نضيف أثرًا من الآثار إلى شخص من الأشخاص مهما ارتفعت منزلته وعلت مكانته ومهما عظم أثره وجل خطره، وإنما كل أثر مادي أو معنوي، ظاهرة اجتماعية أو كونية، ينبغي أن ترد إلى أصولها وتعاد إلى مصادرها وأن تستقي من ينابيعها، وتستخرج من مناجمها؛ وهي جماعة العلل التي أشرنا إليها آنفًا، فليس المأمون[1] وحده الذي ابتدع فتنة القول بخلق القرآن وإنما تلك فتنة أحدثها عصره، واندفع المأمون بحكم المؤثرات المختلفة إلى أن يكون مظهرها، كما اندفع خلفاؤه من بعده إلى ذلك بحكم هذه المؤثرات... ومن هنا لا نستبيح لأنفسنا أن نحمد الأشخاص أو نذمهم، بحسن ما ينسب إليهم من الآثار أو قبحه، فإن الذم والحمد مع قلة غنائهما في التاريخ ليس من عمل المؤرخ بل من عمل الرجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء. بل إن مذهبنا في التاريخ، يمنعنا من ذلك، ويحرمه علينا؛ فإنا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم يستبدوا بالتأثير فيها، وكان من الواضح أنهم ليسوا أحرياء بما يسدى إليهم من حمد أو هجاء)[2].

ولا يكتفي طه بعرض رأيه على هذا النحو في مقدمة الرسالة،

---

(١) المأمون عبدالله أبو العباس المأمون بن الرشيد خليفة عباسي ولد سنة ١٧٠هـ، في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة الهادي، بويع المأمون بالخلافة وهو بالري ظل بخراسان حتى قدم بغداد في صفر سنة ٢٠٤هـ، دامت خلافته من (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٣ ـ ٨٢٣م). راجع: حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ب. ن. ب. ت ٦٦/٢.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء: المجموعة الكاملة ٢٤/١٠.

الجبر الذي لا شك فيه][1].

ويضيف الدكتور بعدًا ثالثًا لإثبات حتمية الجبر حين يذهب إلى أن صوارف الدهر وأمور الحياة العملية تقتضي القول بالجبر، ويشرح ذلك بقوله:

[فإذا بحثنا عن الحياة العملية ولا سيما بالقياس إلى أبي العلاء، عرفنا أنها تنتج الجبر أيضًا؛ فإن الرجل يلقى في هذه الحياة ألوانًا من الخير والشر ليس له في اكتسابها يد، وإنما ساقتها إليه أحوال لا يملكها، ومن هنا لهج العامة بالركون إلى الله، والاعتماد عليه وهم لا يفهمون من هذا اللفظ ما يفهم الفقيه في الدين؛ إنما يريدون أن هذه الحياة مسيرة ليس لعمل الإنسان فيها تأثير، فالمرء لاق فيها حظه، سواء أعمل أم لم يعمل.

وفي الحق أننا لو حللنا قوى الإنسان النفسية لم نجد عن الجبر مندوحة، فإن هذه القوى متأثرة في نفسها بأشياء لا يملكها الفرد ولا الجماعة فالرجل لم يوجد نفسه، وإنما أوجده غيره، وهو لم يكوِّن قواه وإنما كونت له، وللزمان والإقليم فيها تأثير عظيم، وللبيئة الاجتماعية تأثير أعظم، وللعادات والأخلاق الموروثة تأثير لا يكاد يقدَّر؛ والحوادث الطارئة تصرفها كما تريد وتصوغها كما تشتهي، فمن أين يأتي للإنسان حظه من الاختيار. ألا إن الاختيار وهم قد ملك الناس منذ كانوا وهم على الخضوع له مجبورون][2].

ويقرر طه بعد ذلك بعضًا من آثار الاعتقاد بالجبر فيقول: [غير

---

(١) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٨٨/١٠.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٨٩/١٠.

كان (يقيد كل شيء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية)[1] (وفي كتابه «قادة الفكر» نلاحظ ازدياد الربط بين البيئة والفرد أما في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» نلحظ أنه في الوقت الذي تخفف فيه كثيرًا من هذه العلاقة فإنه لم ينف تمامًا تلك الصلة بين الإنسان ومجتمعه وهو ما قاله صراحة في كتاب آخر كتبه في وقت متأخر وهو «ما وراء النهر» إذ أكد فيه أن:

هناك صلة متينة وثيقة بين أقوال الناس وأعمالهم وبين البيئة التي يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها في حياتهم اليومية)[2].

وحتى في تخففه من الجبرية في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» عزّ عليه أن يتنزه عن القول بالجبر ولو بقدر، فحين قال بالاختيار لم يسلم به بالكلية وإنما اعترف بحالة أسماها (الجبر الملطف) وعرفه بأنه (الجبر الذي يعذر الإنسان بعض العذر ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها)[3].

القائلون بالجبر في القديم والحديث:

حين صرح الدكتور طه حسين بالقول بالجبر ذكر أنه لم يتفرد بهذا الرأي وإنما (يوافق فيه كثيرًا من فلاسفة أوروبا وفلاسفة المسلمين)[4].

---

(١) محمود أمين العالم: طه حسين مفكرًا: بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص١٢٦.

(٢) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص٢٢٧، ٢٢٨، طه حسين: ما وراء النهر، دار المعارف ط٤، بدون ت، ص٢٠.

(٣) طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، المجموعة الكاملة ٤٥٤/١٠.

(٤) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٤/١٠.

أما في تاريخنا الإسلامي فقد قال بالجبر عدد من رؤوس الفرق الإسلامية كالجهم بن صفوان[1] مؤسس الجهمية والحسين بن محمد النجار[2] رأس الفرقة النجارية من المعتزلة وضرار بن عمرو مؤسس الضرارية[3]، وغيرهم ولم يحمد واحد منهم أو من تابعهم على القول بالجبر بل عدهم من صنفوا في الفرق الإسلامية ممن حادوا عن العقيدة الصحيحة.

تقييم موقف طه حسين في القول بالجبر:

لقد خالف الدكتور طه حسين إجماع المسلمين حين قال بالجبر ونفي الاختيار (فالإسلام يقرر أن الإنسان يمتلك إرادة حرة هي موضع المسؤولية وهو يوجهه إلى العمل الصالح ويقرر الالتزام الأخلاقي لهذه الإرادة الحرة)[4].

---

(١) جهم بن صفوان: هو أبو محرز جهم بن صفوان الراسبي قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (رقم ١٥٨٤): «الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين وما علمته روى شيئًا ولكنه زرع شرًا عظيمًا. كان من أتباع الجعد ابن درهم الذي زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليمًا». راجع: الفرق بين الفرق للبغدادي. ط دار التراث. ب. ت، ص٢٢١.

(٢) هو أبو عبدالله: كان حائكًا، وقيل: كان يعمل الموازين من أهل قم توفي سنة ٢٢٠هـ، وقيل: إن سبب موته أنه تناظر يومًا مع النظام فأفحمه النظام فقام محمومًا ومات عقب ذلك. راجع الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور. دار المعرفة بيروت، ط٥ سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ١/١٠٠.

(٣) ضرار بن عمرو من كبار المعتزلة طمع في رياستهم في بلده فلم يدركها، فخالفهم فكفروه وطردوه، صنف نحو ثلاثين كتابًا في الرد عليهم وعلى الخوارج توفي سنة ١٩٠هـ نحو سنة ٨٠٥م، راجع الملل والنحل ١/١٠٢.

(٤) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٦٣.

إنه لا اختيار له يكذبون الواقع والقرآن معًا والذين يقولون: إنه غير مجبور في شيء يكذبون القرآن والواقع معًا)[1].

[هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها، وهي تنفذ في الناس طوعًا أو كرهًا، سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا، فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء، والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر وجمال أو قبح... والزمان الذي تولد فيه والمكان الذي تحيا فيه والبيئة التي تنشأ في ظلها والوالدان اللذان تنحدر منهما وما تتركه الوراثة في دمك من غرائز أو ميول.... غني عن البيان أن شيئًا من هذا ليس محل مؤاخذة ولا موضع حساب وإنما لفتنا النظر إليها لتعرف أن الجنسية التي تنتمي إليها واللغة التي تنطق بها، بل نوع التكوين الذي يوجد الإنسان عليه ذكرًا كان أو أنثى هو شيء من الخصائص التي لا قبل لنا بها ولا سبيل لنا إليها وفي مثلها يساق قول الله في القرآن الكريم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2].

أما القسم الثاني من متعلقات القضاء والقدر فهو يتصل بأعمال على عكس الأولى، ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا، وحركة ميولنا ورقابة ضمائرنا فما مدى صلتنا بها وما معنى نسبة القدر إليها... إننا نحسّ باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع

---

(١) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق، ط١، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٠٧ ـ ١١٠ بتصرف.

(٢) سورة القصص، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

وقد يقف بعض الناس حائرًا أمام آية من القرآن مثل قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1] ولو أمعن الإنسان النظر في القرآن لوجد آيات القرآن يشرح بعضها بعضًا فإطلاق المشيئة هنا يقابله تقييد لها في آية أخرى مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾[2] ومثل قول الله سبحانه: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3].

فالإنسان حر مخير في حدود الطاقة البشرية وكونه مجبرًا ـ في بعض الحالات ـ لا ينفي عنه صفة الحرية...

(والثواب والعقاب منوط بالحرية فإذا لم تكن حرية فلا عقاب، والمكره على فعل شيء لا يعاقب عليه، والله إنما يؤاخذنا على ما نملك الخيار في فعله أو تركه... وإذا كانت المحاكم البشرية بعدالتها النسبية، تقدر ظروف المتهم ودوافعه، وبيئته واستعداده، وترى تقدير ذلك من العدل، فهل يترك ذلك في محكمة رب العالمين التي فيها العدالة المطلقة)[4].

ومن هنا نستطيع الجزم بأن الدكتور طه حسين لم يوافق الصواب حين قال بالجبر وحين تابع أبا العلاء في رأيه هذا ووافقه عليه وفيما ذكره ضمنًا من أن الجبري لا يلام بمخالفته دينًا ولا بالخروج على شريعة ولئن كان مفكرو الغرب قد توسعوا في القول بالجبر وبسطوا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣، وفاطر: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) سورة الرعد، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٤) علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام، دار الوفاء ط١٤ سنة ١٤١٢هـ/سنة ١٩٩٢، ص١٣٤.

ولقد شهد الرجل في نهاية رسالته للإسلام شهادة طيبة حين قال:

(إننا نجد كثيرًا من مظاهر (الجبرية) بين المسلمين لكن الإسلام الحقيقي كما يتجلى في القرآن الكريم هناك مواجهة نشيطة للأفكار الجبرية، رغم فكرة الاعتماد على الله وطلب العون منه ليساعدنا على العمل، والاستعاذة به من الشر، فالجبرية أو تفريغ الإنسان من قدرته على تحديد مصيره أو الاعتقاد بأن حياة الإنسان مقدرة سلفًا له، وهو مسير لا حول له ولا قوة كل هذ ليس جزءًا من رسالة محمد ﷺ ولا دعوته)[1].

وأختم هذا المبحث بكلمة للأستاذ الإمام محمد عبده عن آثار الإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح قال فيها:

(إن عقيدة «القضاء والقدر» إذا فهمت على الوجه السليم وخلصت من شناعة القول بالجبر لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثر حميد فهي تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة واحتمال المكاره واقتحام الأهوال، وتبث فيها روح التضحية وتطبعها على السخاء والثبات، وبذل ما هو عزيز في سبيل الفكرة والعقيدة، والذي يعتقد أن الأجل محدد والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء... كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية)[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق نفسه، ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) نقلاً عن د. عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠١، ص٩٢.

ولاحظت ـ والكلام للدكتور الدسوقي ـ في أثناء القراءة أن العميد يهمهم ببعض العبارات التي تدل على أنه غير راض على ما جاء في الرسالة فأمسكت عن القراءة وقلت للعميد:

ألم يكن الإسلام خاتم الأديان؟

قال: بلى.

قلت: وهو دين عام للناس جميعًا (؟).

قال: إن القرآن صريح في هذا.

قلت: إن هذا يعني أن الإسلام هو الدين الذي يجب أن يخضع له الناس جميعًا؟

قال: الإسلام بمعناه اللغوي.

قلت: الإسلام بمعناه الاصطلاحي وليس اللغوي، وهو الدين الذي بعث به محمد ﷺ فاليهودي والنصراني ليسا مسلمين، ولو تمسكا بتعاليم النصرانية أو اليهودية ـ مع فرض أن هذه التعاليم صحيحة كما بعث بها عيسى وموسى ﷺ ـ ما دام ينكران نبوة محمد ﷺ وما جاء به من التشريعات والفرائض.

قال: الآية القرآنية تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]، وهي بهذا صريحة في أن المسلم واليهودي والمسيحي والصابئ إذا عملوا صالحًا فلهم جزاء

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

بالضرورة والتي نتخذها فيصلاً في دراساتنا العقدية ومقارنات الأديان، ومنها:

١ ـ الإسلام هو الدين الوحيد الفرد المنزل من الله تعالى على جميع الرسل ابتداء من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

٢ ـ الإسلام لا يعني التوحيد فحسب، وليس كل من كان موحدًا كان مسلمًا أو متدينًا بدين الله، ولكن دين الإسلام لا يكون إلا بالإيمان بالله ورسله جميعًا؛ بغير تفريق بين أحد من رسله.

٣ ـ لا إسلام ولا دين مقبولاً عند الله بعد بعثة محمد ﷺ إلا بالإيمان به وباتباع ما جاء به.

٤ ـ القرآن والسُّنَّة هما المصدران الإلهيان الوحيدان الموثقان اللذان يقاس إليهما كل خبر عن رسالات الأنبياء السابقين.

٥ ـ القرآن صريح قاطع في وصف عقائد أهل الكتاب بأنها كفر وبأنها شرك وبأن مصير أصحابها إلى الخلود في النار.

٦ ـ القرآن لا يقبل من أهل الكتاب ـ عقديًا ـ إلا من آمن بمحمد ﷺ واتخذه مهيمنًا على عقائده](١).

وآيات القرآن قاضية بهذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ

(١) د. فرج الله عبدالباري: اليوم الآخر بين المسيحية والإسلام، دار الوفاء ـ المنصورة ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص١٣، ١٤ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

يؤكد الله نفسه أن الإسلام هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] وكيف لا وقد أخبره الكتاب ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2]][3].

وإذا كان المستشرق لا يسلم بهذا ولا يعتقد به فكلامه يفيد أنه يسلم ويعتقد بأن ذلك من عقيدة المسلمين، وأن لهذا الاعتقاد أثرًا في سلوكهم وحياتهم. على حين غاب هذا الفهم عن الدكتور طه حسين وهو المسلم الذي عاش في ديار المسلمين ودرس بالأزهر حينًا من الزمان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٥٥، ٥٦.

أساتذتك الإفرنج؟ هنالك وضع سانتيلانا يده على كتف طه طالبًا منه السكوت][1].

وأورث هذا الافتتان طه إعجابًا بالمستشرقين وعلمهم، دفعه إلى أن ينظر إلى علوم المستشرقين وآرائهم نظرة المسحور أو المبهور، واشتد هذا الافتتان حين أتيح له السفر إلى فرنسا وخالط المستشرقين عن قرب وتأثر بما لديهم حتى في أخص خصوصيات المسلمين ممن يتحدثون العربية وهي خصوصية فهم القرآن؛ إذ صرح الدكتور في مقال له بأنه لم يفهم القرآن على وجه صحيح إلا على يد المستشرق كازانوفا[2] في دروس الكوليج[3] دي فرانس يقول طه عن هذا المستشرق: [عرفته أستاذًا في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابًا لم أعرف له حدًا كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين، ولكني لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا في إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي كله وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر على تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢١.

(٢) سبق تعريفه، ص٦٧.

(٣) الكوليج دي فرانس: أقدم معهد للعلم الحديث أنشئ سنة ١٥٣٠م للبحث الحر والدرس الخالص من كل سعي إلى غاية علمية ما. راجع: نبيل فرج: طه حسين وأوراقه المجهولة ـ ملف أعد لمجلة العربي الكويتية ـ العدد ٤٤١ السنة الثامنة والثلاثون أغسطس سنة ١٩٩٥م، ص١٢٨ ـ ١٣١.

الشعر الجاهلي)[1].

وجعل ذلك نتيجة انتهى إليها بعد مقدمات ساقها ومعظمها قام على أسس مغلوطة من الاستدلال والتوجيه.

[ولقد وصل الأمر في نظر صاحب الشعر الجاهلي بالنسبة للقرآن وأنه وحده ـ لا الشعر الجاهلي ـ يعبر تعبيرًا صادقًا عن حياة العرب قبل الإسلام، إلى أن القرآن في نظره لا يعبر عن الحقائق التي وقعت في هذه الحياة العربية الجاهلية... وبناءً على ذلك تكون قصة إسماعيل بن إبراهيم الذي ينسب إليه العدنانيون قصة خيالية... والقرآن، أو محمد لم يشأ أن يغفل شأن هذه القصة لما لها من أهمية في قريش، وبالتالي لما لها من أهمية في الصراع بينه وبين قريش صاحبة السيادة في العرب، والحريصة على الاحتفاظ بهذه السيادة بعدما قام بدعوته][2].

يقول الدكتور: [للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثت بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها][3].

---

(١) طه حسين: الشعر الجاهلي، ص٢٣ نقلاً عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٨٦.

(٢) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٨٨، ١٨٩ بتصرف.

(٣) طه حسين: الشعر الجاهلي، ص٢٦ نقلاً عن: مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٦٨.

بأدواته وأساليبه والدكتور بهذا المسلك يكذِّب صريح القرآن بدعوى أنه متبع لنتائج البحث العلمي الذي يقتضي ـ على حد زعمه ـ التخلص من المعتقدات السابقة واستقبال البحث خالي الذهن، هذا المنهج الذي أخذه عن أستاذه كازانوفا والذي كان دائمًا ما يشيد به في مثل قوله: [كان كازانوفا مسيحيًا شديد الإيمان بمسيحيته، يذهب فيها إلى حد النصوص ولكنه إذا دخل غرفة الدرس في الكوليج دي فرانس نسي من المسيحية واليهودية والإسلامية كل شيء إلا أن لها نصوصًا يجب أن تخضع للبحث اللغوي كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها في معاملهم بما يشاؤون من ألوان البحث والامتحان][1] وقد نقل الأستاذ أنور الجندي[2] نصًا عن مجلة الحديث التي كانت تصدر من حلب من محاضرة للدكتور طه والتي كان يلقيها على الطلبة في كلية الآداب، فيه تصريح بالقول ببشرية القرآن وذلك حين يقول: [وإذن فالقرآن محلي لا إنساني عالمي قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها، قاله صاحبه متأثرًا بحياته التي عاشها وعاش فيها، ولذلك يعد تعبيرًا صادقًا عن هذه الحياة، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفًا عامًا للإنسان فليس ذلك بحق، إنه دين بشري وليس وحيًا إلهيًا والقرآن مؤلف، ومؤلفه نبيه محمد، ويمثل تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه الجزيرة في اتجاهات حياتها المختلفة السياسية والاقتصادية

---

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين: دار الاعتصام. د. ت، ص١٦٩.

(٢) أنور الجندي (١٣٣٥هـ/١٤٢٢هـ) (١٩١٧م ـ ٢٠٠٢م) من مواليد أسيوط، له مؤلفات كثيرة تصدى بها للغزو الفكري والتبشيري وله عن طه حسين مؤلفان هما: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ومحاكمة فكر طه حسين. راجع: أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي دار الشروق، ط١ سنة ١٤٢٣هـ/سنة ٢٠٠٢م، ص٣٢ بتصرف.

أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان، وأن تلك الآية على جانب من الركاكة، وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدي المعنى المقصود منها، وأنه كان يريد أن يمرن طلبته على النقد.

وقدَّم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة لأحد طلبة طه حسين أثبت فيها ما كان يلقيه عليهم...[1] (ومما جاء بالكراسة): [ليس القرآن إلا كتابًا ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيًا عن قداسته التي تتصورونها، وأن تعتبروه كتابًا عاديًا فتقولوا فيه كلمتكم، ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذ عليه][2].

ولقد كذَّب الدكتور هذا الكلام في حواره مع لطفي عثمان مندوب صحيفة كوكب الشرق[3] حين سأله المحرر[4] قائلاً:

س ـ جاء في خطاب عبد الحميد سعيد أفندي أنكم كنم تكلفون طلبتكم أن ينقدوا القرآن، وأن يسجلوا آراءهم في كراسة فيذكروا أن هذه الآية ضعيفة، وأخرى ركيكة، وأنكم تحثون الطلبة على نقد القرآن، وأن فيه أسلوبين مختلفين، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ففي هذا الأسلوب تهديد

---

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٤.

(٢) منقول بالنص عن محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس سنة ١٩٣٢م، ص٣٤٦ وما بعدها، نقلاً عن محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٥.

(٣) لسان حال حزب الوفد آنذاك.

(٤) نشر الحوار في العدد ٢٣٢٧ بتاريخ ١٩٣٢/٣/٢٩م.

الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة، فلا يغض منها، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد؟ وبعبارة أوضح: لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية][1].

وهذه جرأة غير محمودة على كتاب الله لم يسبق الدكتور إليها أحد من المسلمين.

وهذه الجرأة على القرآن كانت مصاحبة لمراحل حياته المختلفة فقد كتب في مذكراته وهو يحكي مرحلة الطفولة أنه [كم كان فرحًا مختالاً حين غدا إلى الكُتَّاب يوم السبت وفي يده نسخة من «الألفية»! لقد رفعته هذه النسخة درجات، وإن كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد، ولكنها على ضآلتها وقذارتها كانت تعدل عنده خمسين مصحفًا من هذه المصاحف التي كان يحملها أترابه لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد... ولكن الألفية! وما أدراك ما الألفية! وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفًا، وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الأبيات الأولى منها، والألفية شعر وليس في المصحف شعر، الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

---

(١) طه حسين: رحلة الربيع والصيف ـ المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب بيروت ـ ط٢، ١٩٨٣م، ٢١٨/١٤.

أما المتحاملون على الإسلام منهم فقد حذوا حذو مشركي مكة حين قالوا عن القرآن ورسول الله الذي جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ...﴾[1]، وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[2]، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3]، ورددوا شبهات وكلمات يدَّعون بها أن القرآن من تأليف الرسول ﷺ [وأنه ـ أي: القرآن ـ انطباع في نفس محمد ﷺ نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها... بمكانها وزمانها... ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية][4].

يقول جورج سيل[5] في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتي:

«أما أن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيس له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح ـ مع ذلك ـ أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة... وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»[6].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥.

(٤) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٧٧.

(٥) سيل: (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) مستشرق إنجليزي عمل بالمحاماة ـ درس العربية واقتنى مجموعة من مخطوطاتها اهتم بالإسلام حتى وُصفَ أنه نصف مسلم، له ترجمة للقرآن في ٤٧٠ صفحة. المستشرقون ٢/٤٧.

(٦) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة عدد ٥ صفر سنة ١٤٠٤هـ، ط١، ص٨٣.

أبحاثهم عن موروث ثقافي يحمل الحقد والبغض للإسلام ونبيه، ثم لكونهم يصدرون في أبحاثهم عن عقل جمعي فكلهم يردد مقالة سابقه على أنها من الحق الذي ليس بعده إلا الضلال.

ومن الغريب أن نجد هذا القول عند المهتمين منهم بأمر اللغة، فنجد رجلاً مثل يوهان فك[1] وهو يشيد بأسلوب القرآن يقول: [ففي القرآن لأول مرة في تاريخ اللغة العربية ينكشف الستار عن عالم فكري تحت شعار التوحيد، لا تعد لغة الكهانة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجًا واهيًا له، من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ومسالك المجاز في اللفظ والدلالة، على حين أن هذا الأثر العظيم الذي وجد التعبير الموائم لمضمون جديد برمته، إنما يصور مجهودًا لمحمد ﷺ جد أصيل، لا ينقص من قيمته أن محمدًا نفسه كان يرى أنه وحي إلهي تلقاه في أوقات الاستغراق الديني][2].

استدراك وبيان:

بعد أن كتبت هذا المبحث صدر كتاب الدكتور محمد الدسوقي عن طه حسين «أيام مع طه حسين» ذكر فيه رأيًا طيبًا للدكتور طه حسين في القرآن ومصدريته يخالف رأيه سالف الذكر فرأيت من الأمانة إثبات النص إنصافًا للرجل:

---

(١) يوهان فك: من أكابر المستعمرين الألمان ولد سنة ١٨٩٤ تخصص في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، درّس في الهند وألمانيا. من آثاره: دور الرواية والرواة في الإسلام. راجع: د. محمد فتح الله الزيادي: الاستشراق وأهدافه ووسائله. دار قتيبة سوريا سنة ١٩٩٨م، ص٥٦.

(٢) يوهان فك: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمه د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٧.

المبحث الثاني

طه حسين وتعريضه بتكذيب القرآن

على طريقة المستشرقين في الاستدلال بالقرآن يُقدِم الدكتور على التشكيك في مصداقية القرآن!، وذلك حين يفسر آيات القرآن على غير وجهها أو يتعلق برأي مرجوح في تفسير آية من آيات الكتاب العزيز.

حين أرَّخ الدكتور لحياة الشيخين واستعرض المحن والشدائد التي واجهها الصديق أبو بكر ذكر من تلك المحن وفاة النبي ﷺ وبين أن تلك المحنة لم تكن خاصة بأبي بكر بل كانت عامة كادت تفتن المسلمين عن دينهم ـ على حد تعبيره ـ ثم يوضح ذلك بقوله: [فهم كانوا يقدِّرون أن النبي سيبقى فيهم حتى يظهر دين الله على الدين كله، وهم يقرؤون في سورة التوبة[1] قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ويقرؤون قوله عز اسمه في سورة الفتح[2]: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

(١) آية ٣٣.

(٢) آية ٢٨.

وظهور الدين بالمعنى الذي قاله الدكتور إنما سيكون في آخر الزمان كما دلت على ذلك السُّنَّة الصحيحة، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**»، قلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[1] أن ذلك تام، قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**» أخرجه مسلم[2].

بل حتى في آخر الزمان، لا يتم إيمان جميع الناس، بل يبقى أناس لا خير فيهم على دين آبائهم كما نص الحديث السابق، وللعلماء في تفسير الظهور في الآيتين آراء ذكر منها القرطبي:

[**الأول**: ظهور الحجة والبراهين وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها.

والثاني: ظهور الإسلام على كل دين قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى عليه السلام وقال السدي: ذاك عند خروج المهدي[3]،

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) رقم ٢٩٠٧ في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، راجع الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، مكتبة الغزالي دمشق، مؤسسة مناهل العرفان بيروت بدون ت، ٣٣/١٨.

(٣) المهدي المنتظر: هو الإمام المنتظر الذي يأتي آخر الزمان ليقود المسلمين ضد المسيح الدجال وقد بشرت به الأحاديث الصحيحة من سُنة النبي ﷺ [انظر: المعجم الإسلامي، ص٥٩٢، بتصرف يسير].

والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والجزية[1].

والظهور بهذا المعنى تحقق أيضًا في حياته ﷺ فقامت للمسلمين دولة بعد أن كان الإسلام فكرة ومعنى في نفس نبيه ونفر ممن آمن به، ثم دخل الناس في دين الله أفواجًا، وأتم الله الدين للمسلمين قبل وفاة نبيه فأي ظهور بعد هذا يقصد الدكتور؟!

إن تشكيك الدكتور في مصداقية القرآن بهذا الأسلوب مسلك خاطئ لا يقره عليه منصف.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، دار التراث العربي، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٣/١٣٧، ١٣٨، ورواه أحمد في مسنده، وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/٧، ٨.

أقوال الدكتور طه في هذه القضية:

أكثر الدكتور من التعرض لهذه القضية في كتاباته عن الإسلام وأعلام المسلمين، ولم يبد الدكتور خلافًا في حديثه عند تعرضه لكتابة القرآن في العهد النبوي ولا لجمع أبي بكر الصديق، ولكنه عندما يعرض لكتابة القرآن على عهد عثمان إذا به يتبرع بترديد شبهات أهل الزيغ والضلال ويعرضها على لسان أصحابها حتى يعفي نفسه من اللائمة، ولكنه لا يطيق صبرًا على هذا الإعفاء إذ تغلبه نفسه فلا يستطيع إخفاء وجهة نظره فيبديها في صراحة ووضوح.

يقول الدكتور حين يتحدث عما عابه الناس على عثمان: [وعاب خصوم عثمان عليه أنه حمل الناس على مصحف واحد، ثم لم يحظر غير ما جاء في هذا المصحف من القراءة فحسب، ولكنه حسم الأمر حسمًا فحرَّق ما عدا هذا المصحف من الصحف التي كتب فيها القرآن. قال المعترضون على عثمان: إن النبي قال: «**نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف**»[(١)].

فعثمان حين حظر ما حظر من القراءة، وحرَّق ما حرق من الصحف إنما حظر نصوصًا أنزلها الله، وحرق صحفًا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله، وما ينبغي للإمام أن يلغي من القرآن حرفًا أو يحرق من نصوصه نصًا. . .][(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم بروايات متعددة بلفظ مقارب. راجع الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، باب فضائل القرآن فصل بيان أن القرآن على سبعة أحرف من رقم ٨١٨ ـ ٨١٢، المجلد الثاني الجزء السادس، ص٩٨ ـ ١٠٤.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٥، ١٩٩٦ ٣٧٦/٤ ـ ٣٧٨ بتصرف.

شيء من النقص بتحريق عثمان للصحف أو تخريقها!! وهذه الدعوى قام لها العلماء فهدموا أركانها وأبانوا عوارها بما أوضحوه من منهج عثمان ﷺ وتحريه الخير، وأنه ما حرَّق الصحف التي كانت لديه بعد إتمام الجمع إلا بمشورة من المسلمين: [روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حَرَّاق مصاحف، فوالله ما حرَّقها إلا على ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ، وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب ﷺ: لو كنت الوالي وقت عثمان، لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان][1] وحتى لا يكون ردنا على هذا الشبهة كلامًا مرسلاً نورد هنا منهج عمل اللجنة التي شكلها عثمان لكتابة المصحف حتى يظهر الحق ويذهب ما عداه من الادعاءات الباطلة.

مميزات المصاحف العثمانية:

امتازت المصاحف العثمانية على المصحف الذي جمع على عهد أبي بكر الصديق ﷺ بأنها:

١ ـ اقتصرت على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادًا[2].

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الرياض، السعودية ـ ب. ت، م١، ص١٦٢.

(٢) حديث الآحاد: هو ما لم يجمع شروط التواتر وهي أن يرويه عدد كثير، وأن توجد هذه الكثرة في جميع طبقات السند، وأن تحيل العادة اتفاقهم على الكذب، وأن يكون مستند حديثهم الحس كقولهم: سمعنا. راجع: مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص٨٤، ٨٧.

قال بها المستشرقون واضطربت فيها مقالاتهم لاضطراب تفكيرهم في المسألة ذاتها.

رأي المستشرقين في زيادة القرآن أو نقصه:

ذهب بعض المستشرقين إلى أن القرآن اعتراه نقص في نصه الذي بلَّغه الرسول ﷺ عن ربه وممن قال بذلك جوستاف إ. فون جرونيباوم[1] في كتابه «حضارة الإسلام» إذ كان من قوله: [ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها مما تبقى لدينا من معلومات، استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة عثمان إلى تنظيم[2] ما خلفه الرسول من الوحي ـ والراجح أنه لم يفقد أو ينس منه إلا جزء يسير جدًا ـ في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافًا بعيدًا][3].

فأشار المستشرق النمساوي إلى نقص القرآن بجملة اعتراضية في حديثه بدأها بقوله: (والراجح) وترجيحه كما ترى لا يعتمد على مرجح إنما ساقه كلامًا مرسلاً معتمدًا على ظنون وأوهام وحتى يقلل من وقع ادعائه يقول بأن المفقود أو المنسي (جزء يسير جدًا) وكأنه أجرى مقابلة بين النص المأثور عن الرسول ﷺ كما تلقاه عن ربه وبين النص الموجود الآن فبان له أن المفقود من النص الأول يسير جدًا!!!

---

(١) سبق ترجمته، ص١٨٥.

(٢) موضوع ترتيب سور القرآن اختلفت حوله الآراء هل كان توقيفيًا، أي: بنقل عن رسول الله ﷺ ـ المبلغ عن ربه ـ أم كان باجتهاد من الصحابة، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإنه ينبغي احترامه لا سيما في كتابة المصحف، لأنه إجماع عن الصحابة والإجماع حجة: راجع أحمد عادل كمال: علوم القرآن، ص٨٢.

(٣) جرونيباوم: حضارة الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٧، ص١٠٨.

النقطة ذاتها وهو متأخر في الزمن عن سابقه[1] ولعله رجوع عن مقاله الأول يقول الدكتور في كتابه «مرآة الإسلام»: (ثم جمع القرآن أيام أبي بكر ثم نسخ في المصاحف وأرسل إلى الأمصار أيام عثمان، وجعل المسلمون يروونه سماعًا ويقرؤونه في المصاحف حتى وصل إلينا كاملاً كما هو الآن، فهو متواتر لا يجد الشك إلى شيء منه سبيلاً لم يختلف فيه المسلمون وإنما تناقلوه مجمعين عليه. وتناقلوه مسموعًا ومكتوبًا فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال)[2].

شبهة ثانية حول جمع القرآن:

أثار الدكتور طه حسين قضية ثانية تتعلق باللجنة التي قامت بكتابة المصحف في خلافة عثمان ﷺ، قال الدكتور وهو يعرض للمآخذ التي أُخِذَت على عثمان ﷺ:

[وقد يمكن أن يُعترض على عثمان في أنه كلف كتابة المصحف نفرًا قليلاً من أصحاب النبي، وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه وعلموا الناس في الأمصار، وكان خليقًا أن يجمع هؤلاء القراء جميعًا ويجعل إليهم كتابة المصحف، ومن هنا نفهم غضب ابن مسعود[3]، فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن.

---

(١) صدر كتاب الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ والذي فيه تشكيك في نقص القرآن سنة ١٩٤٧م، وصدر كتاب «مرآة الإسلام» والذي فيه نفي لذلك في عام ١٩٥٩م.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، دار المعارف، ب. ت، ص١٥٤.

(٣) عبدالله بن مسعود [ت٣٢هـ/٦٥٢م]: عبدالله بن غافل، صحابي جليل من مكة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وسادس من دخل في الإسلام، هاجر إلى=

يلعب مع الغلمان. . .][1].

لما كان ذلك من ابن مسعود ﷺ قال عثمان: [من يعذرني من ابن مسعود: غضب إذ لم أوله نسخ المصاحف هلا غضب على أبي بكر وعمر إذ عزلاه من ذلك ووليا زيدًا!! فاتبعت فعلهما][2].

ولقد ذكر العلماء عللاً وتأويلات لاستبعاد ابن مسعود من اللجنة، منها: [أنه كان يكتب ما يوحى من القرآن في مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه. فهو يختلف في ترتيب هذه[3] الآيات عما امتازت به مصاحف عثمان من الترتيب بحسب العرض الأخير على رسول الله ﷺ بقدر ما أدى إليه اجتهاد الصحابة المؤيد بإجماعهم، ويحتمل أن يكون ابن مسعود فاته في مصحفه بعض ما استقصاه زيد بن ثابت وزملاؤه من الآيات التي كانت عند آخرين من قراء الصحابة، زد على أن ابن مسعود كانت تغلب عليه لهجة قومه من هذيل، والنبي ﷺ رخص لمثل ابن مسعود أن يقرؤوا بلهجاتهم، ولكن ليس لابن مسعود أن يحمل الأمة في زمنه والأزمان من بعده على لهجته الخاصة، فكان من الخير توحيد الأمة على قراءة كتاب ربها باللهجة المضرية التي كان عليها

---

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٢/١٠.

(٢) د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، مكانتها. مصادرها، إحصاؤها، دار الاعتصام. ب. ت، ص٤٢.

(٣) قال الدكتور محمد خاطر وهو يتحدث عن معالم مصحف ابن مسعود: «اختلف ترتيب السور فيه عن ترتيبها في مصحف عثمان، حدث بذلك جرير بن عبد الحميد الضبي (١١٠ ـ ١٨٧هـ) والجمهور على أن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة»، انظر: السابق، ص٧٢، وهذا هو الصواب لاتفاق العلماء على أن ترتيب الآيات إنما هو توقيفي ولا يعقل أن يخالف في ذلك ابن مسعود ﷺ مع جلالة قدره وعلو كعبه.

فلقد كان زيد يكتب لرسول الله ﷺ الوحي وهو من حفاظ القرآن وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ وكان فوق ذلك معروفًا بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه[1]، ولقد تعلم السريانية بأمر من رسول الله ﷺ فأجادها في سبع عشرة ليلة[2]، وكان أعلم الصحابة بالفرائض[3].

[وكان زيد محل ثقة الصحابة جميعًا وخاصة الخلفاء منهم ففي زمن الصديق كان موضع مشورته «فقد أخرج ابن سعد عن القاسم أن أبا بكر رضي الله عنه كان إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي والفقه دعا رجالاً من المهاجرين والأنصار، ودعا عمر وعثمان وعليًا، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. . .

وكان عمر يحرص حرصًا شديدًا على بقاء زيد أمامه في المدينة فإذا طلب أهل الأمصار زيدًا باسمه يقول لهم: لم يسقط عليَّ مكان زيد، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره. . .

وكان عثمان يرسل إليه من يريد القراءة، فقد جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ على عثمان رضي الله عنه. قال: فقال لي: إذن تشغلني عن النظر في أمور الناس، فامض إلى زيد بن ثابت، فإنه أفرغ لهذا الأمر فاقرأ عليه، فإن قراءتي وقراءته واحدة ليس بيني وبينه فيها

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ١/٢٥٠.

(٢) ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/١٣٧.

(٣) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٢١.

المبحث الرابع

موقف طه حسين من القراءات القرآنية

من القضايا التي أثارها الدكتور في كتابه ـ الشعر الجاهلي ـ قضية مصدريَّة القراءات القرآنية تلك القضية التي أثارت جدلاً واسع النطاق وتناولها العلماء بالرد والتمحيص ضمن ما تناولوه من قضايا الكتاب المذكور.

تقرير رأي الدكتور في القضية:

حين أراد الدكتور أن يبرهن على أن الشعر الجاهلي ليس من قول العرب الجاهليين وإنما هو مؤلف بعد ظهور الإسلام وأنه يعبر عن حياة المسلمين أكثر مما يعبر عن حياة الجاهلية[1]، استدل بقضية اختلاف اللغة واللهجة فأثار القضية ـ محل البحث ـ «قضية

(١) ألف كثير من العلماء كتبًا للردّ على هذا الادعاء منها: ١ ـ الشيخ محمد الخضري: محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب «في الشعر الجاهلي»، محمد فريد وجدي «نقد كتاب الشعر الجاهلي»، محمد لطفي جمعة: «الشهاب الراصد»، محمد أحمد الغمراوي: «النقد التحليلي في الشعر الجاهلي»، مصطفى صادق الرافعي: «تحت راية القرآن»... وغيرها.

تحرير النزاع:

من كلام الدكتور آنف الذكر يظهر لنا محل النزاع أو الخلاف، فالدكتور في كلامه يزعم عدم إنزال القراءات من عند الله ويقول بأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسبما استطاعت لا كما أوحى الله بها إلى نبيه مع أن معاشر المسلمين يعتقدون أن كل هذه القراءات مروية عن الله تعالى على لسان النبي ﷺ هذه واحدة، أما الثانية: فإنه قصر تفسير القراءات على اختلاف اللهجات وكيفيات النطق من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف، والحق أن هذه الأوجه التي ذكرها إنما تندرج تحت أصل واحد، وأوجه القراءة أوسع من هذا وأشمل.

الرد على هذه الدعوى:

هذه الدعوى تنقسم إلى قسمين: **الأول**: ادعاؤه أن قراءات القرآن غير منزلة من الله وإنما هي من قراءات القبائل لاختلاف لهجاتها.

وللرد على هذه الدعوى نوضح أنه لم يحظ كتاب بالعناية والرعاية مثلما حظي القرآن الكريم سواء في حياة النبي ﷺ أو في حياة الخلفاء من بعده وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

[ومن الحقائق الراسخة رسوخ الجبال أن طريق تلقي القرآن كان هو السماع الصوتي، سماع صوتي من جبريل لمحمد ﷺ، وسماع صوتي من الرسول ﷺ إلى كتبة الوحي أولاً وإلى المسلمين عامة، وسماع صوتي من كتبة الوحي إلى الذين سمعوه منهم من عامة المسلمين، وسماع صوتي حتى الآن من حفظة القرآن المتقنين إلى من يعلمونه من أفراد المسلمين... ولا يزال متعلم القرآن في أشد الحاجة

القرآن لا من ناحية أسلوبه ولا من ناحية ألفاظه، بل ولا من ناحية قانون أدائه][1].

وحين يقول النبي: «**إن أتبع إلا ما يوحى إلي**» فهو يبين مهمة نفسه وهي البلاغ عن الله ومن كان هذا شأنه لا يستطيع أن يبدل أو يغير من تلقاء نفسه.

وهذا دليل آخر يؤكد ما سبق به القول من أن القراءات إنما كانت عن وحي من الله وهو أن النبي ﷺ كان يؤكد على أصحابه في ضبط وإحكام ما يأخذونه عنه من قرآن أو سنة ولا أدل على ذلك من أن النبي ﷺ [علم البراء بن عازب دعاء فيه هذه الكلمة «ونبيك الذي أرسلت» فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال: «ورسولك الذي أرسلت» فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك، بل قال له: «**لا، ونبيك الذي أرسلت**»[2] نهاه عليه الصلاة والسلام أن يضع لفظة رسول موضع لفظة نبي، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى، إذ هو رسول ونبي، فكيف يسوغ للبعض أن يقول: إنه عليه الصلاة والسلام كان يجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم غفور أو سميع عليم، وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا][3].

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٨٧/١٨٨ بتصرف.

(٢) ذكر المنذري الحديث بتمامه في الترغيب وقال: أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. راجع: الترغيب والترهيب ١/٢٠٨.

(٣) المذاهب الإسلامية، ص٤ ترجمة د. محمد يوسف موسى، نقلاً عن د. المطعني: حقائق القرآن وأباطيل خصومه، ص٩١.

نظرية في الحياة الإسلامية؛ لأنها أسلمت النص القرآني إلى هوى كل شخص يثبته على ما يهواه][1].

وجولدزيهر وبلاشير يذهبان كلاهما إلى بشرية القراءات وإن اختلفا في التأويل والتعليل وبيان سر تعدد القراءات، وهما بهذا القول يلتقيان مع الدكتور في دعواه أن القراءات بشرية المصدر لا إلهية وإن كان الدكتور قد امتاز عليهما بالعبارة الصريحة والأسلوب المباشر.

* أما القسم الثاني من الدعوى التي أثارها الدكتور، وهو قصره تفسير القراءات على اختلاف اللهجات وكيفيات النطق من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف، فهذه الأوجه تزيد عن سبعة وكلها يندرج تحت أصل واحد وهو اختلاف اللهجات، وقصر القراءات في هذا الوجه تحكم من غير دليل، ثم إن واقع القراءات يحكم بوجود أوجه كثيرة في القراءة من غير هذا الأصل (اختلاف اللهجات).

وهذا الخلاف ناشئ من تفسير قول النبي ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف**» فقد اختلفت تأويلات العلماء للمراد بالسبعة أحرف على أقوال كثيرة أرجحها ما قال به ابن الجزري[2]، والذي قدم له بقوله: [ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر فيه نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن

---

(١) بلاشير: المدخل إلى القرآن، ص٦٩ نقلاً عن: رابح لطفي جمعة: القرآن والمستشرقون، ص٩١.

(٢) ابن الجزري، متكلم وحجة في القراءات ولد بدمشق سنة ٧٥١هـ وتوفي بشيراز سنة ٨٣٣هـ وله مؤلفات كثيرة جلها في القراءات منها كتاب النشر في القراءات العشر. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ١١٨/١، ١١٩.

وهذا الرأي رجحه من القدامى: الرازي[1]، وابن قتيبة[2]، والقاضي ابن الطيب[3]، ورجحه غير واحد من المحدثين أمثال الشيخ الخضري الدمياطي[4]، والشيخ محمد بخيت المطيعي.

لكن الشيخ الزرقاني[5] فضَّل صياغة الرازي في هذا الشأن على غيره من القدامى على الرغم من عدم الاختلاف بينهم إلا في طرق التتبع والاستقصاء، والتعبير والأداء فرآها أهدى سبيلاً وأكثر توفيقًا، وهذه الصياغة قررها بقوله:

[والذي نختاره ـ بنور الله وتوفيقه ـ من بين تلك الآراء والمذاهب هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

---

(١) الرازي (٥٤٣هـ ـ ١١٤٩م/٦٠٦هـ ـ ١٢١٠م) فخر الدين محمد بن عمر، إمام مفسر متكلم مشهور وفيلسوف، أشهر مؤلفاته: مفاتيح الغيب. [أشرف طه أبو الدهب/المعجم الإسلامي، ص٢٧٥].

(٢) ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ/٨٢٨ ـ ٨٨٩م)، عبدالله بن قتيبة (أبو محمد) عالم مشارك في أنواع العلوم كاللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه وغريب الحديث والشعر والفقه والأخبار وأيام الناس، له آثار كثيرة، منها: عيون الأخبار، غريب القرآن، أدب الكاتب وغيرها. [معجم المؤلفين ٢/٢٩٧].

(٣) الباقلاني: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري القاضي أبو بكر الباقلاني المتكلم الأشعري سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣ من تصانيفه إعجاز القرآن. الانتصار. كشف الأسرار الباطنية. الملل والنحل. مناقب الأئمة. نهاية الإيجاز في رواية الإعجاز. هداية المسترشدين في الكلام. (هدية العارفين ١/٤٧٤).

(٤) الشيخ محمد الخضري: هو محمد بن عفيفي الخضري الباجوري المعروف بالشيخ الخضري (١٢٨٩ ـ ١٣٤٥هـ = ١٨٧٢ ـ ١٩٢٧م) باحث، خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، من كتبه: أصول الفقه، وتاريخ التشريع الإسلامي، وإتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ومحاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين. الأعلام الزركلي م٦ ص٦٦٨.

(٥) الشيخ الزرقاني: هو محمد عبد العظيم الزرقاني من زرقان منوفية مدرس القرآن وعلومه بالجامعة الأزهرية ومؤلف كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن. راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن.

[وعلى هذا مُحيت من الأحرف السبعة ستة أحرف، ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الذي نقرؤه في مصحف عثمان وهو حرف قريش وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه: فمد بعضهم وقصر بعضهم، وفخم فريق ورقق فريق، ونقلت طائفة وأثبتت طائفة، فأنت ترى أن هذه القراءات التي عرضنا لها إنما هي مظهر من مظاهر اختلاف اللهجات، وأن تلك القراءات التي أنزل عليها القرآن إنما هي لغات محي منها ست وبقيت منها واحدة][1].

وهذه والله جرأة على الحق، إذ كيف يقدم عثمان رضي الله عنه على إذهاب أحرف أقرها رسول الله ﷺ وأقر قراءة أصحابه بها بقوله لهم: «**هكذا أنزلت؟**» [ولو محيت ستة أحرف من أوجه القراءة ففيم بقي الخلاف في تأويل حديث رسول الله ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف؟**» وكيف طابت نفوس الصحابة أن يدعوا القراءة بالأحرف التي سمعوها من رسول الله ﷺ؟

وهناك دليل مادي أيضًا على بقاء الأحرف الستة جميعًا، وهو بقاء التيسير والتخفيف وتهوين الأداء على الأمة الإسلامية الذي هو الحكمة في الأحرف السبعة، وها نحن أولاء لا نزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وَسِعَ كافة الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية][2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي: المجموعة الكاملة ٩٨/٥.
(٢) الزرقاني: مناهل العرفان ١٧٩/١.

دققتم النظر، وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، ويمتاز كذلك بقطع الفكرة واقتضاب المعاني، وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه بيئة مكة وانحطاطها.

أما القسم المدني فهو هادئ لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى وينافس الخصومة بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق وسائر المعاملات، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن. اهـ][1].

فهذا الكلام ـ إن صحت نسبته إلى الدكتور ـ يتوافق مع الدعوى التي طالما أثارها المستشرقون، وأكثروا من ترددها، وهي أن القرآن مأخوذ من مصادر يهودية أو نصرانية، كما نقل عن مرجليوث[2] من ادعائه [أن النبي تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل وبحيرى الراهب وعداس وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت كما ذكر حدادًا روميًا

---

(١) أنور الجندي: حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٨٤، ١٨٥، وكذلك كتابه: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٤، ١٥٥، قال الأستاذ الجندي بعد نقل ما سبق: منقول بالنص من محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس ١٩٣٢، ص٣٤٦ وما بعدها. اهـ.

(٢) مرجليوث: (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠) ولد وتوفي في لندن تخرج من جامعة اكسفورد واشتغل بالتدريس بها منذ ١٨٨٩ ـ تردد على الشرق الأوسط وتأثر به عدد من الأدباء العرب. المستشرقون: العقيقي ٢/٧٧.

أتعلم عندما كنت شابًا أن محمدًا هو الذي ألف القرآن، وقد قيل لي مرارًا: إن مؤلف القرآن قد جمع ببساطة قصصًا من التوراة والإنجيل بشكل مختلف شيئًا قليلاً، وقد ظللت فترة على هذا الاعتقاد حتى درست الإسلام واكتشفت زيف وتضليل هؤلاء المستشرقين][1].

ولقد قام علماء الإسلام[2] لهذه الدعوى فأبانوا عن خطئها وهي من السذاجة أن نقف عندها أو نعرض لها.

أما حديث الدكتور عن المكي والمدني وما ذكره من وجوه في التميز بينهما فقد تعقبه الشيخ الزرقاني في مناهل العرفان وأبان ما فيه من أغاليط وأخطاء[3].

وأمانة البحث تقتضي أن أشير إلى أن الدكتور نفى هذا الكلام المنسوب إليه قائلاً: [كل ما قلته هو ما يقوله العلماء المسلمون من أن السور المكية كانت قبل كل شيء سور إنذار وتبشير، فكانت فيها شدة

= وتعلم اللغة العربية حتى يفهم القرآن. من آثاره العظيمة: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم نشر ١٩٧٦، وله: «ما أصل الإنسان. إجابات العلم والكتب المقدسة. راجع: الأخير طبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ط١٢، سنة ١٩٨٥ من مقدمة الناشر».

(١) د. موريس بوكاي: ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة، ترجمه ونشره مكتب التربية العربي.

(٢) انظر: د. محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ـ دار القلم ـ الكويت، ط٤ ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٥٦ ـ ٧٠، د. رشدي أبو شبانة الرشيدي: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، طبعة خاصة بالمؤلف، ب. ت، ص٢٠٣ ـ ٢٠٨، محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ٤٢١/٢ ـ ٤٢٧، رابح لطفي جمعة، القرآن والمستشرقون، ص٤٠، ٥٥.

(٣) راجع: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ٢٠٦/١ ـ ٢٣٩.

المبحث السادس

موقف طه حسين من ترتيب السور والآيات

هذه النقطة من النقاط التي لم يخرج فيها الدكتور عن إجماع المسلمين، بل وقف موقف المنكر الرافض لتوجه فريق من المستشرقين في ترتيب القرآن الكريم بسوره وآياته.

موقف الدكتور طه حسين:

يقول الدكتور في هذه القضية: «وقد رُتب القرآن ـ كما هو بين أيدينا ـ سورًا منذ أيام النبي وقدمت في المصحف طوال السور على أوساطها، وأوساطها على قصارها، ولم يراع في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو في المدينة ولا تاريخ نزول الآيات وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع من السور...»[1].

الدكتور يعارض المستشرقين:

عاب الدكتور على نفر من المستشرقين محاولتهم ترتيب القرآن

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٥٤، ١٥٥.

المبحث السابع

موقفه من الحروف المقطَّعة في أوائل السور

من القضايا التي أثارها الدكتور مع طلاب كلية الآداب والتي تتعلق بكتاب الله العزيز قضية الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد قدم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة أحد الطلاب إلى مجلس النواب المصري عام ١٩٣٢م وفيها بعض الأفكار التي تناولها الدكتور في محاضراته والتي تتعلق بالقرآن ومما جاء بها: [وهناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة، التي تبتدئ بها بعض السور أمثال: ألم، ألر، طس، كهيعص، حم عسق... إلخ، فهذه كلمات ربما قصدت منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب][1].

لما أثار الدكتور عبد الحميد سعيد هذه القضية وغيرها في مجلس النواب أثارت ردود فعل واسعة النطاق في الأمة بأسرها واهتمت بذلك

---

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٥ نقلاً عن محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري في ٢٨ مارس ١٩٣٢، ص٣٤٦.

[١ ـ للفت النظر للاستماع للقرآن حين يتلى فهي أداة تنبيه، وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم، أن محمدًا ﷺ أمي لم يقرأ ولم يكتب، قبل أن يوحى إليه هذا القرآن، فنطقه بهذه الحروف على الهيئة التي لا يحذقها إلا القراء والكاتبون أمر يستدعي الانتباه ويستلفت النظر.

٢ ـ أو أنها إشارة إلى الإعجاز كأنه يقول لهم: إن هذه الألفاظ والجمل والعبارات والآيات قد ركبت من هذه الحروف البسيطة التي تعرفونها جميعًا، ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثل هذا التركيب، مع أن مادته الأولية بين أيديكم، فلا مندوحة لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب، المركب هذا التركيب من عند الله.

٣ ـ أو أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذانًا بانتقالهم من طور إلى طور في مدارج الرقي والكمال، فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالاً جديدًا إلى درجة أعلى وأكمل في مدارج الحضارة الإنسانية والرقي الاجتماعي..، وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لا يغني عن الحق شيئًا ومن طرائف ما ذهب إليه بعضهم في ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف في أوائل السور بعد حذف المكرر منها «نص حكيم قاطع له سر» كأنه يريد أن يقول: إنها وصف للقرآن، ولا دليل على هذا القول ولا سند له][1].

وكذلك عرض الدكتور لرأي القائلين: إنها من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقر بها كما

---

(١) أحمد عادل كمال: علوم القرآن، ص١١٠، ١١١ بتصرف.

المبحث الثامن

طه حسين وقضية أميّة الرسول ﷺ

من القضايا المتعلقة بالقرآن حديث الدكتور عن المراد بكلمة أُمِّي وأميين في القرآن الكريم.

ذكر الدكتور محمد الدسوقي [أن الدكتور أحمد الحوفي زار الدكتور طه حسين في ١٩٧٢/٣/١٤م، وتناول الحديث بينهما فيما تناول كلمة أمي وأميين وذكر الدكتور الحوفي أنه بحث في المعاجم اللغوية القديمة فلم يجد فيها هذه الكلمة بمعناها الشائع وهو الجهل بالقراءة والكتابة ولم يوردها بهذا المعنى غير اللسان كذلك أشار الطبري في تفسيره لها.

ثم يقول الدكتور طه حسين: أن كلمة «أُمِّي» في القرآن يقصد بها من ليس عِبْريًّا وأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[1] معناه ليس علينا فيمن ينسبون إلى الأمم الأخرى سبيل. ثم تحدث عن ورود هذه الكلمة في العهد القديم والحديث عنها بهذا المعنى][2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١٦٦، ١٦٧.

ساذجة قبل أن تعرف المعارف)[1].

وكذلك فسر القرطبي قوله: «أميون» من الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[2] بقوله: [أي: من اليهود. وقيل: من اليهود والمنافقين أميون؛ أي: من لا يكتب ولا يقرأ واحدهم أمي، منسوب إلى الأُمَّة الأُمِّيّة التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ومنه قوله عليه السلام: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**».

ثم ساق القرطبي أقوالاً أخرى في معنى الكلمة ثم عقب بقوله والقول الأول أظهر والله أعلم][3].

وفي تفسيره لآية سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[4] ساق كلامًا للماوردي يقول فيه:

[فإن قيل: ما وجه الامتنان بأن بعث نبيًا أميًّا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحِكم التي تلاها.

---

(١) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي: البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٢. ب. ت ٢٦٩/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/٢، ٧.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الإطلاق في تفسير كل الآيات التي جاء بها لفظ الأمي أو الأميين ومع تسليمنا بأن الكتاب المقدس ـ التوراة والإنجيل ـ يطلق هذا اللفظ على الشعوب من غير العبرانيين[1]، فإن ذلك لا يعد دليلاً على صحة الإطلاق وحتمية الأخذ بهذا التفسير نظرًا للشكوك والريب التي تحيط بالكتاب المقدس من ناحية إلهيته وعصمته وبعده عن التحريف والتغيير.

وبعد فكل من التفسيرين مقبول ولكن الخطأ يكمن في الجزم بواحد منها ونفي الآخر.

آراء بعض المستشرقين:

يرى باريه .R.Part[2] بأن الآية ٧٥ من سورة آل عمران ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ تجعل من المحتمل أن تكون كلمة أمي أو أميين وضعها أهل الكتاب وربما كان واضعوها هم اليهود للدلالة على الوثنيين ويرفض تفسير أمي بالجاهل بالقراءة والكتابة فيقول: [هناك عوامل لغوية تجعل من الصعب أن نقول: إن كلمة أمي معناها الذي لا يكتب ولا يقرأ فلا الكلمة العربية «أمة» ولا العبرية «أما» ولا الآرامية «أميتا» تدل على الأمة في حالة الجهالة.

ويرفض باريه تفسير «بول[3] Frants Bull الذي قال بأن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ قائلاً: واعتراض بول على تسمية محمد نفسه

---

(١) د. بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، مصر، طبعه ١٢ ب.ت، ص١١٧.

(٢) باريه: لم أستدل على ترجمته.

(٣) بوهل (بول) فرانتس (١٢٦٦ ـ ١٣٥١هـ ـ ١٨٥٠هـ ـ ١٩٣٢م) مستشرق دانمركي من أعضاء المجمع العلمي العربي ولد وتوفي في كوبنهاجن، كتب في دائرة المعارف الإسلامية. الزركلي. الأعلام ١٣٩/٥.

المبحث التاسع

رأي الدكتور طه في التوراة وتأييد القرآن لها

(في يوم الخميس الموافق ١٩٦٨/١٢/١٢م في نحو الساعة الثانية عشرة ظهرًا زار الدكتور محمد كامل حسين الدكتور طه حسين وقد كانت معجزات الأنبياء والقرآن الكريم والكتب السماوية من الموضوعات التي تحدث فيها العميد (طه حسين) والدكتور كامل حسين[١].

وكان مما قاله الدكتور طه: إن هناك اختلافًا واضحًا في كثير من المسائل، وإن التوراة تحتوي على أشياء لا يقبلها العقل، ولا يصح أن تكون منزلة من عند الله كنسبة الفاحشة إلى بعض الأنبياء، وأشار العميد إلى قصة سيدنا داود، وما يروى من أنه أرسل زوج امرأة أعجبته إلى ميدان القتال ليُقْتَل حتى يتزوجها وعقَّب عليها بأن القرآن الكريم جاء

---

(١) محمد كامل حسين (... - ١٣٨٠هـ/.... - ١٩٦١م) محمد كامل حسين المخزنجي. دكتور في الأدب وأستاذ الأدب المصري بكلية الآداب جامعة القاهرة، حقق ونشر بعض المخطوطات وتوفي بالقاهرة، من آثاره: في الأدب المسرحي من العصور القديمة والوسطى. معجم المؤلفين ٣/٥٣٠.

ولعل الدكتور انخدع بما ذكر بعض المفسرين من الإسرائيليات كالقرطبي الذي ذكر عند تفسيره لآيات سورة ص ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾[1] (ما قال ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه. فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون الطير، فجعل يدرج بين يديه. فهم أن يتناوله بيده، فاستدرج حتى وقع في كوة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فاطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل، فلما رأته غطت جسدها بشعرها، قال السدي: فوقعت في قلبه، قال ابن عباس: وكان زوجها غازيًا في سبيل الله وهو أريا بن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدمه فيهم فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلامًا أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابًا، وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشب، وتسور الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه)[2].

وذكر القرطبي للقصة سياقات أخرى بينها اختلاف يسير والمضمون واحد وكلها تطعن في عصمة سيدنا داود عليه السلام، وما كان ينبغي من القرطبي ـ رحمه الله ـ مع جلالة قدره أن يورد مثل هذه

---

(١) سورة ص، آية: ٢١ وما بعدها.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٩/١٥ ـ ١٥١.

رأي لمستشرق في الآيات:

حاول المستشرق كارادي فو[1] أن يفسر آيات القرآن طبقًا لما ورد بالكتاب المقدس من نسبة العبث والخطيئة إلى داود فكان مما قاله:

وقد وردت في آية[2] أخرى قضية خصمين دخلا على داود متظاهرين بأنهما يسألانه أن يحكم بينهما بالحق، والواقع أنهما جاءا ليعرّضا بخطيئته[3].

فإذا كان الكتاب المقدس قد صرح بنسبة الخطيئة إلى نبي الله داود فلا يجوز لهذا المستشرق ولا لغيره أن ينسب شيئًا من هذا إلى القرآن الكريم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) البارون كارادي فو، كار (١٨٦٧ ـ ١٩٥٣) مستشرق فرنسي درس العربية ودرَّسها في المعهد الكاثوليكي بباريس. المستشرقون ٢٣٨/١.

(٢) يشير إلى الآية ٢١ من سورة ص.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: داود ١٢١/٩.

الدسوقي ـ: ولماذا تميل إلى هذه القراءة فأجاب العميد ـ يعني طه حسين ـ لأن فيها تأكيدًا لما رآه ابن نوح من أن الجبل سينقذه من الغرق حسب ظنه، على أنَّ هذا الابن لم يكن ابنًا حقيقيًا لنوح، فالله يقول في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾[1] وقال عن امرأة نوح ولوط بأنهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2] فامرأة نوح قد خانت زوجها فلم يكن هذا الابن من صلب نوح، فقلت: إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن في هذا ما يؤكد أن صلة العقيدة فوق صلة القربى والنسب، لأن هذا الابن لما لم يؤمن بدعوة أبيه فكأنه ليس ابنًا له فقال العميد: هذا غير صحيح][3].

والدكتور يحكي هنا رأيًا رآه بعض المفسرين (كالحسن البصري[4] الذي قال: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه! وابن جريج[5] الذي يقول: ناداه وهو يحسب أنه ابنه وكان ولد على فراشه وكانت امرأته خانته فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾][6].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٣) د. محمد الدسوقي أيام مع طه حسين، ص١٠٧.

(٤) الحسن البصري (٢٢هـ/١١٠هـ) (٦٤٢هـ/٧٢٨م) تابعي ومتكلم ومحدث ولد في المدينة وتربى في وادي القرى، ثم استقر في البصرة وتوفي بها، من كبار رواة الحديث وأحد الأئمة الزهاد. المعجم الإسلامي: ٢٢٤.

(٥) ابن جريج (٨٠هـ ـ ١٥٠هـ/٦٩٩هـ ـ ٧٦٧م). عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، المكي (أبو الوليد، أو خالد) محدث، حافظ، فقيه مفسر، من آثاره: تفسير القرآن الكريم وغيره. معجم المؤلفين ٣١٨/٢.

(٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٩.

كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين][1].

ويحكي القرطبي (أنه قيل لسعيد بن جبير[2] يقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدًا ﷺ أنه ابنه وتقول: إنه ليس ابنه! نعم كان ابنه، ولكن كان مخالفًا في النية والعمل والدين. ثم عقب القرطبي بقوله: وهو الصحيح في الباب إن شاء الله لجلالة من قاله)[3].

فالعجب من الدكتور طه حسين كيف ترك رأي الجمهور مع وضوحه ووجاهته ومال إلى رأي غريب!

لكن العارف بشخصية الدكتور لا يناله شيء من الدهشة، لأنه يعلم أن الدكتور كان مولعًا بالخلاف وإثارة القلاقل من حوله بغية لفت الأنظار إليه، هو الذي اعترف بذلك حين قال: (أنا قلق دائمًا، مقلق دائمًا، ساخط دائمًا، مثير للسخط من حولي)[4].

ولقد أنكر عليه والده رأيه في قضية ابن سيدنا نوح حين جهر به

= المشهورة في التصوف، ومن مؤلفاته: «لطائف الإشارات في تفسير القرآن». أشرف طه أبو الدهب، المعجم الإسلامي، ص٤٧٢.

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١٨.

(٢) سعيد بن جبير يكنى ابا عبدالله مولى لبني والبة بن الحرث من بني أسد بن خزيمة، أخذ الحديث عن ابن عباس وابن عمر، كان على علم بالفرائض، وكان يختم القرآن في كل ليلتين. قتله الحجاج سنة ٩٤هـ، وكان يومئذٍ ابن تسع وأربعين سنة. الطبقات الكبرى ١١/٥ وما بعدها.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٩؛ وانظر للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء. ت: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت، ب.ت، ص٨٥.

(٤) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٧.

المبحث الحادي عشر

رأي الدكتور طه حسين في أصحاب الأخدود

ومن القضايا القرآنية التي تحدث فيها الدكتور طه حسين تعيين المراد «بأصحاب الأخدود».

ففي أحاديث الدكتور مع الدكتور محمد الدسوقي يوم الأربعاء ١٩٧٠/١/١٧م ذكر الدكتور طه الآيات الأولى (٤ ـ ٧) من سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿شُهُودٌ﴾ ثم قال: [هذه الآية يجمع المفسرون على أنها خاصة باليهود الذين اضطهدوا السيد المسيح، وأنا أخالفهم في هذا وأرى أن أصحاب الأخدود هم القرشيون الذين عذبوا المؤمنين وأكرهوهم على ذم الرسول، كما حدث مع عمار فقد أكره وعذب حتى ذم الرسول استجابة لرغبة المشركين. . .][1] والحق أن تعيين أصحاب الأخدود مما اختلف فيه المفسرون؛ فيذكر ابن كثير قوله:

(وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟

---

(١) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١١٤.

عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم، فشق الطغاة لهم شقًا في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقًا)[1].

وإذا تعددت الأقوال في تعيين أصحاب الأخدود فلا حرج أن يميل واحد إلى رأي من الآراء ويرجحه على ما عداه، والرأي الذي رآه الدكتور طه أنهم كفار قريش رأي جديد لم يقل به أحد قبله ـ فيما أعلم ـ ولكنه على جدته ليس ببعيد، خاصة وأن كفار قريش وقفوا موقفًا مشابهًا لصنيع اليهود مع النصارى في الرأي الذي حكاه الجمهور.

لكن العجيب في موقف الدكتور أن يقول هذا الرأي ويصرح به، وهو الذي قص في كتابه (على هامش السيرة) خبر الملك اليهودي ذي نواس[2] وموقفه من نصارى نجران وتخييره لهم بين الدخول في اليهودية أو القتل في الأخاديد التي شقها وأضرم فيها النيران؛ حكى الدكتور ذلك في نهاية الفصل الذي عنونه الدكتور بكلمة البشير[3].

رأي لمستشرق في الموضوع:

يقول المستشرق فنسنك[4] الذي كتب مادة أصحاب الأخدود في

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٨٧١/٦.

(٢) ذي نواس: ملك يهودي حكم بلاد اليمن في بواكير القرن السادس اضطهد النصارى اضطهادًا قاسيًا. راجع: جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٩٢.

(٣) طه حسين: على هامش السيرة. المجموعة الكاملة المجلد الثالث ١٠٣/١ ـ ١٠٥.

(٤) فنسنك ج. مستشرق هولندي (١٨٨٢هـ ـ ١٩٣٩م) تخصص في أديان الشرق ساهم في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، وشارك في تحرير دائرة المعارف، زار العديد من الدول العربية ومنها مصر سنة ١٩٣٨. المستشرقون ٣١٩/٢.

السيرة، وأبان فيها أنه لم يقصد بكتابه العلماء ولا المؤرخين؛ لأنه لم يرد إلى العلم ولم يقصد به التاريخ وإنما هو أديب استوحى نصوصًا أدبية أو تاريخية كما يستوحيها الأدباء في كل زمان ومكان، وأنها صورة طبيعية صادقة لشعوره وهو يقرأ السيرة النبوية الشريفة[1].

وهدف الدكتور من كتابتها كما يقول: (أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الأدب العربي القديم عامة والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة)[2].

أما عن الصورة التي أخرج الدكتور فيها كتابه وصاغ بها أفكاره فيتحدث عنها بقوله: [وأحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الأحاديث ما لم أجد به بأسًا، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين][3].

ولقد خالف الدكتور اتجاهه العام، والذي طالما أعلنه في أكثر من موقف وهو افتتانه بالعقل والتعويل عليه، فإذ به في هذا المُؤَلَّفْ يعمد إلى الأساطير والقصص المخترع فيضمنه كتابه عن حياة النبي ﷺ بدعوى أنه يريد إرضاء العواطف لدى السذج (وهم عامة الناس) الذين يطمئنون إلى ما يرضي خواطرهم ويثير مشاعرهم ولذا فهو يستميح

---

(١) د. سهير القلماوي: ذكرى طه حسين، دار المعارف، سلسلة اقرأ العدد ٣٨٨ سنة ١٩٧٤م، ص١٠٧.

(٢) (٣) طه حسين: على هامش السيرة، المجموعة الكاملة الشركة العالمية للكتاب سنة ١٩٨٥م، ١/١٠، ١٢.

للدين وأنه من وجهة نظره مخدر للعواطف والمشاعر وأن هذه النصوص ـ نصوص السيرة وغيرها من النصوص الدينية ـ مما تأباه العقول وترفض الخضوع له وكأني به يقول: إن الدين يرضي حاجات السذج من الناس، لأن قوامه الأساطير والخيالات من الأشياء التي يستحيل تطبيقها في واقع الناس.

يقول أحد الكتاب المفتونين بالدكتور وبكتاباته:

[أَحَبَ الدكتور أن يقدم إلى قراء العربية صورًا رائعة من الأساطير العربية التي لا تقل في روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية، فكان لنا كتابه «على هامش السيرة» وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم بل هو صورة رائعة قوية كانت مدفونة في بطون كتب السيرة فجلاها بأسلوبه الأخاذ، وإذا هي آيات من الأدب الأسطوري الجميل][1].

وتضمين الدكتور كتابه بالأساطير اتجاه غير سديد أنكره عليه العلماء والمثقفون، لأنه يشكك القراء ويزعزع ثقتهم في أعز ما لديهم بعد كتاب الله وسُنَّة نبيه، وهي سيرة نبيهم التي تمثل الواقع العملي لفهم الكتاب والسُّنَّة.

الدكتور يحاكي المستشرقين:

يقول الدكتور طه حسين في كتاب «الإسلام والغرب» الصادر عام ١٩٤٦م في باريس: [ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين مختلفين، أحد الكتابين لجيل لوميتر[2]

(١) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٨٢، ٨٣.
(٢) لوميتر لم أستدل على ترجمته.

نمط كتاب غربي كتبه «ألفريد أورشيم» الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان: على هامش سيرة المسيح[1].

ومقالة الأستاذ كنون بعد مقالة الدكتور طه تدل دلالة واضحة على أن الدكتور اقتفى أثر المستشرقين في تناوله لحياة الرسول ﷺ.

النقد الموجه لكتاب على هامش السيرة:

يستطيع كل قارئ منصف لهذا الكتاب أن يخرج من قراءته بعدة أحكام لا تقبل الشك، بل هي محل إجماع عند كثير من العلماء.

أولها: أن هذا الكتاب الذي يؤرخ به لحياة الرسول ﷺ لم يحقق شيئًا مما كتب من أجله، [فهو من خلال ثلاثة أجزاء لم يعرفنا بمحمد النبي، بل إننا لم نكد نلمسه أو نعرفه إلا من خلال الشخصيات الثانوية!

فلماذا لم يصور شخصية النبي ﷺ بأبعادها؟ وأين التصوير لذلك الصمود البطل في وجه القوى المعادية؟ وأين معالم حياته الخاصة؟][2].

ثانيها: التوسع والاستطراد في الحديث عن تاريخ المسيحية والصراع بينها وبين اليهودية، كما أنه عني عناية كبيرة بالتاريخ اليوناني والروماني على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خلطًا شديدًا أراد من ورائه أن يوجد وجهًا من التشابه بين الإسلام وبين الأديان السابقة عليه.

ثالثها: [عدم العدالة في توزيع الاهتمام فبينما هو قد أطال وأطال

---

(١) أنور الجندي ـ محاكمة فكر طه حسين، ص١٨٣.

(٢) دكتورة رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص١١٢ بتصرف.

يكن بك غضب علي فلا أبالي»؟[1] أكل هذا من أجل عداوة واحدة هي عداوة أبي جهل وشيطانه الكريه][2].

سادسها: بالرغم من ندرة الصفحات التي خصصها طه حسين للحديث عن الرسول ﷺ وسيرته، فقد جاءت هذه الصفحات محشوة بالمغالطات والتناقضات[3].

ولعل أبرز مثال على ذلك حين تحدث الدكتور عن إلغاء الإسلام لعادة التبني وما كان من زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش[4].

لقد تناول الدكتور القصة كما تناولها أساتذته من المستشرقين يقول الدكتور وهو يحكي القصة:

---

(١) حديث: «**اللَّهم إني أشكو إليك ضعف قوتي...**».
- أورده الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (٩٨٥١) باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل.
- وعلق الهيثمي عليه بقوله: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.
- انظر: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي: بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.
تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت ط سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٣٨/٦.

(٢) د. رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص١١٤.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٨٧؛ د. عبد الهادي: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٨٨.

(٤) زينب بنت جحش: (٣٢ق.هـ/٥٨٩م/٢٠هـ - ٦٤١م) من أمهات المؤمنين، ابنة عمة النبي ﷺ تزوجها بعد أن طلقها زيد بن حارثة وبعد زواجه (عليه الصلاة والسلام) من أم سلمة كانت من المهاجرين الأولين إلى المدينة. المعجم الإسلامي، ص٣٠٦.

[وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة، لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر (سبحانه وتعالى) غير تزويجها منه فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يُظهره ثم يُكنّه ولا يظهره][1].

لكن الدكتور يساير المستشرقين فيرى رأيهم ويقول بتأويلهم، وإن كان الدكتور أعف حديثًا وأقصد مقالاً.

أقوال المستشرقين في زواج النبي ﷺ من السيدة زينب:

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: وفي العام الرابع من الهجرة رأى النبي زينب وكان قد استدعاه زيد إلى بيته، فأعجب بها وأحبها وطلقها زيد ليتزوج منها النبي][2].

ويقول المستشرق الأمريكي واشنطن أرفنج[3]: [ولما كانت زينب في البيت، فقد كانت لا تضع الخمار على وجهها، ووقعت أنظار محمد على جمالها الفاتن، وبدا عليه علامات إعجابه بجمالها، ولما عاد زيد قصت زينب عليه القصة، وعلم زيد بإعجاب محمد بجمال زينب فهرع إلى محمد يعرض عليه رغبته في طلاق زينب...][4].

---

(١) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل ٦٠٩/٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٢٨/١١.

(٣) واشنطن أرفنج ـ مستشرق أمريكي ـ من آثاره: سيرة النبي العربي مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية ١٨٤٩، وله فتح غرناطة إسبانية في نحو ٦٥٠ صفحة ١٨٥٩. العقيقي: المستشرقون ١٣١/٣.

(٤) واشنطن أرفنج: حياة محمد ترجمة وتعليق د. علي حسني الخربوطلي، ط٢ بدون ت، دار المعارف، القاهرة، ص١٧٧، ١٧٨.

رية[1] الدكتور طه حسين وتحدث معه حول الحديث النبوي الشريف وما أثاره الأزهر حول كتاب الشيخ أبو رية: «أضواء على السُّنَّة المحمدية» فقد حملوا عليه حملة شديدة، واتهموا الشيخ بأنه يسعى للتشكيك في السُّنَّة النبوية، وهنا قال العميد: أعتقد أن قصة المعراج موضوعة أما قصة الإسراء فقد جاءت في القرآن الكريم، وأيد الشيخ أبو رية العميد في رأيه وأضاف إليه: إن من دلائل وضع قصة المعراج اختلاف الروايات في ذكر أسماء الأنبياء في كل سماء، وحكاية عودة الرسول إلى ربه أكثر من مرة ليسأله التخفيف عن أمته في الصلاة)[2].

وهذا الكلام من الدكتور طه حسين وصاحبه الشيخ أبي رية يدل على عدم فهمهما الجيد للآيات القرآنية التي تناولت ذكر الإسراء والمعراج فآية الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية[3].

[فيها تصريح بالإسراء وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وفي الإسراء في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسراء إذ المعراج تم معه في رحلة واحدة كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة.

وفي قوله تعالى من سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[4].

---

(١) سبق التعريف به، ص٢٠٣.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص٧١، ١١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١٣ ـ ١٨.

مستشرقًا آخر كـ«غوستاف لوبون» يكتفي بتقرير معتقد المسلمين بصيغة تشعر بعدم رضاه بهذه العقيدة، فقد قال في سياق استعراض المعجزات والخوارق التي أُيد بها رسول الله ﷺ: «فإنه أُثبت للمسلمين الصالحين أنه أسري بمحمد ليلاً على ظهر حيوان خيالي يسمى البراق، والبراق دابة مجنحة لها وجه المرأة وجسم الفرس وذنب الطاووس، ويعتقد المسلمون أن محمدًا اخترق السماوات السبع في معراجه حتى بلغ عرش الإله»[1].

وعلى الرغم من أن لوبون يقرر واقعًا إلا أنه لم يكن أمينًا في وصفه، إذ ترك لخياله العنان حتى إنه جعل للبراق وجه امرأة وجسم الفرس وذنب الطاووس ووصف البراق بداية أنه حيوان خيالي.

وإذا كان هؤلاء المستشرقين يثبتون رحلة الإسراء والمعراج ـ برغم ما يشوب هذا الإثبات من شوائب ـ فإن مستشرقين آخرين ينكرون الحادثة إنكارًا مطلقًا.

[فواحد كـ«موير»[2] قد أنكرها ووصفها بأنها محض خيال، وآخر كـ«مونتجمري وات» قد سكت عنها، وثالث: «رودنسون»[3] لم يتطرق إليها ولكنه أشار إليها في معرض تحليله لطبيعة الوحي عندما أشار إلى أن الرسول كان في أثناء تطبيقه لدرجات الصوفية قد تعدى المراحل

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص١١٣.

(٢) موير، السير وليم (١٨١٩ ـ ١٩٠٥) اسكتلندي عُين أمينًا لحكومة الهند (١٨٦٥ ـ ١٨٦٨) ثم اختير رئيسًا لجامعة أدنبرا (١٨٨٥ ـ ١٩٠٢). المستشرقون ٥٩/٢.

(٣) رودنسون، مكسيم مستشرق فرنسي ولد في باريس سنة ١٩١٥م عمل محاضرًا في عدد من الجامعات العربية والأوروبية، من آثاره: محمد، الإسلام والرأسمالية. المستشرقون ٣٦٠/١.

المبحث الثاني

مذهب الدكتور في الأخذ بالسُّنَّة

من مطالعة ما كتبه الدكتور طه عن السُّنَّة صارت لدي قناعة بأن الدكتور ليس من أهل العلم فيها، إنما معرفته بالسُّنَّة معرفة رجل من المثقفين ممن لهم اطلاع واسع، فعرف من خلال اطلاعه بعض الأحاديث، وتباينت مواقفه من الحديث أخذًا وردًا وتصحيحًا وتضعيفًا، وهذا التباين لم يكن على قواعد حديثية متعارف عليها عند أهل الاختصاص، إنما كان العقل والرأي رائده الأول في رد الأحاديث.

وهذه الرؤية عن منزلة الدكتور في الحديث ليس باعثها التجني والادعاء إنما هي تستند على أصول منها: أن الدكتور في تعامله مع السُّنَّة لم يكن تعامل الهادئ المتمعن إنما كان تعامله معها على امتداد حياته تعامل العاجل المسرع الذي يأتي أبوابها فيطرقها طرقًا سريعًا فيأخذ ما عَنَّ له دون تمهل ثم يمضي معولاً على عقله في الفهم والتصحيح والتضعيف والعمل والترك، وكلمات الدكتور وهو يعبر عن نفسه في مراحل الطلب الأولى يدل على ما ذكرناه من كيفية التعامل يقول الدكتور: [وكان الصبي ـ يعني نفسه ـ يجلس إلى جانب ذلك العمود، يعبث بتلك السلسلة، ويسمع للشيخ وهو يُلقي دروسه في

قليل ولا كثير، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله، أخذ به وإلا وقف فيه][1].

وهذا الكلام سائغ صحيح لا شيء فيه إذا كان يقصد بالتناقض التعارض والمخالفة، بمعنى أن لا يكون في الحديث مخالفة للقرآن أو لسيرة النبي ﷺ، ولكن الدكتور كان من فهمه لهذا الشرط أن رد أحاديث من السُّنَّة؛ لأنها أثبتت أشياء لم يرد لها في القرآن ذكر خاصة الأمور المتعلقة بالغيبيات، كرده للجزء المتعلق بأشراط الساعة من حديث جبريل، وهذا فهم عجيب لم يفهمه أحد من العلماء من هذا الشرط[2].

وإنما كان مفهومهم لمخالفة الحديث للقرآن أن يخالفه مخالفة لا تقبل شيئًا من التأويل وذكروا لذلك أمثلة:

[فمثال مخالفة صريح القرآن الحديث القائل: «ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء» فإنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3].

ومثال ما فيه مخالفة لصريح السُّنَّة المتواترة مثل: «**إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث**» فإنه مخالف للحديث المتواتر: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[4].

ومثال المخالف للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسُّنَّة: «من

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٣٨.

(٢) سأقف مع هذا الحديث وقفة تفصيلية بعد ذلك بحول الله وقوته.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٤) رواه مسلم رقم (٢) في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ. راجع صحيح مسلم بشرح النووي ٦٦/١.

إلى الخلافات السياسية بين الشيعة والسُّنَّة أو بين الأمويين والعباسيين من غير ارتكاز على قاعدة اللَّهم إلا تحكيم العقل أو الهوى، ولقد توسع الدكتور في هذا المنحى مع اعتبار المحدثين له[1] حتى رد أحاديث كثيرة جاءت في الصحيحين دون أن تكون له حجة قوية إلا أنه «يشك أعظم الشك» «أو يكاد يقطع» بأنها من اختلاق فريق على آخر، مع أن هذه الكلمات في مجال البحث العلمي لا قيمة لها، ولعل هذا الكلام يقودنا إلى نقطة أصيلة في تعامل الدكتور طه مع السُّنَّة المطهرة وهي نقطة رد الحديث الصحيح بالعقل.

* موقف الدكتور من رد الحديث بالعقل:

للدكتور مواقف كثيرة رد فيها أحاديث وردت في كتب السُّنَّة وخاصة في الصحيحين، دون أن تكون له قواعد يحتكم إليها ولعل الدكتور في ذلك يحاكي بعض أترابه ومعاصريه أمثال الأستاذ أحمد أمين[2] في فجر الإسلام وضحاه بأجزائه الثلاثة، وكذلك أبا رية في كتابه أضواء على السُّنَّة المحمدية، إذ ردا أحاديث كثيرة وردت في أصح كتب السُّنَّة ـ البخاري ومسلم ـ اعتمادًا على تأويلات عقلية أوإن شئت فقل: على أهواء نفسانية.

---

(١) انتبه المحدثون إلى أن من علامات الوضع في المتن. موافقة الحديث لمذهب الراوي كأن يروي رافضي حديثًا في فضائل أهل البيت أو مرجىء حديثاً في الإرجاء، ونبهوا على ذلك.

(٢) أحمد أمين (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م) عضو المجمع اللغوي بالقاهرة، تولى القضاء بمصر، ودرّس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورأس لجنة التأليف والترجمة، وأصدر مجلة الثقافة، من آثاره: فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، فيض الخاطر وغيرها. معجم المؤلفين ١/١٠٦.

أهل الاختصاص في المسألة التي يتحدث عنها الحديث النبوي، فإن كان الحديث يتحدث في الطب فإجماع الأطباء يكون هو المقصود بالعقل، وإن كان الحديث النبوي يبحث في التشريع فإجماع علماء التشريع هو المقصود بالعقل][1].

ومن هذا يفهم أن اختلاف أهل الاختصاص لا يقضي بوقف العمل بالحديث أما في حالة الإجماع على أمر يعارض الحديث [فينظر هل هذا الحديث مما يحصل من التجارب البشرية، فإن كان كذلك توقف العمل بالحديث إلى أن تستجد وسائل جديدة تلغي الإجماع السابق، أو يكون لمعنى الحديث النبوي معنى مخالف لإجماع أهل التخصص فيبحث عنه][2].

ومما ينبغي ملاحظته أن العقول تتحول وتتغير فما تنكره العقول اليوم ربما يكون سائغًا مقبولاً في الغد، وكثير مما كان الناس يظنونه في القديم في حكم المستحيل أصبح اليوم واقعًا ملموسًا.

[والذين ينادون بتحكيم العقل في صحة الحديث أو كذبه، لا نراهم يفرقون بين المستحيل وبين المُسْتَغْرَب فيبادرون إلى تكذيب كل ما يبدو غريبًا في عقولهم، وهذا تهور طائش ناتج عن اغترارهم بعقولهم من جهة، ومن اغترارهم بسلطان العقل ومدى صحة حكمه فيما لا يقع تحت سلطانه من جهة أخرى ونحن نرى أن أكثر ما يستندون إليه في تكذيب ما صححه الجمهور، إنما هي أحاديث تتعلق، إما بأخبار الأمم الماضية وإما بالأمور الغيبية][3].

---

(١)(٢) المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع، ص٣٦.

المبحث الثالث

التشكيك في السُّنَّة ورواتها

دأب الدكتور في حديثه عن الخلفاء الراشدين على التشكيك في الأحاديث والأخبار التي تناولت هذه الفترة، وبنى هذا الشك على أن حب المسلمين لخلفائهم حبًا يكاد يصل لدرجة القداسة هو الذي دفعهم على الكذب لهم كما كذب كثير من الصحابة لرسول الله ﷺ (!!) ونظرًا لخطورة الدعوى كان من الضروري إثبات نصوصها والوقوف عليها ببيان مصداقيتها من عدمها، يقول الدكتور وهو يتحدث عن تاريخ الشيخين ـ أبي بكر وعمر ـ: [وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روي من هذه الأحداث وأكاد أقطع بأن ما كتب من تاريخ هذين الإمامين العظيمين، ومن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامهما، والتي شقت للإنسانية طريقًا جديدة كل الجدة. فالقدماء قد أكبروا هذين الشيخين الجليلين إكبارًا يوشك أن يكون تقديسًا لهما، ثم أرسلوا أنفسهم على سجيتها في مدحهما والثناء عليهما، وإذا كان من الحق أن النبي ﷺ نفسه قد كذب الناسُ عليه وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس فلا غرابة في أن يكون إكبار صاحبيه

ضابطة نقلت حديث رسول الله وأحوال أصحابه بعناية فائقة ودقة متناهية [والتاريخ يروي لنا ما كان يحفظه أبو هريرة وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وعائشة أم المؤمنين التي كانت آية من آيات الذكاء والحفظ، وعبدالله بن عباس الذي اشتهر بسرعة حفظه، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة، وقد سمع قصيدة لابن أبي ربيعة[1] عدتها ثمانون بيتًا فحفظها من المرة الأولى وفي الصحابة أمثاله كزيد بن ثابت الذي حفظ معظم القرآن قبل بلوغه، وتعلم لغة اليهود في سبعة عشر يومًا... وفي التابعين نافع مولى عبدالله بن عمر[2] الذي لم يخطئ فيما حفظ وأجمع النقاد على دقة حفظه وفيهم محمد بن سيرين[3]، وسعيد بن المسيب[4]، وابن شهاب الزهري[5] حفاظ عصرهم وغيرهم

---

(١) عمر بن أبي ربيعة: شاعر عربي ولد بمكة عام (٢٣هـ ـ ٦٤٤م) في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، لقب بشاعر الحب والغزل مات عام (٩٣هـ ـ ٧١١م) راجع: المختار من ديوان عمر بن أبي ربيعة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩، ص٨، ٩.

(٢) نافع: مولى عبدالله بن عمر كان من أوثق الناس حديثًا، روى عن ابن عمر وأبي هريرة وربيع بنت معوذ وغيرهم، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر يعلمهم السنن، مات نافع بالمدينة سنة ١١٧هـ في خلافة هشام بن عبد الملك. راجع: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت، ط١ سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٩٦/٤، ٩٧.

(٣) محمد بن سيرين (٣٣هـ/٦٥٣م ـ ١١٠هـ/٧٢٩م) أبو بكر محمد الأنصاري، فقيه، ومحدث ومفسر، ولد وتوفي في البصرة وكان حجة في تفسير الأحلام. راجع: أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي، ص١٨.

(٤) سعيد بن المسيب (١٥هـ/٦٣٥م ـ ٩٤هـ/٧١٢م) سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة، اشتهر بسعة علمه وفقهه، عمل بالتجارة وتزوج ابنة أبي هريرة رضي الله عنه، قتل على يد الحجاج. راجع: المعجم الإسلامي، ص٣٢٠.

(٥) الزهري: محمد بن شهاب، تابعي من أهل المدينة، أول من دون الحديث ونزل بالشام واستقر بها توفي عام (١٢٤هـ/٧٤٢م) راجع: المعجم الإسلامي، ص٣٠٣.

شاه»[1] اليمني، كما أن كُتَّاب رسول الله ﷺ كتبوا بين يديه الكريمتين بعض الأحكام إلى أمرائه وولاته في البلدان، وأما ما ورد من نهي عن الكتابة فقد كان خشية التباس القرآن بالسُّنَّة، وخوفًا من أن ينشغل الناس آنذاك عن القرآن الكريم، وقد سمح الرسول لبعض المتقنين بالكتابة كما سمح لمن لا يقدر على الحفظ أن يكتب، ثم أبيحت كتابة الحديث، ولهذا كان كثير من التابعين يكتبون بين يدي الصحابة، كما كان عند بعض الصحابة بعض الصحف التي فيها حديث رسول الله ﷺ][2].

ومع الحفظ والكتابة قام من علماء المسلمين من عنى بالسُّنَّة وتمحيصها ووقفوا جهودهم وأوقاتهم في خدمتها ووقفوا من الكذابين وقفة جادة هتكوا بها أستارهم وأبانوا فيها عوارهم [ولم يفرطوا إطلاقًا في ضرورة التدقيق الذي لا حد له في رواية الأحاديث، فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[3] وتتمثل هذه القاعدة في أن أخلاق الراوي تعد عاملاً هامًا في الحكم على روايته، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحايث النبوية، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواة الأحاديث هو الذي تطورت عنه

---

(١) أبو شاه: لم تعرف له ترجمة إلا أنه رجل من أهل اليمن. قال النووي في شرح صحيح مسلم ولا يعرف اسم أبي شاه وإنما عرف بكنيته (١٠٩/٩)، أسد الغابة: ١٦٣/٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

بل يعقبها بدعوى أخرى وهي أن أحداث التاريخ الإسلامي مشكوك فيها؛ لأنها من رواية المنتصرين ـ يعني المسلمين!!

* دعوى الشك في التاريخ:

يقول الدكتور في تقريره لهذه الدعوى وهو يؤرخ لحياة الشيخين: [وقدماء المؤرخين من العرب لم يعرفوا من أمر هذه الأحداث الكبرى إلا ما تناقله الرواة من العرب والموالي، فهم إنما عرفوا تاريخ هذه الأحداث من طريق المنتصرين وحدهم، بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلاً أقل ما يوصف به أنه لم يكن دقيقًا، وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين بين فرس وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة فهم سمعوا صوتًا واحدًا هو الصوت العربي وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعًا](١).

وهذه الدعوى يمكن الرد عليها من وجهين:

الأول: [أن الصوت المنتصر كان ضبطًا في نقله عدلاً في روايته، ونحن نتحدى أن يقدِّم أحد منهجًا في تحقيق الأخبار التاريخية كالمنهج الإسلامي](٢).

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٨.

(٢) د. جمال عبد الهادي، د. وفاء محمد رفعت، أ. علي أحمد لبن: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية، دار الوفاء، ب. ت، ص٢٠.

المطلب الأول

شكه في حديث جبريل

حين كان الدكتور يشرح المصطلحات الثلاثة «الإسلام ـ والإيمان ـ والإحسان» في «مرآة الإسلام» استدل ببعض الأحاديث النبوية لإيضاح ما ذهب إليه من معانٍ لهذه المصطلحات، وكان من الأحاديث التي استدل بها حديث جبريل المشهور، وقبل أن يسوق الدكتور الحديث قدم له بقوله ـ: يعقب على حديث سبق استدلاله به من رواية الشيخين عن طلحة بن عبيد الله[1] ـ [ولكن لأبي هريرة حديثًا أجمع من حديث طلحة وإن كنت أخشى أن يكون في آخره شيء من تزيد وقد رواه الشيخان أيضًا قال أبو هريرة: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث**». قال: وما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولا**

(١) الحديث المراد: ما رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**» فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تتطوع...**» الحديث. انظر: الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام حديث رقم (١١) المجلد الأول، ص٦٦.

الساعة لا يستند على شيء، وكل ما برر به هذا الرد أن الأجزاء الأولى تتفق مع ما جاء في القرآن، والجزء الأخير ليس كذلك.

وهذا وأيم الله من البساطة بمكان بحيث لا يماري فيه أحد فمن البدهيات التي يعلمها كل مسلم أن القرآن لم يستقل ببيان كل شيء في الدين مما يحتاج إليه المسلم، سواء في الاعتقادات أو في العبادات أو في المعاملات، وإنما كانت السُّنَّة بجانب القرآن تمثل الأصل الثاني في التشريع [فما كان في القرآن مجملاً أو مطلقًا أو عامًا، فإن السُّنَّة النبوية القولية منها أو الفعلية تقوم ببيانها، فتقيد مطلقها وتخصص عامها وتفسر مجملها، لذلك كان ولا يزال أثرها عظيمًا في إظهار المراد من الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1] وفي إزالة ما يقع في فهمه من شبهة أو خلاف][2].

والعلماء لما تحدثوا عن علاقة السُّنَّة مع القرآن ذكروا لها ثلاثة محاور:

[**أولاً**: ما كان مؤيدًا لأحكام القرآن... موافقًا له من حيث الإجمال والتفصيل، وذلك مثل الأحاديث التي تفيد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج من غير تعرض لشرائطها وأركانها، فإنها موافقة للآيات التي وردت في ذلك كحديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء**

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) د. أحمد محمود كريمة: الاعتداءات الأثيمة على السُّنَّة النبوية القويمة ـ وزارة الأوقاف ـ سلسلة قضايا إسلامية عدد ٥٤، ص٧، ٨ طبعة سنة ١٤٢٠هـ.

دخولها تحت نصوص القرآن ولو بتأويل؟ وذهب صاحب الموافقات وآخرون إلى الثاني، وذهب الجمهور إلى الأول][1].

ولئن أسقطنا الكلام على الجزئية المشار إليها من الحديث، فإنها تقع تحت القسم الثاني من علاقة السُّنَّة بالقرآن، فالقرآن وإن كان قد ذكر أن الساعة وعلمها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فإنه قد ذكر بعض أشراطها: انشقاق القمر في قوله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[2]، قال العلماء: [وإنما كان انشقاق القمر شرطًا من أشراط الساعة؛ لأن الله تعالى ذكره مقرونًا بالإخبار باقتراب الساعة فقال تعالى من سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ الآيات، وقد انشق القمر فعلاً في عهد النبي ﷺ حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله، وانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه][3].

ومن أشراط الساعة التي تحدث عنها القرآن خروج الدابة التي تكلم الناس وتكون لهم فتنة: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾[4].

وكذلك الدخان الذي وردت سورة باسمه في القرآن قال سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾[5].

---

(١) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٣٧٩، ٣٨٠ بتصرف.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

(٣) أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن ـ مكتبة الدعوة ـ ١٤٠٥هـ، ص٢٦١.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٥) سورة الدخان، الآية: ١٠، ١١.

وغاب عنه أنه ﷺ أخبرنا عن غيوب أخرى تتعلق بالحياة البرزخية والحياة الآخرة وما فيها من الحشر والنشر والموقف والصراط والميزان والحساب والشفاعة وتفاصيل ما في الجنة والنار وكلها مما يدخل في نطاق الغيب. فلم يسعنا إلا أن نقول مع المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1]][2].

والذي يفهم من كلام الدكتور طه أنه يرد ما جاءت به السُّنَّة مما لم يرد له ذكر في القرآن مع أن الدكتور يصرح في الكتاب نفسه «مرآة الإسلام» بخلاف ذلك فهو يوضح أن السُّنَّة تفردت بتفاصيل العبادات وبيان كيفية الصلاة والصوم والحج وغيرها فكان من قوله: [ولا بد من أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت إلينا متواترة لا معنى للشك فيها، فقد علمنا بالتواتر أنه ﷺ كان يصلي الصبح ركعتين والظهر والعصر والعشاء كل منهما أربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات، وعلمنا أنه كان يركع مرة في كل ركعة، ويسجد مرتين في كل ركعة، ويجلس بعد كل ركعتين كل هذا في الفرائض المكتوبة، فلا معنى للجدل في ذلك، وعلمنا كذلك ما بين من نصاب الزكاة ما فرض فيها، وعلمنا من القرآن ومن السُّنَّة العملية كيف كان يصوم، وكيف اعتمر وكيف حج فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولاً وبيان النبي العملي لها ثانيًا، وكثير من أعمال النبي وصل إلينا على نحو يقطع الشك، فقد عرفنا كيف كان يصلي صلاة العيدين، وكيف كان يصلي للاستسقاء ولِمَا يعرض من كسوف الشمس والقمر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) د. يوسف القرضاوي: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسُّنَّة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٣٨، ١٣٩ بتصرف.

المطلب الثاني

شكه في حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ

ومن الأحاديث التي ردها الدكتور بلا بينة حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ فقد رده لزعمه أنه من تكلف الرواة تأييدًا لنزعاتهم السياسية، يقول الدكتور وهو يقرر ادعاءه: [والرواة يتكثرون في بعض الأحاديث ويختلفون فيما يتكثرون فيه باختلاف نزعاتهم السياسية، فقوم يزعمون أن النبي ﷺ طلب إلى عائشة في مرضه الذي قبض فيه أن تدعو أخاها عبد الرحمن ليكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف الناس معه عليه، ثم عدل عن ذلك وقال: دعيه فلن يختلف الناس على أبي بكر.

وقوم آخرون يزعمون أنه لم يسم أبا بكر ولم يسم عبد الرحمن، وإنما أراد أن يكتب لأصحابه كتابًا لا يضلوا بعده، فاختلف من كان عنده ذلك الوقت من أصحابه، أراد بعضهم أن يكتب، وأبى بعضهم، وقال ـ وهو عمر فيما يروي ـ: إن الوجع اشتد برسول الله وعندنا كتاب الله. وقد بينت في غير هذا الموضع أني أشك كل الشك في هذا كله، وأكاد أقطع بأنه مما تكلفته الفرق السياسية بأخرة، ولو قد عزم الله لرسوله على أن يوصي

فيوضحها ابن تيمية رحمه الله بقوله: [وأما عمر فاشتبه عليه هل كان قول رسول الله ﷺ من شدة المرض أو كان من أقواله المعروفة؟ والمرض جائز على الأنبياء، ولهذا قال: ما له أهجر؟ فشك في ذلك وما جزم، والشك يجوز على عمر إذ لا معصوم بعد النبي ﷺ فجوَّز أن يكون كلامه من وجع الحمَّى؛ ولذلك ظن أنه لم يمت حتى تبين أنه قد مات، والنبي ﷺ قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن الله يجمعهم على ما أراد كما قال: «**ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»][1].

والدكتور في حواره مع مرتضى الرضوي (الشيعي الذي يتوهم أن رسول الله كان يريد أن يوصي لعليّ بالكتابة) يرد على الشيعة عندما ذكر الحديث ـ موضوع البحث ـ بقوله: [حاشا لعمر أن يقول هذا، وهذا الحديث غير صحيح. فأجابه مرتضى: الحديث الذي يوافقك تأخذ به والذي يخالفك ترفضه وتحكم بعدم صحته][2].

والحق ما قال مرتضى ـ وإن خالفناه في استدلاله بالحديث ـ فالدكتور يصحح من الحديث ما يهواه ويرد منه ما لا يهواه أيًا كان مصدر الحديث ودرجة صحته.

الدكتور طه يرد حديثًا آخر في البخاري:

وعند حديث الدكتور عن الفترة ذاتها ـ فترة مرض الرسول ﷺ الذي مات فيه ـ تعرض لحديث العباس مع علي رضي الله عنهما والذي طلب فيه

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٣٦٢.
(٢) مع رجال الفكر في القاهرة، ص١٥٧.

والحديث الذي رده الدكتور بسهولة ويسر ثابت في البخاري[1] من رواية عبدالله بن عباس[2] رضي الله عنهما: [أن عليًا خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حَسَن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده العباسُ بن عبد المطلب، فقال: أنت والله بَعد ثلاثٍ عبدُ العَصَا، وإني لأرى رسول الله ﷺ سيُتوفى مِنْ وَجَعِه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فَنَسَأَلَهُ فيمن هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا كَلَّمناهُ فأوصى بنا، فقال علي: أما والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يُعطِينَاهَا الناسُ بعدَهُ، وإني والله، لا أسأَلُها رسولَ الله ﷺ].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ٤٩/١١ في الاستئذان، باب المعانقة وقول الرجل كيف أصبحت، وفي المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، انظر: فتح الباري ٤٩/١١ ـ ٥٢ قاله الأرناؤوط في تعليقه على الحديث في جامع الأصول في أحاديث الرسول ٨٥/٤.

(٢) للدكتور طه حسين في ابن عباس رضي الله عنه مقال سنعرض له فيما بعد بحول الله وقوته.

الحديث الذي رواه رواتهم ـ وأن سائرها هالك، وذلك كله في الحديث الذي رواه رواتهم، والذي أكاد أقطع بأنه اخترع بأخرة. مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت له، هو قولهم عن النبي: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى»، قيل: ومن الناجية؟ قال: «**أهل السُّنَّة والجماعة**». قيل: ومن أهل السُّنَّة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»][1].

فالدكتور كما هو واضح في كلامه لم يطعن في الحديث بعلة ظاهرة واكتفى بإصدار حكم مطلق ـ أن الحديث من اختراع المتأخرين ـ مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت عليه. وأرى أن هذا من رد الحديث بالهوى لا بالعقل فالدكتور لم يذكر مبررًا لرد الحديث، وهو حين يحكم على الحديث يطعن في الرواة ويتهمهم بتزييف الحديث على رسول الله ﷺ ولا أدل على ذلك من عبارته الجريئة التي يقول فيها: «مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت عليه».

وقد حقق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط روايات الحديث عند تحقيقه لكتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير الجزري فذكر روايات الحديث وحكم على كل رواية منها، وحتى تتم ضرورة البحث أذكر الروايات وتعليق أهل الاختصاص عليها:

* **الرواية الأولى**: عن معاوية بن أبي سفيان قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «**ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين**

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٧٨، ٢٧٩.

مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[1] أخرجه الترمذي[2].

ولقد تكلم بعض العلماء في هذا الحديث من ناحية الإسناد كالإمام ابن حزم لما ذكره وذكر معه حديث: «**القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة**» عقب بقوله: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف من لا يقول به[3].

وتكلم العلماء فيه أيضًا من ناحية المتن يقول د. القرضاوي: في متن هذا الحديث إشكال من حيث إنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس... أسوأ من اليهود والنصارى في مجال التفرق والاختلاف، حتى إنهم زادوا في فرقهم على كل اليهود والنصارى.... ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها ـ إلا واحدة

---

(١) راجع: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٢/١٠ ـ ٣٤.

(٢) رقم (٢٦٤٣) في الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف. أقول: ولكن يشهد له معنى الحديثين اللذين قبله، فهو بهما حسن. قاله الأرناؤوط.
تعريف الحديث الحسن: «هو ما اتصل سنده بنقل العدل الذي خف ضبطه عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة» والمقصود من قول الترمذي: حديث حسن صحيح أن للحديث أكثر من إسناد، فالمعنى حسن باعتبار إسناد صحيح باعتبار إسناد آخر، فكأن الترمذي بهذا اللفظ يشير إلى الخلاف بين العلماء في الحكم على هذا الحديث، أو لم يرتجح لديه الحكم بأحدهما. راجع: د. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ط٨، ١٤٠٧هـ، ص٤٥، ٤٨ بتصرف.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل بتحقيق: د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة، دار عكاظ، جدة، ٢٩٢/٣.

يقول جوينبل[1]: [وفي القرون الأولى التي تلت وفاة الرسول ﷺ عظم الخلاف بين المسلمين على جملة من الآراء في مسائل تختلف طبائعها أشد الاختلاف، وعملت كل فرقة على تأييد رأيها على قدر ما تستطيع بقول أو تقرير منسوب إلى النبي، ومن استطاع أن يرد رأيه إلى أثر من آثار النبي فهو على الحق من غير شك ولهذا كثرت الأحاديث الموضوعة المتناقضة أشد التناقض في سنة محمد][2].

وكلام المستشرق على ما فيه من إغراق وتهويل يتوافق مع موقف الدكتور ورده لهذا الحديث.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) جوينبل (١٢١٦ ـ ١٢٧٧هـ/١٨٠٢ ـ ١٨٦١م). تيودور ـ فيلم جان. مستشرق هولندي عين مبشرًا بروتستانتيًا في إحدى ضواحي ليدن وتضلع في العربية حتى صار أستاذًا في جامعة ليدن إلى سنة وفاته. خير الدين الزركلي، الأعلام ٢/٩٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: حديث ٧/٣٣٢.

بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟**» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق وفي رواية: «**عقالاً كانوا يؤدونه**» أخرجه الجماعة[1]][2].

أما المنحى العقلي الذي رد به الدكتور الحديث فليس في العقل ما يدفعه ويرده فلقد كان المسلمون حين توفي رسول الله ﷺ كالغنم في الليلة الشاتية المطيرة وأي مصاب أعظم من فقد رسول الله ﷺ وهو قاصمة الظهر ومصيبة العمر كما قال أبو بكر ابن العربي[3] في كتابه

---

(١) رواه البخاري (٢١٧/١٣) في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وفي الزكاة، باب وجوب الزكاة، وفي استتابة المرتدين، باب قتل من أبى قبول الفرائض، ومسلم رقم (٢٠) في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والموطأ (٢٦٩/١) في الزكاة باب ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها، والترمذي رقم (٢٦١٠) في الإيمان باب ما جاء: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»، وأبو داود رقم (١٥٥٦) في الزكاة في فاتحته، والنسائي (١٤/٥) في الزكاة، باب مانع الزكاة.

(٢) ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٥٥٢/٤، ٥٥٣.

(٣) القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣هـ) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي. المعافري، ولد ونشأ بأشبيلية كبرى عواصم الأندلس. من آثاره: العواصم من القواصم، أحكام القرآن. من مقدمة العواصم من القواصم، المكتبة العلمية بيروت، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٠ وما بعدها.

المطلب الخامس

شكه في حديث الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه

ومن الأحاديث التي شكك الدكتور في صحتها رغم وروده في البخاري حديث استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه والذي رواه أنس، ونصه كما في البخاري: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللَّهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»][1].

علق الدكتور على هذا الحديث بقوله: [ولكني أقطع بأن قصة التوسل بالعباس بن عبد المطلب كذبة تقرب بها الرواة إلى بني العباس، وما كان عمر يستشفع بأحد][2].

والدكتور كعادته لا يأبه للحديث ووروده في البخاري حتى يثق في صحته، واعتراضه على الحديث قائم على أمرين:

---

(١) البخاري: صحيح البخاري ـ مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر ٣٣/٢ باب الاستسقاء.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٩٩.

أما راوي الحديث فهو أنس بن مالك بن النضر الذي خدم النبي عشر سنين ودعا له النبي ﷺ بكثرة المال والولد، فولد له من صلبه ثمانون ذكرًا وابنتان، ومات وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولدًا وقيل: نحو مائة وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة[1].

فهل يجوز لصحابي جليل صحب رسول وخدمه مدة ليست بالقليلة أن يكذب في الحديث وأن يحابي في العلم بنسبة شيء من الفضل لأحد تقربًا إلى أحد من أصحاب السلطان.

ولئن كانت صفحة أنس رضي الله عنه في غاية النزاهة والطهارة، فلقد كان الإمام البخاري على هذا النحو في صدقه وأمانته وتحريه في طلب الحديث عن رسول الله ﷺ وحكاية أحوال الصحابة، حتى قال العلماء: [إنه أمضى في جمع كتابه الصحيح وتمحيصه وتأليفه ستة عشر عامًا، وما وضع فيه حديثًا إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين ثم يستخير الله تعالى في وضعه، ولم يخرج فيه إلا ما صح عن رسول الله ﷺ][2].

فكيف يكذب الدكتور الرواة بسهولة ويسر ويتهمهم بالنفاق والمداهنة والتقرب إلى الولاة وغيرهم.

ثم إن الدكتور في وجه الاعتراض الثاني يكبر عمر رضي الله عنه أن يستشفع بأحد، مع أن العلماء لم يروا في هذه الصور ما يشين عمر أو يخدش إيمانه، فعمر استشفع بالعباس وهو حي حاضر يرجى إجابة دعائه والعلماء [يرون من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمنًا

(١) عز الدين بن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة ١/١٧٧.

(٢) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص٤٤٥.

المطلب السادس

شكه في أمانة أبي هريرة رضي الله عنه

ومن الدعاوى التي أثارها الدكتور [طه حسين] وشارك فيها [أبا رية] تشكيكه في أمانة الصحابي الجليل سيدنا ـ أبي هريرة ـ رضي الله عنه في نقله عن رسول الله ﷺ إذ ادعى الدكتور ومن قبله أبو رية أن عمر بن الخطاب كان ينذر المكثرين للحديث وروايته بالعقوبة وأنه [قد أنذر أبا هريرة بالضرب والنفي إلى بلاده التي جاء منها؛ لأنه كان يكثر الحديث، فلما نهاه عمر كف عن رواية الحديث ولم يعد إليها إلا بعد وفاة عمر][1].

والحقيقة أن الطعن في السُّنَّة المطهرة بالطعن على رواتها طريق سلكه المستشرقون قديمًا وحديثًا هادفين من ورائه تشكيك الأمة المسلمة فيما جاءها من ميراث النبي ﷺ.

ولعل الطعن في حملة السُّنَّة من الصحابة وأخصهم سيدنا أبي هريرة من الوضوح بمكان في كتابات المستشرقين الذين يقيِّمون

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢١٣.

الرد على دعوى الدكتور:

بالنسبة لما أشار إليه الدكتور من تهديد عمر بن الخطاب لأبي هريرة رضي الله عنهما فهو يستند إلى رواية ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية [عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس][1].

علق المعنيون بالسُّنَّة على هذه الرواية بقولهم: إن [نهي عمر لم يكن خاصًا بأبي هريرة بل كان منهاجه خوفًا من الوقوع في الخطأ][2].

واستدلوا بكلام لابن كثير رحمه الله بعد أن أورد الرواية المشار إليها قال فيها: [وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير موضعها، وأنهم يتكلون على ما فيها من أحاديث الرخص، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلظ أو الخطأ فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك][3].

يقول ابن كثير: [ونقل إلينا أن عمر أذن له بعد ذلك في التحديث، بعد أن عرف ورعه وخَشيته الخطأ. قال أبو هريرة: بلغ عمر حديثي فأرسل إليَّ فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ قال: قلت: نعم. وقد علمتُ لِمَ تسألني عن ذلك؟ قال: ولِمَ سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «**من كذب علي متعمدًا**

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤١٨/١.

(٢) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ٦٠٧/٥.

(٣) محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أعلام العرب ١٢٦ طبعة ١٩٨٧، ص٢٧٣.

ب ـ وأما بالنسبة لعمر رضي الله عنه فلا يمكن أن يهدده أو يكذبه بعد ذلك؛ لأنه عرف حفظه حين نسي أصحابه، أو عرف سماعه حين لم يسمع أصحابه من الرسول ﷺ][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام، ص٢٧٥، ٢٧٦ بتصرف.

الذين حضروها وشاركوا فيها ثم يدخل إلى شبهته الجديدة بقوله: «وما ينبغي أن ننسى أن من الرواة من كانوا من الموالي»[1] ثم يذكر عبارته التي نقلناها عنه سابقًا.

وإلقاء الشبهة بهذا الوجه فيه كثير من الإجحاف فمن المعلوم أن معظم الذين اشتغلوا وعنوا بالعلوم الشرعية وأخصها الحديث والتفسير كانوا من الموالي، والتشكيك فيهم جملة هدم للدين وطعن فيه.

ذكر الزهري أن هشام بن عبد الملك[2] قال له: من يسود مكة؟ فقلت: عطاء[3]، قال: فأهل اليمن، قلت: طاوس[4]، قال: فأهل الشام؟ فقلت: مكحول[5]، قال: فأهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب[6] قال: فأهل الجزيرة؟ فقلت: ميمون بن

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٣٥.

(٢) هشام بن عبد الملك خليفة أموي مكث في الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأيام، من أكثر خلفاء بني أمية كفاية، استطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموي ويؤخذ عليه إمعانه في الانتقام من العلويين. راجع: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ٣٣٣/١، ٣٣٤.

(٣) عطاء: (٢٧هـ/١١٤هـ) هو عطاء بن أبي رباح، المكي، القرشي مولاهم، كان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج ثم عمي بعد ذلك، أدرك مائتين من الصحابة، كان محدثًا فقيهًا. راجع: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، مصر. ب. ت ١١٤/١.

(٤) طاوس بن كيسان: سكن اليمن وكان صاحب علم وتقى وكان يعد الحديث حرفًا حرفًا، مات بمكة سنة ١٠٦هـ، وكان له يومئذٍ بضع وتسعون سنة. راجع: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ٢٧٢/٤ وما بعدها.

(٥) مكحول الدمشقي: تابعي تعلم بالمدينة واستقر بدمشق، كان صاحب علم وتقى، توفي سنة ١١٨هـ، راجع: الطبقات الكبرى ٣٨٦/٥.

(٦) يزيد بن أبي حبيب: يكنى أبا رجاء، كان مولى لبني عامر بن لؤي من قريش وكان ثقة كثير الحديث مات سنة ١٢٨هـ في خلافة مروان بن محمد. راجع: الطبقات الكبرى ٤١٨/٥.

لسادتهم في السر والعلن، وملازمتهم لهم في الإقامة والسفر، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبدالله بن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه، ويسمي المحدثون رواية الشافعي عن مالك عن نافع، عن ابن عمر: سلسلة الذهب][1].

ثم إن علماء الحديث لم يهملوا أمر الموالي من الرواة في مصنفاتهم فحين كتبوا في «معرفة الرواة» جعلوا من ذلك مبحثًا خاصًا عنونوه بقولهم: «معرفة الموالي من الرواة والعلماء» بل إنهم لم يكتفوا بالمعرفة المجردة فحسب وإنما ميزوا بين الموالي على اختلاف أنواعهم فذكروا أن أنواع الموالي ثلاثة، وهي:

[أ ـ مولى الحِلْف، مثل: الإمام مالك بن أنس الأصبحي التيمي، فهو أصبحي صَلِيبةً[2]، تيمي بوَلاء الحِلْف وذلك لأن قومه «أَصْبَح» موالي لتيم قريش بالحِلْف.

ب ـ مولى العَتَاقة، مثل: أبو البَخْتَري الطائي التابعي واسمه سعيد بن فيروز، وهو مولى طيء، لأن سيده كان من طيء فأعتقه.

ج ـ مولى الإسلام، مثل: محمد بن إسماعيل البخاري الجُعْفي؛ لأن جده المغيرة كان مجوسيًا فأسلم على يد اليَمَان بن أَخْنَس الجُعْفي، فنُسِبَ إليه][3].

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦م، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) صليبة، أي: من صلبهم ونسبهم.

(٣) د. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، ص٢٣٠.

المبحث الرابع

قبوله للروايات الضعيفة

لم يتردد الدكتور في إثبات روايات ضعيفة والاستدلال بها على أنها روايات صحيحة مع أن المحدِّثين لم يسكتوا عن تلك الروايات، إلا أن الدكتور قد جعل من الهوى حكمًا في حديث الرسول ﷺ وأخبار أصحابه فما وافق هواه أثبته وإن كان ضعيفًا، وما خالف هواه رده وإن كان في الصحيحين!

فمن الأحاديث الموضوعة التي أثبتها لأنها وافقت هواه، حين كان يستدل على شدة عمر بن الخطاب على نفسه وآل بيته إثباته لقصة أبي شحمة وضرب عمر له حتى الموت.

يقول الدكتور: [وقصة عمر مع ابنه عبد الرحمن الأوسط أبي شحمة معروفة رائعة حقًا، تصدِّق ما كان عمر يوصف به من أنه لم يكن يخاف في الله لومة لائم، فالرواة يتحدثون أن ابنه هذا كان بمصر، وأنه شرب الخمر مع صاحب له، ثم ندما، فأقبلا إلى عمرو بن العاص يطلبان إليه أن يطهرهما بإقامة الحد عليهما، وكره عمرو أن يقيم الحد على ابن أمير المؤمنين بمشهد من الناس فضربه

رويت عنهم فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم.

هذا هو الغريب الذي استوقفنا فأنكرناه ومضينا في تمحيصه فطابق التمحيص ما قدَّرناه][1].

وأخذ الأستاذ العقاد يستعرض الدلائل ـ التي يرد بها هذا الوجه من القصة ـ من سيرة عمر نفسه، وبين أنه لم يكن يسارع إلى إقامة الحدود حتى يتبين، وكان يدرأ الحدود بالشبهات، وكان يكره القسوة عند إقامة الحد، ورضي الأستاذ العقاد رواية عبدالله بن عمر الذي يحكي فيها خبر أخيه عبد الرحمن وليس فيها أمر هذه القسوة، ثم أتبعها بقوله: [هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة فالذي يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه، ولا زيادة، ولا سيما الزيادة... التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه][2].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

ولم يمت من جلده][1].

وكان من تعقيب ابن الجوزي على الرواية قوله: [قلت: ولا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر، وإنما شرب النبيذ متأولاً وظن أن ما شرب منه لا يسكر، وكذلك أبو سروعة (صاحبه) وأبو سروعة من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه على أنفسهما المفرطة فأسلماها إلى إقامة الحد، وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده فليس ذلك حدًا، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا، وإلا فالحد لا يكرر.

وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدوا فيه وأعادوا فتارة يجعلون هذا الولد مضروبًا على شرب الخمر، وتارة على الزنا ويذكرون كلامًا مرققًا يبكي العوام، لا يجوز أن يصدر من مثل عمر.

وقد ذكرت الحديث بطرقه في كتاب الموضوعات ونزهت هذا الكتاب عنه][2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٦٩.

المسلمين»[1].

ثم يقول الدكتور: فإذا صح هذا الحديث، وأكبر الظن أنه صحيح...][2].

فالحديث فعلاً صحيح لوروده في كتب السُّنَّة الصحيحة ولكن الدكتور لم يصححه بقاعدة حديثية ولا بالنظر إلى رواته وإنما اعتمد على الظن وحده.

والمرء يعجب للدكتور في اضطرابه وتخبطه إذ يقول كلامًا في موضع ثم يعود فينقضه في موضع آخر إما بالقول وإما بالفعل.

ولعل مما يثير العجب في هذا المقام أن نقرأ له وهو يؤرخ للفتنة الكبرى كلامًا يوضح موقفه من الأخبار ورواتها ثم نراه أبعد الناس عن هذا الكلام واقعًا وتطبيقًا.

يقول الدكتور: [فما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من فتنة واختلاف، فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد أن نكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي، والخلفاء، فما ينبغي أن نصدقهم حين يرون ما يروقنا وأن نكذبهم حين يرون ما لا يعجبنا، وما ينبغي أن نصدق بعض

---

(١) الحديث رواه البخاري ٧٤/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما وفي غيرها، والترمذي رقم (٣٧٧٥) في المناقب، مناقب الحسن والحسين، والنسائي ١٠٧/٣ في الجمعة، باب مخاطبة الإمام رعيته وهو على المنبر. انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٣/٩.

(٢) د. طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٥، ١٩٩٦م ٦٠٥/٤.

ويكون آخر إنتاج له، مؤلف في التاريخ هو «الشيخان» والذي صدر في سنة ١٩٦٠م[١].

ومن خلال كتابات طه حسين نستطيع أن نحصر مؤلفاته التاريخية عمومًا في الكتب التالية:

١ ـ على هامش السيرة (ثلاثة أجزاء).

٢ ـ الوعد الحق.

٣ ـ الفتنة الكبرى في جزأين: ١ ـ عثمان، ٢ ـ علي وبنوه.

٤ـ مرآة الإسلام.

٥ ـ الشيخان (أبو بكر وعمر).

٦ ـ أديب.

٧ ـ قادة الفكر.

٨ ـ الأيام.

[وهذه الكتب ذات مناح ثلاثة:

منحى عن الإسلام، وهو الجانب العام، في ظل رجاله، وهو الجانب الخاص، وهذا الشق ينتظم الكتب الأربعة الأولى، وعناوينها تؤكد نزوعها إلى الجانب العام ـ أراد الحياة ولم يرد الأفراد، وعنى بسوق الأحداث وبيان مداها وأثرها ولم يعنه أن تكون لواحد بعينه ـ وثمة ما هو صريح منها في هذه الدلالة العامة، مثل الأول والثاني والرابع... ومنحى عن حياة أخرى غير حياة الإسلام، عن حياة غريبة

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

٣ ـ مرآة الإسلام.

٤ ـ الشيخان (أبو بكر وعمر).

فأما كتاب الوعد الحق فهو يحكي تاريخ الدعوة أيام النبي ﷺ في جانب من جوانبها وهو الحديث عن أتباع النبي من المستضعفين وما كان من إيذاء المشركين لهم، فالكتاب يعتبر مكملاً لكتاب «على هامش السيرة» في تأريخه للعهد النبوي، والدكتور في هذين الكتابين لم يعن بالأحداث التاريخية كما وردت في كتب السابقين، إنما أعطى لنفسه الحرية في الصياغة ونظم العبارات وآثر المعاني على الألفاظ، ولذا عمد إلى أسلوب القصص فسربله لهذين الكتابين.

أما في كتبه التي أرخت لحياة الخلفاء الراشدين (الفتنة الكبرى والشيخان) ومن بعدها «مرآة الإسلام» الذي جعله جولة سريعة في التاريخ الإسلامي كله في هذه الكتب «خرج عن أسلوبه الأول أسلوب القاص إلى أسلوب المؤرخ ولكنه على هذا كان قاصًا وهو يؤرخ، والفرق بين قصِّه هنا وقصِّه هناك أنه لم يترك أسلوبه للتخيل كما تركه هناك ولم يتركه للإملاء الحر كما تركه هناك بل جعل من الأحداث التاريخية هنا مادة قصته»[(١)].

طه حسين وكتابة التاريخ الإسلامي:

[من بداهة القول أن التاريخ يتضمن ثلاثة أشياء: الأشخاص الذين يدور الحديث حولهم بما أوجدوه، الحديث الذي يصور هذا البحث أو

(١) إبراهيم الإبياري: طه حسين المؤرخ الإسلامي، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، ص٩٢.

سمع منا شيئًا فبلغ كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[1] فانظر إلى قوله: «**كما سمعه**» فقد نص على دقة النقل.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سنوا للمحدثين التثبت في الرواية، واحتاطوا في قبول الأخبار، وبناءً على هذا ظهر علم نقد الأخبار، والسؤال عن الرجال (الرواة) ولذلك دونت أخبارهم ورحلاتهم وسنوات ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، كما ظهر علم الجرح والتعديل الذي يتحدث في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره.. وكتب التاريخ سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق[2]، وتاريخ الطبري[3]، أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في نقد الأخبار][4].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٥٩) في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وإسناده صحيح، ورواه أيضًا أحمد وابن ماجه وابن حبان. راجع: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٨/٨.

(٢) ابن إسحاق: أبو عبدالله محمد: مؤلف وثبت في الحديث، كرس جهده لجمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبي، ودون سيرة النبي في كتابين، أولهما: كتاب المبتدأ أو المبتدأ والمبعث، والثاني: المغازي، وقد جمع ابن هشام كتابي ابن إسحاق واستخلص منهما كتابه في السيرة. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ٨٨/١.

(٣) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير المؤرخ العربي ولد سنة ٨٣٩م في آمل من أعمال طبرستان، من أهم آثاره تاريخ الرسل والملوك، وتفسيره المسمى: جامع البيان في تفسير القرآن. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ٦٧/١٥ وما بعدها.

(٤) د. جمال عبدالهادي «وآخرون»: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٣ بتصرف.

تعد على أصابع اليد الواحدة وحين يذكر المصدر يكتفي بذكر أنه نقل عن الطبري أو صاحب الطبقات الكبرى.

فكان الدكتور في هذا كحاطب ليل إذ أخذ كثيرًا من الروايات والحوادث التي اختلقها الرافضة على صحابة النبي (لينالوا منهم) مأخذ الحق الذي ليس بعده إلا الضلال.

وكان للدكتور مسلك غريب تجاه الروايات والأخبار التي لا تتفق مع أفكاره وآرائه، فكان يرد الكثير منها بجرأة غير عادية دون أن يستند إلى قاعدة حديثية أو علم بأخبار الرواة ينال من عدالتهم ويشكك في صدقهم.

أما المحور الثاني والذي جانب الدكتور الحق فيه فهو تفسير الحوادث والحكم عليها، لقد سلك الدكتور في ذلك مسلك الغربيين [الذي يفسر حركة التاريخ تفسيرًا ماديًا ويحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج كما في الفكر الماركسي، أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية من مناخ وجغرافيا واقتصاد كما في الفكر المادي الغربي][1].

أما التفسير الإسلامي للتاريخ [فيقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله، وبحسب سنن معينة يجري الله بها قدره في الحياة الدنيا، والتاريخ من جهة أخرى هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته كلها لا البحث عن الطعام فحسب، ولا المتاع والسيطرة والاستحواذ فحسب، إنما

(١) د. جمال عبد الهادي: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٤.

المبحث الأول

موقفه من تاريخ الشيخين
(أبي بكر وعمر)

تمهيد:

لقد كان كتاب «الشيخان» آخر ما صنفه طه حسين في التاريخ الإسلامي إذ صدر الكتاب عام ١٩٦٠م، وهو حين ألف هذا الكتاب لم يقصد التمدح أو الثناء على هذين العظيمين، وإن كانا للمدح والثناء أهلاً، ولم يقصد سرد الأحداث وتفصيل الوقائع فلقد سبقه إلى هذا الأمر كثيرون وإنما قال موضحًا غايته من هذا البحث بقوله:

[أريد أن أعرف وأن أبين لقارئ هذا الحديث شخصية أبي بكر وعمر رحمهما الله، كما يصورها ما نعرف من سيرتهما وكما تصورها الأحداث التي كانت في عصرهما، وكما يصورها هذا الطابع الذي طبعت به حياة المسلمين من بعدهما والذي كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار وما نجم فيها من فتن.

ويقول الرواة: إن عمر قال عن أبي بكر: إنه أتعب من بعده

الدكتور هذه النتيجة على خليط من الروايات التي تناولت هذه الأحداث، والتي لم يعزو الدكتور حادثة منها إلى مصدره واكتفى بأن يصدر معظم الأحداث بقوله: «ويزعم الرواة»، و«يزعمون»... إلى أن انتهى إلى تلك النتيجة الحاسمة فقررها بقوله: «ومهما يكن من شيء فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت وإن كان المسلمون لم يتشاوروا فيها حتى كان عمر رحمه الله يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها»[1].

وهذا النتيجة التي انتهى إليها الدكتور خاطئة؛ لأنها قامت على روايات لم تمحص من ناحية الثبوت والصحة، أما الصورة التي تمت بها بيعة أبي بكر الصديق ﷺ فكانت بإجماع الصحابة «وكانت عن رضا واختيار، ولم يختلف عليه المهاجرون ولا الأنصار، وأما ما كان من حديث السقيفة يوم وفاة الرسول فكان لحرص الأنصار على تولية من يذود عن المسلمين خاصة وأن المدينة بعد وفاة النبي ستصبح هدفًا للأعداء... لقد بايع عمر أبا بكر وبايعه أبو عبيدة ثم توافد الأنصار على بيعة أبي بكر وتمت له بذلك البيعة الخاصة، من قبل هذا الجمع الذي تواجد في السقيفة وهم الذين يمكن أن نطلق عليهم أهل الحل والعقد آنذاك، ثم كانت البيعة العامة في المسجد بعد أن انتهى الصحابة من دفن النبي ﷺ»[2].

ولا ننفي أنه كانت هناك آراء مختلفة لكنها سرعان ما استجابت لصوت الحق ونزلت عنده.

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٣٤.

(٢) د. حلمي عبد المنعم صابر: نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين ٨٢/١، ٨٣ بتصرف.

يشعر بمفهوم المخالفة أن الناس أجبروا على اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين.

مجافاة أبي بكر لآل بيت النبي ﷺ:

ذكر الدكتور طه حسين أن عليًا رضي الله عنه جفا أبا بكر لهجران فاطمة له لرفض أبي بكر إعطاء فاطمة ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله على نبيه من فدك[1]، وأجابها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، ما تركنا فهو صدقة**»[2].

عقب الدكتور على ذلك بقوله: [فهجرته فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت وكأن عليًا جفا أبا بكر لهجران فاطمة له. ومن أجل ذلك لم يؤذن أبا بكر بموتها بل دفنها ليلاً ـ فيما يزعم الرواة ـ ثم كان صلح بعد ذلك بين علي وأبي بكر][3].

والحق أن الدكتور ليس أول من ردد تلك المزاعم، فلطالما رددها الشيعة وأرغوا حولها وأزبدوا قاصدين من ورائها النيل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه وليس أدل على ذلك من قول المجلسي[4] أحد

---

(١) فدك: قرية بخيبر، وقيل: بناحية الحجاز، فيها عين ونخل أفاء الله على نبيه محمد ﷺ منه. (لسان العرب ٤٧٣/١٠).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري ٢٠٩/٤ ـ ٢١٠ وأوسع منه في كتاب المغازي بباب غزوة خيبر من صحيح البخاري ٨٢/٥.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص٣٩.

(٤) المجلسي: هو الملا محمد باقر بن محمد تقي المجلسي ولد سنة ١٠٣٧هـ، ومات سنة ١١١٠هـ من ألد أعداء السُّنَّة وخصومهم، ولم ير مثله في الشيعة المتأخرين سليط اللسان بذيئًا فاحشًا، يسمونه «خاتمة المجتهدين» أو «إمام الأئمة في المتأخرين» له مصنفات كثيرة منها كتاب «بحار الأنوار» وفيه جمع لعلوم شتى وله كتب كثيرة في العربية والفارسية، إحسان إلهي ظهير: الشيعة وأهل البيت: إدارة ترجمان السُّنَّة، باكستان، ط٦، ١٤٠٤هـ ص٣٧.

وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1] ثم كيف يقال: إن فاطمة هجرته فلم تكلمه حتى ماتت! ومتى كان في هذا العهد النساء تكلم الرجال أو تختلط بهم][2].

وقال ابن تيمية[3] في منهاج السُّنَّة (١٥٧/٢): «إن الله صان الأنبياء أن يورثوا دنيا، لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وورثوها لورثتهم، ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه ومنهم عائشة بنت أبي بكر وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته....»[4]، وقال في موضع آخر: (وقد تولى عليّ بعد ذلك وصارت فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس شيئًا من ميراثه)[5].

أما مغاضبة عليّ لأبي بكر، وأنه دفن فاطمة ليلاً ولم يؤذن أبا بكر بموتها لئلا يصلي عليها فهذا مما كذبه غير واحد من علماء الشيعة أنفسهم ـ والذين أنشأوا هذه الفرية ابتداء.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) د. حلمي صابر: نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين ٩٨/١، ٩٩.

(٣) ابن تيمية: (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام... ابن تيمية الحراني، محدث، حافظ، مفسر فقيه مجتهد مشارك في أنواع العلوم من مصنفاته، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ومنهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، وغيرها كثير. [عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٦٣/١].

(٤) نقله عنه محب الدين الخطيب في تحقيقه لكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي، ص٥٠، ٥١.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنَّة النبوية (٢٣٠/٣) نقلاً عن: العواصم من القواصم تحقيق: محب الدين الخطيب، ص٥٠، ٥١.

وعمر يعزيان عليًا ويقولان: يا أبا الحسن، لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله][1].

لعل في هذه الكلمات ما يدحض هذه الفرية ويردها.

* سياسة أبي بكر ساذجة في نظر الدكتور طه:

حين تحدث الدكتور عن سياسة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الأموال التي كانت ترد عليه وصفها بأنها كانت ساذجة كل السذاجة فكان من قوله: (وكانت الأخماس ترد على أبي بكر ـ رحمه الله ـ في حروب الردة، وفي بدء الفتح كانت سياسته فيها ساذجة كل السذاجة يسيرة كل اليسر، كان يحفظ منها ما يؤدي به حق الله من أخماس الغنائم، كما بينه في الآية الكريمة من سورة الأنفال: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[2] ويقسم سائرها على المسلمين قسمة سواء، لا يفرق بين الناس مهما تختلف منازلهم. وكان يسوي في هذه القسمة بين الأحرار والأرقاء)[3].

جاء وصف الدكتور لصنيع أبي بكر رضي الله عنه بالسذاجة عندما قارن بين فعله وفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأمر ذاته وكأنه يقلل من فعل أبي بكر ويوهن من قدره في سياسة الأمور فهو الذي وصف أبا بكر بقوله: (ولم يكن لأبي بكر تجديد في سياسته الداخلية. إن صح

---

(١) إحسان إلهي ظهير، الشيعة وأهل البيت، ص٧٦، ٧٧ بتصرف.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص١٦٧.

وهذا التهوين من قدرات أبي بكر لم يتفرد به الدكتور إنما سبق إليه كثير من المستشرقين فها هو بول[1] الذي كتب مادة أبي بكر في دائرة المعارف الإسلامية ـ التي كان الدكتور يكثر الرجوع إليها كما تحدث في بعض كتبه ـ يقول عن أبي بكر:

«لم يأت أبو بكر بآراء أو مبادئ جديدة، بل تمسك كل التمسك بآراء النبي ﷺ، وحافظ على كل ما أمر به صديقه أو أشار إليه. بهذا استطاع أن يؤلف بين الصحابة رغم النفور الذي كان بينهم وأن يستخدمهم لصالح الجماعة المسلمة، وأصبح بعدم ابتكاره هذا وبما كان له من خلق جمع بين البساطة والحزم صورة من محمد»[2].

الحكم على موقف أبي بكر:

وللحكم على موقف أبي بكر رضي الله عنه والذي اضطرب الدكتور في الحكم عليه فعده مرة من مميزاته ومرة من بساطته وسذاجته، أذكر موقف عمر ومعايير التفضيل في العطاء عنده ثم أعقب ذلك بأقوال العلماء في الحكم على الموقفين جميعًا.

[روى أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كان عمر يحلف على أيمان ثلاث، يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبدًا مملوكًا، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه

(١) بول: مستشرق فرنسي (١٨٨٩ ـ ١٩٤٧) ولد بالجزائر وتعلم بها وله اهتمام كبير بالإسلام. المستشرقون ١/٢٨٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أبي بكر ١/٣١٣.

لرأي عمر ﷺ سنده: «لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه» و«الرجل وبلاؤه في الإسلام» ولهذا الرأي أصل في الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء، وكان لرأي أبي بكر ﷺ سنده كذلك: «إنما أسلموا لله وعليه أجرهم، يوفيهم ذلك يوم القيامة، وإنما هذه الدنيا بلاغ» ولكننا لا نتردد في اختيار رأي أبي بكر، إذ كان أقمن أن يحقق المساواة بين المسلمين ـ وهي أصل كبير من أصول هذا الدين ـ وأحرى ألا ينتج النتائج الخطرة التي نشأت عن هذا التفاوت][1]، ويعلق الدكتور القرضاوي على رأي سيد قطب رحمه الله بقوله: [ورغم وجاهة رأي الشهيد سيد قطب، وميل كثير من المعاصرين إلى التسوية، ورغم ميل عمر في أواخر أيامه إلى ذلك، نرى أن القواعد التي بنى عليها عمر التفضيل بين الناس في العطاء: قواعد عادلة في الجملة. قد نتوقف في تفضيل الناس على أساس السوابق في الإسلام والبذل في سبيله من الهجرة والجهاد، فهذا ينبغي أن يكون جزاؤه عند الله عز وجل.

أما مبدأ: (الرجل وغناؤه... والرجل وحاجته) فلا ينبغي أن ينازع فيهما فلا يسوى بين العامل والخامل وبين الذكي والبليد وبين المجتهد والكسلان، كما لا يسوى بين من تقل حاجته وبين من تكثر حاجته، فحاجة العِزب أقل من حاجة الآهل (المتزوج) وحاجة من لا عيال له أقل من حاجة ذي العيال...][2].

والحق أن كلًّا من الخليفتين مصيب فيما ذهب إليه فالعلماء

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، ط٢، ب. ت، ص٢٢٩.

(٢) د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية، ص١٣٥، ١٣٦.

مسلمًا (مالك بن نويرة)[1] بشهادة المسلمين العدول، كما زعم ـ ما يفهم من سياق المعنى ـ أن أبا بكر الصديق ﷺ حينما رأى خالدًا أسرع بعد قتل هذا الرجل، إلى التزوج من امرأته، لم يحس كما أحس عمر ﷺ أن خالدًا لم يقتل مالك بن نويرة في ذات الله، وأنه لم يثر كما ثار عمر، وأنه لم يستجب لرأي عمر بضرورة عزل خالد من قيادة الجيش][2]، والمطالع لما كتبه الدكتور في تاريخ الإسلام أنه لم يتحر ضبط النفس والإنصاف حين يتحدث عن خالد بن الوليد ﷺ، فما يصفه الدكتور إلا بالمتكبر المغرور، المسرف في القتل، الحريص على النساء، ويقف الدكتور من الروايات التي تصف خالد بالعفة والطهارة موقف المتشكك المرتاب وبالعكس يقف من الروايات التي تنال من خالد موقف المصدق المثبت فحين يذكر الروايات التي تذكر قتل مالك بن نويرة يبدأها بقول: [يزعم المؤرخون أن خالدًا أمر بحبس هؤلاء النفر ـ مالك بن نويرة وبعض أتباعه من أهل الردة ـ وكان ذلك في ليلة شديدة البرد يزداد بردها شدة كلما تقدم الليل. فزعم الرواة أن خالدًا أمر مناديًا أن ينادي في الناس: أن أدفئوا أسراكم؛ ففهم من كان عندهم هؤلاء أن هذا أمر بقتلهم (كان الحرس من كنانة) وكان الإدفاء في لغة كنانة معناه القتل، فقتلوا مالكًا وأصحابه، وسمع خالد الصياح،

---

(١) مالك بن نويرة: هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع التميمي اليربوعي، أخو متمم بن نويرة. قدم على النبي ﷺ وأسلم واستعمله رسول الله ﷺ على بعض صدقات بني تميم، فلما توفي النبي ﷺ وارتدت العرب وظهرت سجاح وادعت النبوة صالحها إلا أنه لم تظهر عنه ردة. قتله خالد بن الوليد متأولًا في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ جميعًا. [ابن الأثير الجزري: أسد الغابة ٤/٢٥٩].

(٢) د. جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٢٤.

في نفس كل منهما فقال: [وقد كلم أبو قتادة[1] كبار أصحاب النبي ﷺ وفيهم عمر، وأراد أن يدخل على أبي بكر ليشكوا إليه خالدًا، فأبى أبو بكر لقاءه غضبًا عليه؛ لأنه ترك الجيش عن غير إذن من أميره، وقد دخل عمر على أبي بكر فكلمه في قتل مالك وقال له: إن في سيف خالد رهقًا فاعزله. فقال أبو بكر تأول فأخطأ، ولما ألح عليه عمر في عزل خالد قال: إليك عني يا عمر! ما كنت لأشيم (لأغمد) سيفًا سلّه الله على الكافرين.

ثم أرسل أبو بكر إلى خالد يستدعيه، فأقبل خالد إلى المدينة ودخل المسجد وجماعة من أصحاب النبي فيهم عمر، جالسون، وكان في منظر خالد شيء من العجب، كان عليه قباء (ثوب تجتمع أطرافه) يظهر فيه صدأ الحديد وقد غرس في عمامته أسهمًا. فلما رآه عمر قام إليه فانتزع هذه الأسهم من عمامته وحطمها، وقال: قتلت رجلاً مسلمًا ثم نزوت على امرأته! وكان خالد قد تزوج امرأة مالك إثر قتله.

قال الرواة: وكانت العرب تكره مثل هذا الزواج في الحرب، والمحقق أن خالدًا تزوج أم تميم بعد قتل زوجها، وما أحسبه تزوجها قبل انقضاء عدتها إلا أن يكون اعتبرها من السبي فاستبرأها كما تستبرأ الإماء ثم أعتقها وتزوجها.

ودخل خالد على أبي بكر فقص عليه خبره، فعذره أبو بكر في قتل مالك وعنفه في تزوج امرأته ورده إلى جيشه. ويقول الرواة: إن

---

(١) أبو قتادة الأنصاري: اسمه الحارث بن ربعي . . .بن سعد الأنصاري الخزرجي، فارس رسول الله ﷺ اختلف في شهوده بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، اختلف في وفاته فقيل: مات سنة ٥٤هـ بالمدينة، وقيل: سنة ٤٠هـ بالكوفة. [أسد الغابة ٥/٢٥١، ٢٥٢].

يتجاوز في أمر الدين والمثل العليا. . . ثم إن طه حسين بهذا المدح المزيف لعمر يطعن فيه أيضًا، لأن عمر لم يقم الحد على خالد (أي: بعد ولايته) فهل عمر ﷺ أيضًا تجاوز في حد من حدود الله؟ أم أن عزل خالد من القيادة هو حد قتل المسلم، أم أن خالدًا لم يقتل مالك بن نويرة وهو مسلم، بل لأنه كان كافرًا.

ويشهد بذلك متممًا بن نويرة أخو مالك بن نويرة فقد أورد ابن الأثير أن متممًا بن نويرة أخا مالك قد رثى أخاه بمرثية أعجبت عمر بن الخطاب فقال له عمر: «لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا»[(١)] فقال متمم: لا سواء يا أمير المؤمنين «لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته»][(٢)]، وفي رواية: «لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته»[(٣)] بل [لقد ورد في شرح الحماسة للخطيب التبريزي[(٤)] أن أبا بكر هو الذي أمر خالدًا بقتل مالك، ولم يفعل هذا إلا بما عنده من العلم عن ردة مالك وفساد سريرته وما ترتب على ذلك من فساد علانيته][(٥)].

---

(١) زيد بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو محمد، وهو أخو عمر بن الخطاب لأبيه، وكان زيد أكبر من عمر، أسلم وشهد بدرًا وما بعدها. (البداية والنهاية ٤٣/٥).

(٢) راجع البداية والنهاية ٤٣/٥ في ترجمة زيد بن الخطاب.

(٣) جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان، ص٢٦.

(٤) التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني الخطيب من العلماء المشهورين في فقه اللغة العربية ولد سنة ٤٢١هـ، وأشهر من أخذ عنهم أبو العلاء المعري، من آثاره: شروح لدواوين الحماسة لأبي تمام والمتنبي: (دائرة المعارف الإسلامية ٥٦٧/٤ وما بعدها).

(٥) شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية. نقله من الفارسية إلى العربية غلام محمد بن محيي الأسلمي، اختصره وهذبه السيد محمود شكري الألوسي، حققه وعلق عليه محب الدين الخطيب ب.ن، ب.ت، ص٢٦٤.

لأن الإسلام لا يعرف المحاباة][1].

ولم يكن طه حسين أول من روج هذه الشبهة على أبي بكر وخالد، بل سبقه إليها الروافض فكان مما أخذوه على أبي بكر ﷺ أنه درأ الحد عن خالد بن الوليد أمير الأمراء عنده ولم يقتص منه وذلك حين قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته[2].

ثم إن المستشرقين تلقفوا الشبهة ذاتها وأكثروا من الكلام حولها وجاء الدكتور فنسج على منوالهم.

يقول تسترشتين، ك.ف[3]: [قصد خالد بن الوليد بني تميم، وكان مالك بن نويرة يتزعم بطنًا من بطونها ولما دانت هذه البطون لخالد استسلم مالك أيضًا، بيد أنه أسر، وقتل، وبنى خالد بأرملته، فشكا الناس إلى الخليفة فعل خالد، ويروى أن خالدًا اعتذر عن قتل مالك وسائر الأسرى بأنه كان نتيجة خطأ في الفهم، فقد أمر جنده أن يبذلوا لأسراهم من اللباس ما يستدفئون به قائلاً: «أدفئوا أسراكم» ففهم الأعراب أن المقصود بها «اقتلوا أسراكم».

ومهما يكن من شيء فقد قنع أبو بكر بلومه وأبقاه في منصبه على الرغم من شدة اعتراض عمر][4].

ومن خلال كلام هذا المستشرق يظهر مقدار التوافق بين كلام

---

(١) جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان ص٢٨.

(٢) شاه عبد العزيز الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية، ص٢٦٤.

(٣) ستر ستين. ك. ف: مستشرق سويدي (١٨٦٦ ـ ١٩٥٣) كان له اهتمام عظيم باللغات، فأتقن الفارسية والعربية، شارك في دائرة المعارف الإسلامية وفي عدة معاجم ومجلات، وله اهتمام بالغ باللهجات العامية. (المستشرقون ٢٨/٣).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: خالد بن الوليد ٢٠٢/٨، ٢٠٣.

لحظاته يقظانًا ونائمًا عاملاً ومستريحًا، مقبلاً على عظائم الأمور أو على الهين منها كما فعل عمر][1].

ومرة ثالثة يعظم من الاستغراق في مدح عمر ﷺ فيقول: [وما أعرف أن التاريخ الإنساني كله يستطيع أن يجد لعمر نظيرًا في هذا الضمير الحي الحساس المتحرج المتأثم الذي يخاف على نفسه ما لا يخاف، وينكر من نفسه ما لا ينكر، ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل نفسه إلا أن يكون من أولي العزم][2].

ورغم هذا الإطراء والمديح فقد أساء الدكتور إلى عمر في أكثر من موضع إذ وصفه بالشدة والغلظة غير العادية والتي تخرج بالمرء أن يكون شخصية سوية ولا أدل على ذلك من وصفه له بأنه [كان يشق على نسائه فيفرض عليهن حياة قاسية لا يستحبها النساء؛ كان شديدًا عليهن في الكسوة، وشديدًا عليهن في الرزق، وشديدًا عليهن في سيرته كلها، يدخل عليهن عابسًا، ويخرج عنهن عابسًا، كما قالت إحدى النساء وقد خطبها ذات يوم فامتنعت عليه وكرهت عبوسه وخشونة عيشه][3]، ومن ذلك أيضًا إيراده قصة كذبها الرواة على عمر وهي إقامته حدًا على أحد أبنائه[4]، أوردها غير متشكك فيها كعادته في شكه في كثير من الروايات.

والدكتور خلال عرضه لتاريخ عمر أثار بعض النقاط التي تحتاج

---

(١) طه حسين: من لغو الصيف إلى جد الشتاء، المجموعة الكاملة م١٤ ص٣٠٩.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة م٤ ص٢١٠.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص١٣٣.

(٤) اختلفت الروايات في نوع الحد هل كان حد زنا أم حد شرب للخمر، ولقد تتبع المحدثون هذه الروايات وبينوا كذبها.

ولا ينبغي له أن يفعل خاصة في أمور العبادات والأحكام المقررة من أمور الدين!! فسوق الكلام على هذا النحو يوحي بأن هناك نقصًا في الدين عمل عمر على إكماله والأمر لم يكن كذلك.

فالدكتور نفسه حين أراد أن يفصل ما أجمله من القول السابق بين أن ابتكار عمر (أو اجتهاده كما ينبغي أن يسمى) كان في ظل أصول الإسلام وأنه استند على أدلة قوية.. فكان من قوله:

[فعمر لم يسن للمسلمين حين سن لهم صلاة التراويح في رمضان إلا قليلاً مما طلب الله إلى رسوله[1] فهو إذن ملائم للقرآن أشد الملاءمة وأقواها.

ويقول المحدثون: إن النبي ﷺ قام ليلة في المسجد، وتسامع الناس بذلك، فجعلوا يسرعون إلى المسجد ليشهدوا مع النبي صلاته تلك، فلما كان الغد قام النبي في المسجد قيامه البارحة فكثر الناس، ثم ما زالوا يكثرون بعد ذلك حتى اكتظ بهم المسجد. فلما رأى النبي ﷺ منهم ذلك لم يخرج للناس في الليل بعد صلاة العشاء، واكتفى بالقيام في بيته فلما سأله الناس عن ذلك قال: «**خشيت أن تفرض عليكم وألا تطيقوا ذلك**»[2] فعمر إذن لم يزد على أن عاد إلى

---

(١) أي: من قيام الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾... الآيات [المزمل: ٢، ٣].

(٢) حديث قيام رمضان رواه البخاري ٣/٢٢٠ في صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان ومسلم رقم (٧٦١) في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح. راجع: ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٦/١١٧، ١١٨.

رمضان، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ أشاد بها وإن كان في الوقت نفسه قد بين أنها ليست من الفرائض، ويروى أن عمر كان أول من جمع لها المصلين خلف قارئ من القراء في مسجد المدينة آحادًا أو جماعات][1].

أما ما يتعلق بحد الخمر فلا خلاف بين الأئمة على وجوب حد شارب الخمر، وأن العقوبة المقررة لهذه الجريمة مقدرة شرعًا وثابتة بالسنة الفعلية ولكنهم اختلفوا في مقدار الحد على رأيين.

* **الرأي الأول**: قال بأن حد الخمر أربعون جلدة وما زاد عن الأربعين هو من باب التعزيز [وعمدة أصحاب هذا القول فيما ذهبوا إليه السنة الفعلية الثابتة عن رسول الله ﷺ في شارب الخمر حيث جلده أربعين جلدة لما روي عن علي «جلد النبي ﷺ أربعين وجلد أبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة وهذا أحب إلي»[2] فدل هذا على أن حد شرب الخمر الذي طبقه الرسول ﷺ أربعون جلدة، وفعل النبي ﷺ حجة لا يجوز تركه بفعل غيره ولا ينعقد الإجماع على ما خالف النبي وأبا بكر وعلي رضي الله عنهما فتحمل الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز فعلها إذا رآه الإمام، فأصحاب هذا القول يعتبرون أن الحد أربعون ولا تجب زيادته اقتداء بما فعل رسول الله ﷺ ولولي الأمر زيادته واعتبار أن ما زاد على الأربعين من باب التعزير][3] وهذا الرأي

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تراويح ١٩/٥، ٢٠.

(٢) مسلم: صحيح مسلم ١٣٣١/٣، حديث رقم (١٧٠٧).

(٣) د. معجب بن معدي العتيبي: حقوق الجاني بعد صدور الحكم في الشريعة الإسلامية، طبعة خاصة بالمؤلف، ط١، سنة ١٤١٣هـ، ص٣٣٠، ٣٣١ بتصرف.

ولقد جاءت كلمات المستشرقين موافقه للتصور الإسلامي في هذه المسألة فها هو فنسنك في بحثه عن الخمر في دائرة المعارف الإسلامية عند حديثه عن حد الخمر قال: [أما فيما يتعلق بحد الخمر، فإن الحديث يخبرنا بأن النبي ﷺ وأبا بكر ضرباه بالجريد والنعال أربعين جلدة... وكتب خالد بن الوليد إلى عمر أيام خلافته أن الناس يتورطون في الأشربة المحرمة فاستشار عمر الصحابة فرأوا أن يجعل الحد ثمانين جلدة... وأخذت المذاهب المختلفة برأي عمر وهو ضرب شارب الخمر ثمانين جلدة، فإذا كان عبدًا نقص الحد إلى أربعين... ومع ذلك فقد تشبث الشافعية بما سنه النبي وأبو بكر وعندهم أن حد شارب الخمر أربعون جلدة وعلى العبيد عشرون][1].

مقاسمة عمر للصحابة في أموالهم:

من الأمور التي مدح بها الدكتور الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حرصه على أموال المسلمين وأنه كان في هذا السبيل يحاسب الولاة وربما قاسمهم أموالهم إذا ظهر عليهم ثراء غير مشروع.

وهذه منقبة جليلة لأمير المؤمنين ولا شك ولها في كتب التاريخ شواهد تؤيدها... ولكن الدكتور جعل من تلك المنقبة مدخلاً للطعن في الذمة المالية لصحابة مشهود لهم بالفضل أمثال أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص ﷺ معتمدًا على روايات ـ ربما كانت مكذوبة ـ تنال من أمانة الصحابيين؛ مغفلاً روايات كثيرة تشيد بفضلهما وتبرئ ساحتهما، يقول الدكتور وكأنه يحكي وقائع ثابتة لا مجال للشك فيها: [وقد رأيت أنه ـ أي: عمر بن الخطاب ﷺ ـ قاسم سعد بن أبي وقاص حين

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الخمر ٨/٤٥٦.

فرجل هذا شأنه محال أن يحيف على مال المسلمين فيأخذه بغير حقه، أما أبو هريرة ﷺ فيقول عنه ابن كثير: [وقد استعمله عمر بن الخطاب عليها (البحرين) في أيام إمارته، وقاسمه مع جملة العمال قال عبد الرزاق: حدّثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين. أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال أي عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكن عدو من عاداهما. قال: فمن أين لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي، وأعطية تتابعت عليَّ. فنظروا فوجدوه كما قال. فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله فأبى أن يعمل له فقال له: تكره العمل وقد طلبه من كان خيرًا منك طلبه يوسف عليه السلام، فقال: إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي وأنا أبو هريرة بن أميمة وأخشى ثلاثًا أو اثنين، قال عمر: فهلا قلت: خمسة؟

قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم، أو يضرب ظهري، وينزع مالي ويشتم عرضي][1].

فهذه الحادثة كافية لرد الاتهام الذي رمى به أبو هريرة ﷺ ولقد تورع بعض المستشرقين أن ينال من أمانة الصحابيين فها هو تسترشتين[2] يقول عن سعد بن أبي وقاص: «.... على أن خدمات سعد العسكرية والإدارية الكبرى قدرها عمر حق قدرها. ذلك أنه عندما عهد وهو على فراش الموت إلى ستة من أخلص صحابة النبي باختيار خليفة المسلمين في خلال ثلاثة أيام اختار عمر سعدًا وجعله أحد مشيريه. بل يقال: إنه أبدى أيضًا أنه إذا لم يبايع سعد بالخلافة فإنه

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٦١٤، ٦١٥.

(٢) سبق التعريف به.

المبحث الثاني

دعوى تحريق المسلمين لمكتبة الإسكندرية

من الدعاوى التاريخية التي رُمِيَ المسلمون بها دعوى تحريق مكتبة الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي لها بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص.

ولقد كان للدكتور طه حسين من الدعوى أمر عجيب وغريب فحين كان يدرس في فرنسا وأثناء إعداده لرسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كذَّبَ الدكتور هذه الدعوى ودعوى أخرى تقول: إن عمر بن الخطاب أمر سعد بن أبي وقاص بتحريق كتب للفرس عند فتحه لبلاد فارس كذب الدكتور ذلك كله بقوله:

(ويزعم بلا دليل ـ يقصد ابن خلدون ـ أنه منذ الفتح الإسلامي لفارس أمر الخليفة عمر بإتلاف دور الكتب جميعها بيد أن ذلك ليس من المحقق. ونحن نعتقد أن تلك القصة كقصة إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر خرافة أثبت المستشرقون سخفها نهائيًا)[1] ثم عاد

(١) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب ـ المجلد الثامن، ص٥٥.

عنهما ما زعمه الدكتور من تعصبهما للعرب بل إن الدكتور نفسه كثيرًا ما أشاد بعلم كازانوفا وطرقه في البحث. والعجيب أن الدكتور حين نفى عن العرب تلك التهمة في «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» كان متبنيًا لرأي أستاذه كازانوفا الذي كان يقرأ عليه فصول رسالته هذه بعد الفراغ من إملائها[1]!! وكان رأي الدكتور الأول يمثل اعتقادًا بأن القصة خرافة أثبت المستشرقون سخفها نهائيًا... ثم عدل عن هذه العقيدة في مقاله المشار إليه فقال:

[فلو أنك تستشير العقل وفروضه في أمر هذه الكتب التي يقال: إنها حرقت في مصر وفي فارس لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل بل لمال إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن فليس من الغريب في شيء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت دينًا جديدًا كالدين الإسلامي فهي مؤمنة به إيمانًا قويًا لا تُؤثر عليه شيئًا ولا تزنه بشيء، أقول: ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تُقْدِم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها ولكنها تعلم أنها تمثل دينًا غير الدين الذي أذعنت له وفنيت فيه وهي إن كانت قد فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء المؤرخين الذين يتعصبون لعلمهم وللآثار التاريخية ويكرهون أن يحال بينهم وبين قليل أو كثير من هذه الآثار... فليس على المسلمين جناح أن يكون العرب قد حرقوا خزانة الإسكندرية وأبادوا كتب الفرس[2].

ثم لو سألت العقل واستشرته في أمر هذه الكتب فالعقل لا يكاد يصدق أن مدينة كالإسكندرية كانت العاصمة العلمية للعالم القديم قرونًا

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢١/٣.

(٢) كذب الدكتور الأمرين جميعًا في فلسفة ابن خلدون كما ذكرنا من قبل.

النحوي[1]، كان قسيسًا قبطيًا من أهل الإسكندرية، وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي: النحوي. وكان إسكندرانيًا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية[2] ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية ـ التي لم تكن للعرب بها أنسة ـ ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يومًا: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

---

(١) يوحنا النحوي: (كان حيًا قبل ٤٣هـ/٦٦٤م) مصري إسكندراني، من أساقفة مصر، لما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه وأكرمه، له كتب في الطب والفلسفة منها «الرد على أرسطوطاليس». [معجم المؤلفين ١١٩/٤].

(٢) النصارى اليعقوبية: اسم اشتق من اسم «يعقوب البرادعي» زعيم هذه الطائفة، هذا الرجل الذي ظهر وسط القرن السادس الميلادي في البلاد الرومانية وأخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن «الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثاني ـ أي: أقنوم الابن ـ تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسد معه واحدًا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة». راجع: الإمام محمد أبو زهرة: النصرانية. دار الفكر العربي، مصر، ب.ت، ص١٤٤، ١٤٥.

٤ ـ وأن إحراق الكتب كان أمرًا معروفًا وشائعًا يتشفى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه، وقد ذكروا أن عبدالله بن طاهر أتلف في سنة ٢١٣هـ كتبًا فارسية من مؤلفات المجوس، وحذا حذوه هولاكو[١] التتاري سنة ٦٥٦هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة)[٢].

وقد رد العلماء على هذه الدعاوى بما يدحضها ويردها على أصحابها فقالوا:

(**أما الدليل الأول**، فغير مسلَّم به؛ لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم، بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي، ويعجب بها كل الإعجاب ويحله من نفسه محل الاحترام والإجلال أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالاً يفتدي به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين وهذا منتهى التشجيع للعلم.

ـ **أما الدليل الثاني**: وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح. فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة، ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية المتقدمة، لأنه توفي سنة (١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجي خليفة.

ـ **أما الدليل الثالث**: وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده

---

(١) هولاكو (٦١٤هـ/١٢١٧م ـ ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) فاتح مغولي، حفيد جنكيز خان، احتل بغداد وأطاح بالخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم عام (٥٦٧هـ/١٢٥٨م) هُزمت جحافله أمام المماليك في معركة عين جالوت بفلسطين عام (٦٥٩هـ/١٢٦٩م). [أشرف طه أبو الدهب/المعجم الإسلامي، ص٦٤١].

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢٤٢/١، ٢٤٣.

الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يومًا، وهذا عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية ثم كتابتها بعد ذلك خلوًا عن المصادر والإسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين)[١] والمستشرق كازانوفا يقول في بحث له عن الموضوع ذاته: «العرب وتحريق مكتبة الإسكندرية»[٢] (هناك شيء أجل خطرًا من هذا[٣]، وهو أن الترجمة التي خصصها ابن القفطي ليحيى منقولة كغيرها من كتاب الفهرست هذا الكتاب القيم الذي ألفه محمد بن النديم في أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر للميلاد) ويحدثنا الفهرست بأن يحيى عاش إلى وقت الفتح الإسلامي لمصر وحظي لدى عمر بمكانة رفيعة، ولكنه لا يشير بكلمة واحدة إلى خزانة الإسكندرية وإذن فقد اضاف ابن القفطي قصة الخزانة إلى ما نقل من الفهرست ولعله إنما فصل أسطورة كانت شائعة بمصر في أيامه)[٤].

والأستاذ جريفيني[٥] يكتب مقالاً في الأهرام[٦] ينهى فيه المسألة

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، ص٢٦٨.

(٢) ترجم الدكتور طه حسين هذا البحث ونشره في جريدة السياسة اليومية يوم الأربعاء ٢ رمضان سنة ١٣٤١هـ، ١٨ أبريل سنة ١٩٢٣ بصفحة الأدب، ص٣.

(٣) كان كازانوفا قد ذكر بعض الملاحظات التي ذكرها بتلر فلم أر ضرورة لإعادتها.

(٤) السياسة اليومية في ١٨/٤/١٩٢٣م.

(٥) جريفيني، أوجينو (١٨٧٨هـ/١٩٢٥م) مستشرق إيطالي ولد في ميلانو وفد إلى مصر وعين مديرًا للمكتبة الملكية (١٩٢٠ ـ ١٩٢٥) وظل في وظيفته حتى وفاته بالقاهرة. المستشرقون ١/٤٣٥، ٤٣٦.

(٦) في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢هـ، ٢١ يناير سنة ١٩٢٤.

وثاني المكتبات هي مكتبة السيرابيوم التي ضمت في يوم من الأيام مائتي ألف مجلد أوصى بها أنطونيوس وقد نهبت هذه المكتبة وخربت في عهد ثيودوزيوس[1])[2].

ويقرر صاحب تاريخ العلم (أن أعظم أعداء المكتبة في تلك الفترة لم يكونوا من الرومان الوثنيين بل من المسيحيين)[3] فكل هؤلاء المستشرقين يرميهم طه حسين بالتعصب للعرب، لأنهم أعلنوا براءة العرب من حريق تلك المكتبة ولم يذكر لنا الدكتور علة تعصبهم للعرب، إن الدكتور هنا يحاول أن يكون ملكيًا أكثر من الملك كما يقولون. أساتذته ينفون الإثم عن العرب والمسلمين ويأبى الدكتور إلا أن يدمغهم به تحت ظنون وأوهام ادعى أنها من البحث العلمي وليست منه في شيء، وكفى بشهادات هؤلاء دليلاً على براءة العرب والمسلمين مما نسبه الدكتور إليهم، والحق ما شهدت به الأعداء.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ثيودوزيوس = ثيوديوسيوس الأول الكبير (٣٤٧م ـ ٣٩٥م) إمبراطور روماني، المورد ٨٣.

(٢) د. عبد المتعال الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ـ مطبعة المدني ـ القاهرة، ط١، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٤٥.

(٣) سارتون: تاريخ العلم ٢٨١/٤، ٢٨٢ نقلاً عن د. رأفت عبد الحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص٩٠.

تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ[1].

والحديث الأخير يدل على تناقص الخيرية في الأمة كلما تناءت عن العصر الأول الذي هو خير القرون، فكأن القرون مرتبة ترتيبًا تنازليًا في الفضل والمنزلة.

ولم تكن للصحابة هذه المنزلة في الإسلام إلا لحسن بلائهم في سبيله وخلوص ذواتهم وقلوبهم من حظوظ الدنيا وأغراضها، (قال عبدالله بن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه ﷺ خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه)[2].

والمسلم الصادق مع حبه الشديد لصحابة النبي ﷺ وتقديره لهم لا يجوز أن يعتقد العصمة لأحدهم بعد رسول الله ﷺ [وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ كاذب، فالإنسان إنسان يصدر عنه ما يصدر عن الإنسان فيكون منه الخير والحق، ويكون منه الباطل والشر، وقد يكون الحق والخير في إنسان بنطاق واسع فيعد من أهل الحق والخير ولا يمنع هذا أن تكون له هفوات، وقد يكون الباطل والشر في إنسان آخر بنطاق واسع، فيعد من أهل الباطل والشر، ولا يمنع هذا من أن تبدر منه بوادر صالحات في بعض الأوقات.

يجب على من يتحدث عن أهل الحق والخير إذا علم لهم

---

(١) ذكره النووي في رياض الصالحين حديث رقم (٩٢) باب المبادرة إلى الخيرات وعقب عليه النووي بقول له: رواه البخاري ورقمه المحقق (٧٠٦٨) بترتيب البخاري. (رياض الصالحين ص٤١).

(٢) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٥هـ، ٣٧.

سبق وعرفنا لم يعن بتمحيص الروايات ولم يطق على ذلك صبرًا.

يقول الدكتور ممهدًا لذكر موقفه من تاريخ الصحابة: (وما أريد أن أتزيد ولا أتكلف ولا أن أوذي بعض الضمائر، ولا أن أحفظ بعض الصدور ولكني مع ذلك ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور وقاتل بعضهم بعضًا، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس فما عسى أن يكون موقفنا منهم؟).

ثم شرع الدكتور يقرر موقفه قائلاً: [«لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعًا، فلا نلغي عقولنا وحدها إنما نلغي معها أصول الدين التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا نستطيع أن نحكم بالخطيئة على من نظن أنه قد خطئ، لمكانهم من النبي أولاً، ولما بشرهم به النبي ﷺ من الجنة ورضا الله ثانيًا ولحسن ظنهم بالله ورسوله وثقتهم بما وعد الله ورسوله، وإيمانهم بالجنة التي بشروا بها؛ وما نحب أن نذهب في أمرهم مذهب الذين عاصروهم من خصومهم وأنصارهم، فنحكم على بعضهم بالخير، ونحكم على بعضهم الآخر بالشر؛ فالذين عاصروهم من الأنصار والخصوم كانوا شركاءهم فيما ألم بهم من الفتنة، فكانوا يرضون أو يسخطون حسب مكانهم من أولئك أو هؤلاء، أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم من الخلاف، وليس من المعقول لذلك أن نقحم عواطفنا في أمرهم إقحامًا، وإنما سبيلنا أن ننظر في أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ، وأن نخطئ من نخطئ

فيقول: [يجب أن نلاحظ بعد ذلك أن الناس قد وقفوا من الأحداث التي حدثت أيام عثمان ومن نصيب عثمان منها مواقف متباينة أشد التباين: فقوم أراحوا أنفسهم جملة، وقالوا: إن أكثر هذه الأحداث مكذوب مصنوع لم يصح وقوعه وإنما تكلفه المتكلفون، أراد بعضهم به الكيد للإسلام، ودفع بعضهم إليه بما كان من الخصومة العنيفة بين الأحزاب وهم من أجل ذلك يرفضون أكثر الأحداث، ويرون فيما يقبلون منها أنها أمور ليست بذات خطر، ذهب فيها الإمام مذهب الاجتهاد فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهو على كل حال لم يرد إلا الخير... وأكثر الذين يذهبون هذا المذهب إنما يدفعون إليه لأنهم يقدسون ذلك العصر من عصور الإسلام، ويكرهون أن يحملوا على أصحاب النبي ما يحمل عادة على الذين يستقبلون أمور الدنيا بما في نفوسهم من استعداد للمنافسة والاصطراع حول أعراض وأغراض لا تلائم قومًا صحبوا رسول الله، وأبلوا في سبيل الله أحسن البلاء... وقليل من الذين يرون هذا الرأي ويذهبون هذا المذهب يدفعون إلى ذلك بحكم الكسل العقلي الذي يمنعهم من البحث والدرس والاستقصاء.

وقوم آخرون يريحون أنفسهم نوعًا آخر من الإراحة، فيستبعدون أن تقع هذه الأحداث والفتن من أصحاب النبي، ويرون أنها مؤامرات دبرها الكائدون للإسلام كعبدالله بن سبأ ومن لف لفه من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب.

وواضح جدًا أننا لا نستطيع أن نذهب هذا المذهب أو ذاك، فنحن لا نحب الكسل ولا نطمئن إلى الراحة، ولا نغلو في تقديس الناس إلى هذا الحد البعيد، ولا نرى في أصحاب النبي ما لم يكونوا

صورة الصحابة وإحداث الفتن والقلاقل في مجتمعات المسلمين.

أما ما زعمه الدكتور لنفسه من المناهج وهو أنه ارتضى لنفسه ما ارتضاه الصحابة في أنفسهم من أنهم كانوا يتقاذفون التهم ويترامون بالكفر والفسوق فحاشا لله أن تكون هذه أخلاق هذا الجيل الفريد، أما الروايات التي دلل بها على منهجه هذا فهي روايات مطعون فيها فهي مسوقة بصيغة التمريض (رُوِي) وما ورد بمثل هذه الصيغة فلا يحكم بصحته عن المضاف إليه قطعًا بل ربما كان صحيحًا وربما كان مكذوبًا هذه واحدة.

أما الثانية: فإن علماء السُّنَّة كثيرًا ما تصدوا لمثل هذه المفتريات التي تولى كبرها من قديم الروافض بغضًا وتشنيعًا على صحابة النبي ﷺ. أما دعواه الأخير بأن تكذيب الروايات الكثيرة تكذيب لتاريخ الإسلام كله فهذا من خلط الحق بالباطل ولبس الأمور ببعضها، فإنه من المسلمات البدهية أن في كثير من كتب السير والتاريخ روايات لا يوثق بها ولقد عمل كثير من المحققين في العصر الحديث على كتابة السيرة النبوية من واقع كتب السُّنَّة الصحيحة ومن قبلها واقع القرآن الكريم، وتاريخ الإسلام بهذين المصدرين الكريمين ليس في حاجة إلى روايات كاذبة تضفي عليه شيئًا من المآثر أو تنال من صفائه وبهائه على الجانب الآخر... ومن العجيب أن الدكتور تبنى تصديق الكثير من الروايات التاريخية غير معتمد على شيء إلا أن الرواة بشر من البشر يجوز عليهم الصواب ويجوز عليهم الخطأ وقد ترجح لديه أنهم مصيبون في الكثير مما يذكرونه من المرويات اعتمادًا على أساليب المحدثين في تحقيق النصوص وتحليلها والتي ابتكر الدكتور منها عددًا غير قليل من أمثال الألفاظ الخطيرة التي جعلها أساسًا لإيراد الروايات

وأصدق برهان على أن الدكتور لم يأت جديدًا فيما نسبه إلى عثمان ﷺ تلك السلسلة من المزاعم الكاذبة التي رمى بها الخليفة الراشد والتي عددها الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم وأجاب عليها بما يقنع كل مريد للحق والإنصاف، وفيما يلي ذكر المفتريات كما أوردها القاضي أبو بكر ابن العربي تحت عنوان: قاصمة.

[قالوا متعدين؛ متعلقين برواية كذابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير منها:

١ ـ ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه.

٢ ـ ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه.

٣ ـ وابتدع في جمع القرآن وتأليفه وفي حرق المصاحف.

٤ ـ وحمى الحمى.

٥ ـ وأجلى أبا ذر إلى الربذة.

٦ ـ وأخرج من الشام أبا الدَّرداء.

٧ ـ وردَّ الحَكَم بن العاص بعد أن نفاه رسول الله ﷺ.

٨ ـ وأبطل سنَّة القصر في الصلوات في السفر.

٩ ـ ١٢ ـ وولَّى معاوية، وعبدالله بن عامر بن كريز، ومروان. وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية.

١٣ ـ وأعطى مروان خمس إفريقية.

١٤ ـ وكان عمرُ يضرب بالدِّرة وضرب هو بالعصا.

ولذا لست في حاجة لأن أعيد ما ذكره هناك وأكتفي بذكر إشارات أخرى أوردها الدكتور عن عثمان ﷺ.

يذكر الدكتور مخالفات عثمان في الناحية المالية فيظهره في صورة المبذر الذي لا يحسن التصرف في الأموال، وأنه كان يحاول نيل رضوان الناس بتوسيع عطائهم[1]، ويذكر أن عثمان كان يسترضي الساخطين على ولايته بالمال فكان من ذلك قوله: [وكان طلحة كما رأيت معارضًا لعثمان منذ اليوم الأول لخلافته؛ لأن البيعة تمت وهو غائب ولكن عثمان ترضاه فاستقامت الأمور ثم وصله فزادت الأمور استقامة][2].

ويعرض قبل هذا الكلام الصريح بكلام يشابهه أن عثمان أعطى لطلحة ثمن بيعته له فيذكر [وكان بنو أمية يشفقون أن يتلكأ طلحة ببيعته فلما بايع اطمأنوا. وكان عثمان يصل طلحة فيحسن صلته. قالوا: إن طلحة كان اقترض من عثمان خمسين ألفًا فقال له ذات يوم: قد حضر مالك فأرسل من يقبضه قال عثمان: هو لك على مروءتك][3].

ولم يقف العطاء على طلحة وحده إنما خص عثمان أقاربه بالعطاء الكبير على زعم الدكتور ـ وأنه كان يتقرب إلى الله بهذا الوصل لأقربائه من بيت مال المسلمين وربما دفعه هذا الوصل الزائد عن الحد؛ لأن يبيح لنفسه الاقتراض من بيت مال المسلمين حتى إذا أيسر رد ما اقترض ويزعم أن عثمان أباح لولاته مثل ذلك، إلى غير ذلك من الدعاوى الذي ضمنها فصلاً كتبه بعنوان: الأحداث المتصلة بسياسة

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٧٠.
(٢) المصدر السابق ٤/٣٤٤، ٣٤٥.
(٣) المصدر السابق ٤/٣٨٥ ـ ٣٩٢.

فلم تكن الخلافة عنده إذن تكليفًا تلقاه من المسلمين، ويستطيع أن يرده عليهم إن شاء هو أو شاؤوا هم، وإنما كانت الخلافة عنده ثوبًا أسبغه الله عليه وليس له أن ينزعه عن نفسه، وليس لأحد غيره أن ينزعه، وإنما الله وحده هو الذي يملك تجريده من هذا الثوب يوم يجرده من ثوب الحياة][1].

يضيف هذا الفهم العجيب إلى الخليفة الراشد عثمان ﷺ ويلتمس له العذر في هذا الفهم بأنه ـ أي: عثمان ـ [رأى صاحبيه (أبي بكر وعمر) من قبله قد نهضا بالخلافة فلم تنزع عن أحدهما ما أقام على الحياة فهو إذن مثلهما قد نهض بالخلافة ويجب أن يستمسك بها ما امتدت له أسباب الحياة][2].

والحق أن الإنسان لا يعجب من هذا السيل الجارف من التهم طالما ارتضى الدكتور لمثله أن يصدق كل ما يقرأ وأن يفصل في تفسير الأحداث بين دين المرء وعمله وسلوكه فيظن أن دين هؤلاء شيء وواقعهم شيء آخر.

حقًا إن الإنسان لا يعجب لمن ارتضى لنفسه أن يعالج أحوال الصحب الكريم والجيل الفريد كما يعالج أحوال السكارى في حانات فرنسا وغيرها من دول أوروبا ويتناولهم بالألفاظ التي ربما استنكف أن يصف بها أولئك.

في حوار الدكتور مع السيد مرتضى الرضوي (أحد علماء الشيعة).

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ ٣٨٦/٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أحد الأساتذة يقول: لو أدركت عائشة لأوجعتها ضربًا حتى أقعدتها في بيتها لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1].

وكأني به يتبنى مقولة أستاذه فهو لم يزد في إجابة السؤال عن هذه الكلمات السابقة.

ومما أساء به من القول في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قوله عن علاقتها بسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [كان معروفًا أن عائشة رضي الله عنها لم تكن تحب عليًا ولا تهواه، بل كان معروفًا أنها كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك حين أراد علي أن يواسي النبي ﷺ فأشار عليه بأن يطلقها وقال له: النساء غيرها كثير. وذلك قبل أن ينزل الله براءتها في القرآن. فلم تنس لعلي قوله ذلك... وكانت تنكر على عليّ فيما أعتقد أمرين آخرين، **أحدهما**: لم يكن لعلي فيه خيرة، فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورُزق منها الحسن والحسين، فكان أبا الذرية الباقية للنبي، ولم يُتح لها من الولد من رسول الله، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم في أواخر أيام النبي. فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء، ولا سيما وهي كانت أحب نساء النبي إلى النبي. أما الأمر **الآخر** فهو: أن عليًا قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله، وأسماء الخثعمية هي أم محمد ابن أبي بكر الذي نشأ في حجر عليّ فكانت عائشة تجد على عليّ لهذا كله][2].

والحق أن هذا مسلك عجيب في محاكمة النفوس والنوايا وهو الذي لم يشق عن الصدور ويعرف ما بها ولكنه مجاراة الهوى في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى: ٢ ـ علي بن أبي طالب ٤/٥٥٠ بتصرف.

الوصمات القادحة (السرقة، خيانة الخليفة وعدم الولاء له) يعود فيقول: «والغريب أن كثيرًا من المحدثين أهملوا هذه القصة ولم يشيروا إليها تحرجًا من ذكرها. فمكان ابن عباس من النبي ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام][1].

والعجيب أن يستغرب الدكتور على المحدثين إهمال القصة فهو لها مصدق حتى ولو قال بها كذابون فمكانة ابن عباس في الفقه والدين عند الدكتور لا تتنافى مع كونه في واقع الحياة سارقًا أو آكلاً لمال المسلمين بغير حق.

طعنه في معاوية رضي الله عنه:

من الشخصيات التي تجنى عليها طه حسين تجنيًا كبيرًا شخصية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فيصفه بكلمات شديدة ـ غير مبال بصحبته لرسول الله ﷺ ولكونه أحد كتاب الوحي ـ فكان من وصفه له [فلما جاء معاوية ظن أنه خليفة الله في الأرض، وأن مال الله ماله يصنع به ما يشاء، ويضعه حيث أحب، وقد حارب عليًا ـ رحمه الله ـ فكان يشتري بعض أصحابه بالجوائز الضخمة ومعاوية قد لقي النبي وصحبه فكيف بمن جاء بعده من الخلفاء الذين لم يلقوا النبي ولم يصحبوه][2].

وحين عرض ما أسماه خصومة معاوية لعلي رضي الله عنهما أخذ يذكر أسباب شدتها في شخص معاوية فكان من قوله:

[وأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ٢ ـ علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة ٥٤٩/٤ ـ ٥٦١ بتصرف.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٨٠.

[وإذا جاز لنا أن نبدو ولو لمدى لحظة واحدة «ملكيين أكثر من الملك» لكان في وسعنا أن نأخذ على طه حسين إفراطه في القسوة على معاوية خصم الخليفة علي اللدود، ومؤسس الدولة الأموية الذي أظهرت كتب التاريخ نحوه أقل جانب من العطف. على أن كونه من صحابة الرسول أو بالأحرى أحد كتابه وأمناء سره جعله بمنجاة من صدور حكم نهائي عليه كالحكم الذي استحقه كل الاستحقاق ـ سواء في نظر الروايات التاريخية الصالحة أو في نظر مؤرخنا المعاصر ـ ابنه وخليفته «يزيد» بينما يتردد المؤرخ المستقل والغير المتحيز في إصدار حكم قاس مثل هذا الحكم على يزيد][1].

طعنه في المغيرة بن شعبة[2]:

تحدث الدكتور طه حسين عن المغيرة بن شعبة فصدق كل ما رواه المؤرخون بشأنه خاصة ما يقدح فيه وينال منه ولم يكتف الدكتور بذكر الروايات المجردة بل أعطى لنفسه حق التأويل والتفسير والتعليل ليس هذا فحسب بل الشق عن الصدور والقلوب ومحاكمة النوايا.

يقول عن المغيرة بن شعبة: (أمر المغيرة بن شعبة غريب كله، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات) وذكر طرفًا من مساوئه قبل الإسلام وشيئًا من مآثره بعده وحسن بلائه في سبيله، ثم دخل إلى خبيئة نفس الصحابي الكريم وخبرها فألقى حكمه القاطع

---

(١) جورجيو ديلافيدا: طه حسين المؤرخ: بحث ضمن كتاب طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، ص١٠٣.

(٢) المغيرة بن شعبة: أسلم عام الخندق وشهد الحديبية وروى عن رسول الله ﷺ بعض الأحاديث، تولى إمارة البصرة والكوفة في عهد عمر وعزل عن الكوفة في عهد عثمان ﷺ جميعًا وتوفي سنة ٥٠هـ. (أسد الغابة ٤/٤٥٤ ـ ٤٥٥).

جعلها منهجًا لنفسه في مواجهة موقف الذين يعرفون للصحابة قدرهم والذين نعتهم الدكتور بأنهم يقدسون السلف وينزهونهم عن الخطأ والزلل.

هذا المنهج الذي كان من آثاره هدم القمم الشامخة في تاريخ الإسلام وتصوير جماعتهم أنهم حين امتحنوا بالدنيا نالت الدنيا من نزاهتهم وأمانتهم وكانوا فيها كغيرهم وإن كانت لهم صحبة، وإن سبقت البشرى لبعضهم بالجنة من رسول الله ﷺ فظروف الحياة ـ على حد تعبير الدكتور ـ كانت أقوى منهم[1]، هذا الأمر الذي جعل نفوس الكثيرين منهم تتجه إلى الدنيا أكثر من اتجاهها للدين فغيروا وبدلوا[2].

موقف المسلم من صحابة النبي ﷺ:

[مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وسط عدل بين طرفي الإفراط والتفريط، وسط بين الغلاة الذين يرفعون من يعظمونه منهم إلى ما لا يليق إلا بالله ـ سبحانه وتعالى أو برسله ـ عليهم السلام ـ وبين الجفاة الذين ينتقصونهم ويسبونهم ولا يعرفون لهم قدرهم.

فأهل السُّنَّة وسط بين هؤلاء وأولئك، يحبون أصحاب رسول الله جميعًا، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالإنصاف والعدل، فيعرفون للخلفاء الراشدين المهديين قدرهم ومنزلتهم، ولبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولأهل بدر ولأهل بيعة الرضوان، ولأهل بيعة العقبة ولمن أنفق قبل الفتح وقاتل، ولمن أنفق من بعد وقاتل، وأن الله وعد الكل

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤/٤١٧.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤/٦٠٨ وما بعدها.

والصحابة النجباء ﷺ، وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم عدول ﷺ ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيء من ذلك أحدًا منهم عن العدالة، لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم. . .).

ومن هنا حرم العلماء سب الصحابة وتنقصهم وعدوا ذلك من رذائل الأفعال ومساوئها قال الإمام النووي:

[واعلم أن سب الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره، لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون. . . وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل وقال بعض المالكية: يقتل][1].

وإنما وقفنا هذه الوقفة من البحث وأطلنا المقام به ذبًا عن عرض هؤلاء الأطهار الذين أظهر الله هذا الدين على أيديهم.

[ورد في الأثر من حديث جابر بن عبدالله ﷺ: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل الله على محمد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في خطبة كتابه منهاج السُّنَّة النبوية تعليقًا على هذا الأثر:

---

(١) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٩٣.

المبحث الرابع

موقف الدكتور طه حسين من القرون الثلاثة المفضلة

في مقابلة ما أسماه الدكتور مذهب تقديس السلف وتمجيدهم اتخذ الدكتور لنفسه طريقة أخرى تلك التي عرفها بالنقد التاريخي والتي قوامها في نظر الدكتور (النظر إلى الناس من حيث هم الناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات، وما اكتنفها من الظروف والأحوال)[1].

وبهذه الطريقة التي سوغت للدكتور أن يتناول صحابة الرسول ﷺ كما يتناول أرباب السوابق ويصور حياتهم على أنها حلبة صراع على الملك وتهافت على المال وجهادهم قد ناله شيء من ذلك.

والطريقة ذاتها هي التي سوغت له أن ينظر إلى القرن الثاني الهجري ـ الذي له المرتبة الثانية في الأفضلية بعد جيل الصحابة ـ على أنه (عصر لهو ولعب، وعصر شك ومجون)[2].

---

(١) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، ص٥.

(٢) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت، ط١٩٨٠. ٢/٣٨٤، ٣٨٩.

ووجدانها على صفة لا يعطى منطقيًا الحكم على عصرهم جميعًا بأن فيه تلك الصفة، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجًا لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور، فإننا إذا تتبعنا سيرة القدماء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام بما فيهم الحسن البصري[1]، وأبو حنيفة النعمان[2] وغيرهم][3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سبق تعريفه ص٢٥٦.

(٢) أبو حنيفة النعمان: فقيه إسلامي، صاحب المذهب الحنفي الذي يعرف باسمه ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٥٠هـ. (دائرة المعارف الإسلامية ١/٣٣٠).

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٦٤، ٦٥ بتصرف كبير.

وانتهى به الحديث إلى القول بأن نظام الحكم في ذلك الوقت [لم يكن ملكيًا؛ ولم يكن يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يُظن بهم الملك؛ وهو لم يكن جمهوريًا، فلم نعرف في الجمهورية نظامًا يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى إلى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت؛ ولم يك قيصريًا بالمعنى الذي عرفه الرومان، فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء؛ فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق العرب إليه، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه...

وأول ما نلاحظ من العناصر التي كان هذا النظام يأتلف منها، العنصر الديني؛ فلم يكن هذا النظام، كما قلت آنفًا، نظامًا سماويًا، وإنما كان نظامًا إنسانيًا، ولكنه تاثر بالدين إلى حد بعيد جدًا، لم يكن الخليفة... يصدر عن وحي أو شيء يشبه الوحي في كل ما يأتي ويدع، ولكنه على ذلك كان مقيدًا بما أمر الله من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغي...

أما العنصر الثاني من العناصر التي ائتلف منها هذا النظام فهو عنصر الأرستقراطية[1] التي لا تعتمد على المولد ولا على الثروة ولا على ارتفاع المكانة الاجتماعية بمعناها الشائع العام، وإنما تعتمد على

---

(١) أرستقراطية باليونانية سلطة خواص الناس، وفي العلوم السياسية الحكم بواسطة خير المواطنين لصالح الدولة، وكفكرة سياسية تدين في تكوينها لأفلاطون في (الجمهورية)، وكل الحكومات حتى الديمقراطية تحتوي على جانب من الأرستقراطية في تكوينها بمعنى أن الحكام ينظر إليهم على أنهم أصلح الناس لوظيفتهم هذه بصرف النظر عن الأساس الذي اختيروا عليه وتاريخيًا ترتكز الأرستقراطيات على الأراضي المملوكة، وتعتمد على مبدأ الوراثة، والبرجوازية التي نمت في الغرب دامت كسلاح ضد الأرستقراطية، والمبدأ الديمقراطي عدو المبدأ الأرستقراطي. الموسوعة العربية الميسرة ١/١١٦.

شيئًا من خصائصه العامة فيما بعد هو على كل حال لم يجب على السؤال جوابًا شافيًا ولم يعط عن طبيعة النظام فكرة محددة][1].

وعندما كان الدكتور يقارن بين صور الحكم المختلفة وبين الحكم في الإسلام نفى أن يكون نظام الحكم في العهد الأول حكمًا ديمقراطيًا ـ من ناحية طريقة تولي أمور الحكم ـ فقال: [إذا فهمت الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الأول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطيًا؛ فالشعب لم يكن يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليبلغه رسالات ربه وليقيم الأمر فيه بالقسط والعدل، ولكن الله أرسل رسوله فاتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه؛ وإذا قلنا: إن الذين اتبعوا النبي من أصحابه قد اختاروه ليكون لهم حاكمًا، فهم لم يختاروه على النحو الذي يختار عليه الحكام في النظام الديمقراطي (!!) وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه، وإنما كان النبي يستشيرهم فيشيرون عليه، وكانوا يشيرون عليه حسبة أحيانًا، وكان يقبل منهم أو لا يقبل. وليس من الدقة في شيء أن يقال: إن حكم أبي بكر وعمر قد كان حكمًا ديمقراطيًا بالمعنى الدقيق، فليس كل المسلمين قد اختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة، وإنما اختارهم فريق بعينه من المسلمين وهم أولو الحل والعقد من المهاجرين والأنصار، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الأمر][2].

وهذا الكلام فيه من الإيهام والتضليل شيء غير قليل، إذ يوحي بأن حكم النبي وسياسته للمسلمين وكذلك حكم صاحبيه إنما قام على

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٧٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٢٣، ٢٢٤.

أن يكون العقد محددًا بأجل زمني][1].

طه حسين يخالف المستشرقين:

والدكتور طه حسين في توصيفه لنظام الحكم في الصدر الأول من دعوة الإسلام بأنه «نظام عربي تأثر قليلاً أو كثيرًا بالإسلام» هو، على كل حال يخالف أساتذته من المستشرقين فها هو أستاذه «سنتيلانا» يقول عن طبيعة الدولة في الإسلام ونظام السيادة فيه: «الإسلام هو حكومة الله المباشرة، يحكمها الله الذي يرعى شعبه دائمًا، فالدولة في الإسلام يمثلها الله، حتى الموظفون العموميون هم موظفون عند الله»[2].

فالحكومة الإسلامية في نظره هي إذن حكومة ثيوقراطية.

ويرى موير أن الحكومة الإسلامية حكومة استبدادية فيقول: «المثال والنموذج للحكم الإسلامي هو الحاكم المستبد المطلق»[3].

وعلى نفس النهج ينسج مرجليوث وإن وسع في الدعوى وزاد فيها فقال: «إنه يمكن أن يقال: إن مبدأ الحكومة «الأوتقراطية»، أي: (الاستبدادية)، قد ظل مسلمًا به، لا يجادل أحد فيه في الأقطار الإسلامية حتى القرن التاسع عشر؛ وذلك حين وصلت الموجة التي صدرت عن الثورة الفرنسية ـ عن طريق تركيا ـ إلى المنطقة»![4].

وهذه الدعاوى الظالمة باعثها أحد أمرين إما جهل بالإسلام

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٧٥.
(٢) (٣) (٤) المرجع السابق، ص٣٦٦، ٣٦٧.

السماء، مع أنه لا يدل في حقيقة الأمر إلا على شيء يسير خطير في وقت واحد وهو أن الخلافة عهد بين المسلمين وخلفائهم، وأن الله أمر المسلمين بأن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا سواء أكان هذا العهد متصلاً بشؤون الحكم أم متصلاً بالعلاقات الخارجية أم متصلاً بما يكون بين الأفراد من العهود والمواثيق؛ فالله يأمر باحترام العهود، والله شاهد على ضمائر الناس حين يوفون بالعهود أو ينكثونها، والله يثيب من وفى بالعهد ويعاقب من نكثه عقابًا شديدًا.

فليس بين الإسلام وبين المسيحية مثلاً فرق من هذه الناحية، فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور، ثم يخلى بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ما داموا يرعون هذه الحدود؛ ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه؛ ولأمر ما قال عيسى عليه السلام للذين جادلوه من بني إسرائيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[1]، وما أشك في أن عيسى عليه السلام لم يرد أن يعطى ما لقيصر لقيصر بغير حقه، أو أن تقوم الصلة بين قيصر وبين الناس على الظلم والجور الخوف][2].

والدكتور هنا يحاكي صديقه الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أو يحكي عبارة نفسه ـ إن صحت نسبة كتاب الإسلام وأصول الحكم إليه ـ ولكن بأسلوب مختلف.

يقول صاحب الإسلام وأصول الحكم في النقطة ذاتها: [أنت

---

(١) إنجيل متى. دار الكتاب المقدس ـ مصر ـ الإصحاح ٢٢ آية ٢١.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٢١/٤ ـ ٢٢٢.

ودولة [وأن الرسول ﷺ قد أرسل لا لتأسيس دين فحسب بل لبناء قاعدة دولة تتناول شؤون الدنيا وهو بهذا الاعتبار مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبي المسلمين، وهو بصفة كونه مؤسس حكومة كانت له الولاية على كل من كان خاضعًا لهذه الحكومة سواء كان مسلمًا أو غير مسلم. وبوصف كونه نبيًا لم يطلب من غير المسلمين الذين تركهم على دينهم الاعتراف بنبوته ولو أن دعوته عامة وشاملة.

إذا تقرر أن الإسلام دين ودولة فالقول مع بعض الكتاب (واضح أنه يقصد الشيخ علي عبد الرزاق) بأن رسالة النبي ﷺ قاصرة على أمور الدين فقط وأن شؤون الدنيا ليست مندرجة في تلك الرسالة وأن محمدًا ﷺ كان نبيًا لا ملكًا (هذه عبارة الشيخ علي عبد الرازق) القول بهذا تأويل غير صحيح للرسالة المحمدية وإنكار دون دليل للحقائق التاريخية الثابتة، ولئن صح أن النبي ﷺ كان في مكة نبيًا فحسب[1] فلقد كان في المدينة زعيم أمة ومنشىء دولة، ولا ضير أن نقول: إنه كان ملكًا إذا أريد بهذه اللفظة أنه كان رأس الحكومة الإسلامية ووليًا على المسلمين في أمور دنياهم، كما كان الهادي لهم في شؤون دينهم][2].

---

(١) هذه العبارة من كلام الدكتور عبد الرازق السنهوري تحتاج إلى تحقيق، فهناك الكثير من أعماله ﷺ بمكة التي تبرز اهتمامه بالدولة ورغبته في تحقيق واقع فعلي لحكومة مسلمة وما بيعة العقبة الأولى والثانية إلا شاهد صدق على ما نقول، يضاف إلى ذلك أمره للمسلمين ـ امتثالًا لأمر الله ـ بكف أيديهم عن قتال المشركين في مكة إلى غير ذلك مما يدخل ضمن التصرفات التي تدخل في نطاق السياسة.

(٢) د. عبد الرازق أحمد السنهوري: فقه الخلافة وتطورها. تحقيق: د. توفيق الشاوي ـ الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٩٩٣، ص٨٤.

من أن رئيس الدولة في مصر يجب أن يكون مسلمًا ومن أن شعائر الإسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور، كما كانت تقام قبل صدوره، فلا تغلق المساجد ولا يعطل الحج، ولا تعمل الحكومة في أيام الأعياد الإسلامية ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان، ولا يلغى الحفل بالمحمل ولا الحفل بالمولد النبوي. . .

ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين في يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة واجبات جديدة دينية، أو أنه سيحدث في الدولة نظمًا لم يكن لها به عهد من قبل. ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن مصر تمضي إلى الأمام وتسرع في الاتصال بالمدنية الغربيةوتريد أن تحقق ما قال إسماعيل[1] من أنها جزء من أوروبا، ولأنهم كانوا وما زالوا يقدرون أن في الإسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون، ويحول بينه وبين أن يكون عقبة في سبيل الرقي الاجتماعي والاقتصادي، ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة إلى أن تأتي من الأمر ما لم يكن يبيحه الإسلام من قبل، فهي تعامل المصارف، وتنظم الربا، وتبيح ألوانًا من المعصية. . .)[2].

ويعيب الدكتور على الشيوخ فهمهم لهذا النص من الدستور

---

(١) إسماعيل: هو الخديوي إسماعيل أحد أفراد أسرة محمد علي الذين حكموا مصر، تولى الحكم من (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) كان شديد الإسراف والتبذير بلغت ديون مصر في فترة ولايته مائة مليون من الجنيهات. راجع: د. محمد ضياء الدين الريس: تباشير النهضة في العالم الإسلامي، دار الأنصار ـ مصر، سنة ١٤٠١هـ، ص١٣٦ بتصرف.

(٢) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢/١٧٣، ١٧٤ بتصرف.

بالاستذلال والاستغلال، وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعًا. وهذا النظام هو الذي حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئه، مات أبو بكر رحمه الله ولم يكد يبدأ التجربة وقتل عمر رحمه الله وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ولكنه لم يرض عنها فقد روي عنه أنه كان يقول في آخر خلافته:

لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء»[1].

وكأني بالدكتور يدعي أن الحكم الإسلامي الصحيح لم يُتمثل واقعًا في تاريخ المسلمين أبدًا حتى في عهد أبي بكر وعمر.

ولم يكن رأيه في خلافة عثمان وعلي مقاربًا من رأيه في خلافة الصديق والفاروق ﷺ، بل كان أسوأ حالاً وأبعد عن سواء السبيل يقول الدكتور وهو يعقب على أحداث الفتنة الكبرى التي شملت خلافة عثمان وعلي ﷺ:

«ليس من شك في أن عليًا أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله، وظهر أن هذه الدولة الجديدة التي كان يرجى أن تكون نموذجًا للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات، الذي تستذل فيه الكثرة الضخمة، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة، لقلة قليلة من الناس»[2].

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٠٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة ٤/٥٨٣.

مجتمع الله][1].

ثم يلقي حكمًا غالب مستنده على الشك حين يقول:

(وربما جاز لنا أن نرتاب في أن الخلافة كما صورها الفقهاء كان لها في أي يوم من الأيام وجود حقيقي)[2].

ثم أصدر حكمه القاطع قائلاً:

(لقد أخفقت الدولة الربانية المثالية Civitas Die وقد سلم المجتمع الإسلامي بإخفاقها)[3].

وكذلك وقف غوستاف لوبون الموقف ذاته من الخلافة الإسلامية حيث يقول: (وعاد القرآن الذي لاءم مشاعر الأمة العربية واحتياجاتها أيام محمد ملاءمة تامة، غير ما كان عليه بعد بضعة قرون، ولو كان القرآن دستورًا دينيًا فقط ما كان هنالك كبير محذور، ولكن القرآن إذا كان دستورًا سياسيًا ومدنيًا أيضًا وكان بطبيعته ثابتًا، بدت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول والأمم ونظمها الثابتة، وحالت هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التي قيدت بقيود الماضي، وتبدو أكثر النظم المشتقة من القرآن على شيء من المرونة مع ثباتها، وإنما الذي هو ثابت غير مرن منها هو النظام الإسلامي الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيد عالٍ مطلقٍ معدودٍ وكيل الله في الأرض)[4].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص١٩٨.

(٢)(٣) المرجع السابق نفسه، ص٢١٦، ٢١٧.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٣٩٤.

أتعرض لهذا الموضوع من زوايا معينة أكثر الدكتور التعرض لها، هدفي رد الحق إلى نصابه ورائدي بإذن الله التجرد والإنصاف.

أولاً: دعوى الإكراه على الإسلام:

هذا الادعاء تبناه المستشرقون حين تحدثوا عن انتشار الإسلام وسرعة انسياحه في الأرض واعتناق الشعوب والأفراد لمبادئه، وهدفوا من بث هذا الادعاء وإذاعته أن يظهروا الإسلام بمظهر الطاغي المستبد الذي يرغم الآخرين على الانصياع لحكمه والانقياد لسلطانه.

تقرير شبهة المستشرقين:

[قال بعض المستشرقين أن الفتوحات كانت حروبًا دينية ـ أي: لإجبار الناس على الدخول في الدين الإسلامي ـ فهم لم يميزوا بين مفهوم الجهاد ـ الذي يعمل لإزالة الحواجز والعقبات التي تعترض سبيل الدعوة ـ وبين اعتناق الناس للإسلام فقالوا وبمقايسهم: «إن المسلمين أصحاب عقيدة ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة وأنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم والسيف باليد الأخرى»[1]][2].

---

(١) قال هذا الرأي سيديو، تاريخ العرب العام، ص١٣٣، وهو نفسه الرأي الذي يراه موير نقل عنه ذلك السيد أمير علي في روح الإسلام، ص٩٤، ٩٥.

(٢) الدكتور/ جميل عبدالله المصري ـ الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ـ مجلة المنهل ـ السعودية ـ العدد ٤٧١ رمضان سنة ١٤٠٩، أبريل ومايو سنة ١٩٨٩م، ص٧٣.

التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها. . .»[1].

ويقول السير توماس أرنولد[2]: «يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسمًا في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفًا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة»[3].

ولم أشأ أن أرد على دعوى انتشار الإسلام بالإكراه، لأنها من الوضوح بمكان، ولأن كثيرًا من الباحثين قد تناولوها بالدحض والإبطال وإنما اكتفيت بما أوردت من أقوال بعض المستشرقون الذين ردوا هذه المزاعم على أصحابها.

رأي الدكتور طه حسين في هذا الجانب:

سلك الدكتور طه حسين في حديثه عن إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام طريقًا غير مباشرة ولم يعمد إلى أسلوب التصريح

---

(١) غوستاف لوبون حضارة العرب ـ ترجمه عادل زعتير ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠، ص١٢٨.

(٢) توماس أرنولد: إنجليزي تعلم في كمبريدج، قضى عدة سنوات في الهند أستاذًا في جامعة عليكرة، حاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي في الثلاثينيات من القرن الماضي، أهم آثاره: الدعوة إلى الإسلام، العقيقي. المستشرقون ٢/٨٤.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص٦٥ نقلاً عن د. عماد الدين خليل: حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات ـ من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٠٥هـ، ص٥٦.

وعندما يصف أمر الردة ومعالجة أبي بكر ﷺ لأمرها يعقب بقوله: [ومهما يكن من أمر فقد أتيح لأبي بكر بفضل هذا المزاج المعقول من الرفق في موضع الرفق والعنف في موطن العنف أن يقضي على الردة، ويعيد العرب إلى الإسلام طائعين أو كارهين بعد أن خرجوا منه!!][1].

وعندما يتحدث عن سياسة عمر ﷺ في توزيع العطاء على الصحابة رضوان الله عليهم وأنه كان يفضل أهل السابقة والذين أبلوا في سبيل الله البلاء الحسن على غيرهم، يقول: [. . . . كان يقدم الذين آسوا رسول الله بأنفسهم وشاركوه فيما لقي من الشدة والجهد والضيق، وقاتلوا أعداءه وأعداء الإسلام، على الذين كادوا للنبي وقاتلوه ولم يستجيبوا للإسلام إلا كارهين حين لم يكن لهم من الاستجابة بد][2].

ويصر طه أن يصف الذين أسلموا متأخرين من أهل مكة ويسميهم بالطلقاء ويصر على أنهم لم يدخلوا الإسلام إلا راهبين وحين لم يكن من الإسلام بد[3].

ولئن ذهبنا نستقصي عباراته في هذا الشأن لطال بنا المقام وفيما ذكرناه كفاية للدلالة على أن الدكتور كان يرى ما رآه بعض المستشرقين في الإسلام من أنه أعمل الإكراه والضغط على النفوس حتى تخضع لسلطانه، ولئن كان المستشرقون مدفوعين ببغضهم للإسلام وعداوتهم له، فما دافع الدكتور في أن يردد كلامهم وأن ينسج على منوالهم.

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٨٦.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٧٨.

(٣) راجع: طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٠٧؛ الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٤٤٢، وغيرها.

وهذا حكم جائز غير مستند إلى دليل اللَّهم إلا الأحقاد الموروثة والبغض الكامن في النفوس للإسلام وأهله.

وأحب هنا أيضًا أن أورد مقالة لكارليل يتحدث فيها عن النبي ﷺ وأتباعه وينزهه عن أن يكون همه من دعوته وجهاده الدنيا وزينتها يقول: [أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمدًا وأثاره، حمق وأيم الله وسخافة وهوس. أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصولجانات، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعًا بعد حين من الدهر؟

أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلا... إذن فلنضرب صفحًا عن مذهب الجائرين][1].

والنبي الذي يصفه هذا المستشرق هو الذي قذف في نفوس أتباعه الإخلاص والتجرد في الأعمال كلها وأن لا يريدوا بأعمالهم التي يبتغون بها وجه الله شيئًا من الدنيا، ولقد كان الجهاد من الأعمال التي يتقربون بها إلى الله يرجون به ثوابه وعطاءه ويريدون من ورائه تذليل العقبات التي تحول بين الناس وبين أن تعرض عليهم شريعة الإسلام.

لقد تعلم المسلمون من رسول الله أن المسلم لا يُقبل جهاده إن كان في قلبه حظ من الدنيا فهم الذين علموا مقاله لمن سأله، يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك

---

(١) توماس كارليل: الأبطال ـ سلسلة كتاب الهلال ـ العدد ٣١٦ سنة ١٩٧٨، ص٧٤.

يصدقك». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ: «**أهو هو**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**. . . .» الحديث[1].

ومع ما قدمناه فإننا لا نبرىء صف المسلمين عامة أن يكون فيه نفر في نيته دخل ولكن متى كان فعل فرد ـ لو كان ـ تؤاخذ به أمة؟

فالحكم على المسلمين بأنهم كانوا يريدون بغزوهم المال إنما هو حكم فيه مبالغة وتهويل ويدل على سوء نية وخبث في الطوية.

عرض أقوال الدكتور طه حسين في هذه الدعوى:

أكثر الدكتور من ترديده أن المسلمين أيام الفتوحات كان يحركهم طلب المال والحرص عليه ليذهبوا عن أنفسهم ضيق العيش وقسوة الحياة فيذكر أنهم كانوا يطلبون ذلك إلى الخلفاء ويكرهونهم عليه، لقد قال وهو يتحدث عن الفتوحات في عهد عمر: [وكان حظ الكوفة من سواد العراق ومما فتح من أرض الفرس أعظم من حظ البصرة، فكان أهل البصرة يطمعون في أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ليتاح لهم من الغنائم وسعة الفيء إلى ما كانوا يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو في سبيل الله (!!) حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر، وكان عنده وفد البصرة: إن عيشنا أضيق من عيش إخواننا في الكوفة، وإنا لن نأمن من الفرس ولن نفرغ منهم حتى نظفر بملكهم أو نقتله، وما زال المصران يلحان على عمر في أن يأذن للناس في الانسياح في

---

(١) أخرجه النسائي ٤/١٠، ٦١ في الجنائز، باب الصلاة على الشهداء وإسناده صحيح. راجع: ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول كتاب الجهاد، فصل في صدق النية والإخلاص ٢/٥٨٦.

وأراد كثير منهم عن نية صادقة أو غير صادقة أن يعوضوا بحسن البلاء في الفتوح ما فاتهم من حسن البلاء مع النبي في غزواته، ومن أجل ذلك لم يبطئوا حين دفعت العرب إلى الفتح وإنما نفروا خفافًا وثقالاً، كثير منهم يريدون عرض الدنيا وقليل منهم يريدون الآخرة وكان زعماؤهم وسادتهم يحسون أنهم الطلقاء، وأنهم أقل درجة من الذين سبقوا إلى الإسلام وأبلوا فيه بلاء حسنًا فكان ذلك يغيظهم ويحفظهم ويشعرهم بشيء يشبه ما نسميه تعقيد النقص أو مركب النقص، ثم كانوا يعرفون رأي عمر خاصة فيهم، فكان ذلك يغيظهم من عمر، ويدعوهم إلى أن يحسنوا البلاء في الجهاد، ليظهروا لعمر أن رأيه فيهم جائر عن القصد، وليظهروا ذلك للناس، وليظهروا ذلك لأنفسهم قبل أن يظهروه للناس، وهذا تأويل ما روي من أن خالد بن الوليد أتى بعكرمة بن أبي جهل وقد صرع في يوم من أيام الشام، فوضع رأسه على فخذه وجعل ينظر إليه ويقول: زعم ابن حنتمة أننا لا نستشهد، وابن حنتمة هو عمر][1].

ولقد أطلت في هذا الاستدلال لأني رأيت الدكتور هو أصدق واحد يحكي مقالة نفسه، وحتى لا يخطر لأحد أني أتزيد عليه بنسبة كلام لم يقله، أو أني أحمل كلامه ما لا ينبغي أو ما لا يحتمل من المعاني، ولعل النص السابق ذكره قد حوى جملاً كثيرة، كل جملة فيه تحتاج إلى تعليق أو تعليقات، وقد بان منه كيف أن الدكتور رأى الصحابة في صورة أرباب الدنيا، المغامرين بالإسلام وأنه اطلع على نفوسهم وحاكم نواياهم فحدث بأن جهادهم في الفتوح رياء يبتغون به

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) عثمان بن عفان ـ المجموعة الكاملة ٢٧٧/٤، ٢٧٨.

المبحث السابع

رأي طه حسين في ثورتي الزنج[1] والقرامطة[2]

رأي المستشرقين:

يرى كثير من المستشرقين أن الثورات التي قامت بها حركتا الزنج

---

(١) ثورة الزنج: يقصد بها أولئك العبيد الذين استجابوا لدعوة رجل فارسي يسمى علي بن محمد ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي، كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذ العبيد والرقيق مما يعانون من بؤس وضيق، فاستجاب لدعوته خلق كثير من الرقيق وخرجوا على الخلافة العباسية وأحدثوا فتنًا عظيمة من نهب الثروات وهتك الأعراض وأعمال القتل والإرهاب في البلاد التي ينزلونها ولقد دامت فتنتهم قرابة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية وكان موطن خروجهم البصرة وانتهى أمرهم بعد سلسلة طويلة من الحروب خاضها معهم أبو أحمد الموفق بن المتوكل.

راجع: ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ دار الفكر، بيروت ٣٩٠/٧، ٣٩١.

وحسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني ـ بدون ط، بدون ت. ٢٠٩/٣ ـ ٢١٣.

(٢) القرامطة: ـ دعوة قامت عام ٢٧٨هـ تعلن الحرب على الدين بما تدعو إليه من مبادىء فاسدة ظاهرها دعوى التشيع وباطنها الكفر، وهي حركة باطنية كانت=

وتلا الآية القرآنية المعروفة باسم الشراة (سورة التوبة ١١٢)[١].

ونذر نفسه للجهاد بحد السيف، ثم يقول ماسينيون: ومن المؤسف أن المصادر التي بين أيدينا لا تذكر إلا تفاصيل قليلة عن نظام حكومته التي كانت على النمط الشيوعي][٢].

وعن حركة القرامطة أيضًا تحدث ماسنيون فوصفهم بقوله: (إن مجتمع القرامطة الثوري الذي قام في جنوب الجزيرة (العراق) كان يقوم على أساس شيوعي. . .)[٣] فوصف المستشرقين لهاتين الحركتين بأنها حركات تقدمية تنشد العدل والخير إنما هو ضرب من التضليل دأب عليه المستشرقون في دعمهم للحركات الهدامة وخلعهم عليها الألقاب والألفاظ الكبيرة تغريرًا للقارئ وخداعًا ولعل الباحث يلتمس العذر لكثير من المستشرقين الذين لم يستطيعوا أن يخلصوا من عدائهم الموروث للإسلام وأهله، ولكن ما عذر نفر من المسلمين يسيرون على درب أساتذتهم فيرددون مزاعمهم من غير تعقل ولا تبصر لقد أعلن نفر من المسلمين مدحه وإشادته بهذه الحركات الهدامة في كتابات لهم هدفوا منها ما هدفه أساتذتهم من أمثال الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق الذي أخرج كتابًا بعنوان «الحركات السرية في الإسلام» طبعة عام ١٩٧٣ خص القرامطة فيه بفصل عنوانه: «القرامطة تجربة رائدة في الاشتراكية».

---

(١) الآية في ترتيب المصحف (١١١) وهي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾. . . الآية.

(٢) لويس ماسينيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الزنج ٤٢٢/١٠، ٤٢٣.

(٣) لويس ماسينيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: قرامطة، نقلاً عن محمد عبدالله عنان دولة إسلامية شيوعية في القرن الرابع الهجري مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٤٢٤/١.

الكتاب كان على شيء من الاقتصاد عنه في مقاله السالف الذكر.

رؤية العلماء المحققين لثورتي الزنج والقرامطة:

(كشفت الأبحاث العلمية الصحيحة في شأن مؤامرات الزنج والقرامطة الحقائق التالية:

أولاً: لم تكن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركات انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعي بل كانت نوعًا من الأخذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم وكان أقسى أعمال القرامطة أنهم أقاموا أسواقًا للرقيق يعرضون فيها الحرائر من نساء العرب)[١].

وكذلك فعل الزنج حين صارت لهم قوة وحين كان لهم شيء من الغلبة فكما يقول الدكتور طه نفسه عنهم: (كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من ظلم الظالمين فلم يكتفوا بالإنقاذ وإنما جزوا السادة ظلمًا بظلم فكان هذا أول الشر، ثم تجاوزوا ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار فأصبحت الحرية استبدادًا)[٢].

ثانيًا: كانت لحركة القرامطة على الخصوص صلة بطائفة الإسماعيلية[٣] التي كانت تعمل على إسقاط الخلافة العباسية لصالح

---

(١) أنور الجندي ـ مقدمات العلوم والمناهج ـ التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، دار الأنصار، مصر، بدون ت، ص٢٨٧.

(٢) طه حسين: ثورتان، الكاتب المصري ٥٦٩/٢.

(٣) الإسماعيلية: فرقة باطنية انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان=

القدامى والمحدثين من الكتاب والمؤرخين من كتب وروايات وبين أن تلك الثورة ما زالت تلهم الكتاب الأوروبيين إلى الآن بما يسطرونه ثم تساءل: «ما بال ثورة الزنج لم تحدث في حياتنا الأدبية ما أحدثته الثورة الإيطالية القديمة»[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طه حسين: ثورتان، مجلة الكاتب المصري ٢/٥٥٤.

هؤلاء الدكتور طه حسين حين أرخ للفتنة وأحداثها في كتابه الفتنة الكبرى بجزأيه.

ولأهمية هذا الموضوع وخطره كان لا بد أن نضعه موضع البحث لبيان وجه الحق فيه.

ابن سبأ في كتابات أهل السُّنَّة والجماعة:

يرى كل مطالع لكتب أهل السُّنَّة والجماعة خاصة التي أرخت لنشأة الفرق الإسلامية إثباتها لشخصية عبدالله بن سبأ وبيانها للدور الخطير الذي قام به.

فلقد ذكره عبد القاهر البغدادي[1] في «الفرق بين الفرق» فقال عنه: (السبئية أتباع عبدالله بن سبأ الذي غلا في علي ﷺ وزعم أنه كان نبيًا ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ودعا إلى ذلك قومًا من غواة الكوفة...)[2].

وذكره الشهرستاني[3] في الملل والنحل فقال: (السبَّائية: أصحاب عبدالله بن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه: أنت، أنت يعني أنت

---

(١) البغدادي: أبو منصور عبد القادر بن طاهر: فقيه أصولي، ورد مع أبيه نيسابور ودرس فيها علومًا جمة تفقه علي أبي إسحاق الإسفراييني، أشهر كتبه: الفرق بين الفرق، توفي سنة ٤١٨هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٢١/٤.

(٢) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ـ مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون ت، ص٢٤٧.

(٣) الشهرستاني: هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، ولد سنة ٤٧٩، سكن شهرستان ونسبه إليها، شافعي المذهب، أشعري الأصول، له مؤلفات عديدة أشهرها الملل: والنحل. انظر: مقدمة المحقق لكتاب «الملل والنحل»، طبعة المعرفة بيروت سنة ١٤١٦هـ.

عبدالله بن سبأ في مصادر الشيعة:

[إن أمهات الكتب للمذهب الشيعي قد تناولت شخصية عبدالله بن سبأ بكل جلاء ووضوح فالنوبختي الذي يعد من كبار علماء الشيعة في القرن الثالث الهجري يذكر عبدالله بن سبأ في كتابه «فرق الشيعة» بقوله: «وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أن عبدالله بن سبأ كان يهوديًا فأسلم ووالى عليًا عليه السلام».

وجاء في رجال الكشي والذي يعد من أمهات الكتب عند الشيعة وهو للكاتب أبي عمرو محمد بن عبد العزيز «عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبدالله يقول: لعن الله عبدالله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين، الويل لمن كذب علينا وإن قومًا يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا فنبرأ إلى الله منهم».

وورد في قاموس الرجال للإمام حمد تقي القشري بخصوص عبدالله بن سبأ: «لعن الله عبدالله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين»][1].

وذكر الدهلوي في كتابه «مختصر التحفة الاثني عشرية» الذي يحكي فيه العقائد الشيعية من واقع كتبهم ومؤلفاتهم فيتحدث عن السبئية بقوله: (يقال لها: «التبرئية» وهم عبارة عن الذين يسبون الصحابة إلا قليلاً منهم كسلمان الفارسي وأبي ذر والمقداد وعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم، وينسبونهم - وحاشاهم - إلى الكفر والنفاق ويتبرأون منهم.... وهذه الفرقة

(١) راجع: الشيعة في الميزان، ص٣٨ - ٣٩ بتصرف.

[وكذلك ذكره غير واحد من المستشرقين منهم:

جولدزيهر[1]: العقيدة والشريعة في الإسلام، يولياس فلهاوزن[2]: الخوارج والشيعة، وفان فولتين[3]: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات.

على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال: كيتاني[4]، وبرنارد لويس[5]، وغيرهم)[6].

رأي الدكتور طه حسين في عبدالله بن سبأ:

عرض الدكتور لموضوع ابن سبأ حين كان يؤرخ لعثمان رضي الله عنه بفصل عنوانه قصة ابن السوداء ونشأة المعارضة استهله بقوله: «وهناك قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها، حتى جعلها كثير

---

(١) سبق ترجمته، ص٣٨٥.

(٢) يولياس فلهاوزن: ألماني، بدأ بدراسة اللاهوت لنقد التوراة، ثم تخرج باللغات الشرقية على إيفالد في جوتنجين فعد من أشهر تلاميذه وقد خلفه فيها، له عناية كبيرة بالتاريخ الإسلامي (١٨٤٤هـ/١٩١٨م)، العقيقي: المستشرقون ٣٨٦/٣.

(٣) فان فولتين: اسكتلندي حصل من جامعة جلاسجو على الماجستير في الآداب، عين نائبًا لأمين قسم المخطوطات والكتب الشرقية، ولد سنة ١٨٨٨ واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٣. [العقيقي: المستشرقون ١١٧/٢].

(٤) كيتاني (١٨٦٩هـ/١٩٢٩م) ولد في رومة أو تخرج من جامعتها، كان أميرًا ثريًا، أكثر من الرحيل إلى بلاد الشرق، يعده أهل الشأن أكبر مستشرق في التاريخ العربي، العقيقي: المستشرقون ٤٢٩/١.

(٥) برنارد لويس: ولد في لندن سنة ١٩١٦ نال عضوية الكثير من المعاهد والأكاديميات وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس، له مؤلفات عدة أشهرها: أصول الإسماعيلية. العقيقي: المستشرقون ١٤٣/٢، ١٤٤.

(٦) د. محمد آمحزون: ابن سبأ في كتابات المعاصرين، البيان ٥١/٣١.

المؤرخين القدماء، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري[1] وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبري: إنهم من الرواة المتأخرين)[2]، وقول الدكتور أنه لم يجد لابن سبأ ذكرًا في المصادر المهمة فيه نوع من التغرير وقد سبق أن ذكرنا أن كثيرًا من كتب التاريخ والمتكلمين ذكرته وعرفت به ثم إنه إذا لم يكن تاريخ الطبري من الكتب المهمة فما هي المصادر المهمة؟! ثم إن الدكتور حصر المصادر المهمة في كتابين اثنين الطبقات الكبرى لابن سعد، وأنساب الأشراف للبلاذري والحقيقة أن الكتابين المشار إليهما يثار حولهما كلام يقلل من شأنهما، فالأول قال عنه العلماء: (إنه كتاب ناقص ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر ﷺ في ٨٤ صفحة ولأبي بكر ﷺ في ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ﷺ والأحداث في خلافته هي ما يعلم الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٢ صفحة، ولما جاء إلى علي ﷺ والأمر في فترته أفدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة)[3].

أما كتاب البلاذري (فالنسخة التي اعتمد عليها الدكتور طه طبعت في أورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية وهي ليست كل الكتاب وإنما هي جزء منه، فمن أين عرف أنه لم يذكره ما دام لم يطبع من الكتاب إلا هذا الجزء أفلا يكون البلاذري قد ذكره في ترجمة عمار بن

---

(١) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، كان صفيًا للخليفتين المتوكل والمستعين، له: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف، يقال: إنه توفي سنة ٢٧٩هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٨/٤ وما بعدها.

(٢) أنور الجندي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص٢٨٩.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٢١٦.

إكبارًا وإنما هو رغبة لإظهارهم بأنهم هم الذين أثاروا الفتنة ضد عثمان، فهو يعلم أن ابن سبأ بث أفكاره بين دهماء الناس وعامتهم وليس بين الصحابة وهؤلاء الدهماء كان لهم دور مؤسف في قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ وفي معركة الجمل وما أعقبها من نكبات ومصائب][1].

سبب رفض الدكتور طه لقصة ابن سبأ:

[لقد هدف الدكتور وكثير ممن رفضوا أمر ابن سبأ وشكوا فيه إلى بيان أن الفتن التي حدثت إنما كانت من صنيع الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أفسدها حب المال والتهافت على الرياسة والولاية، والقصد من ذلك الإساءة إلى الإسلام وأهله، والإلقاء في روع الناس أن الإسلام إذا عجز عن تقويم أخلاق الصحابة وسلوكهم وإصلاح جماعتهم بعد أن فارقهم الرسول ﷺ بمدة وجيزة، فهو أعجز أن يكون منهجًا للإصلاح في هذا العصر][2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. محمد آمحزون، ابن سبأ في كتابات المعاصرين، البيان، ص٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

المبحث الأول

دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني

من الشبه التي أذاعها المستشرقون وأكثروا من ترددادها قولهم بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني!! أو تأثرت بالقانون الروماني على أقل تقدير، وكلتا المقولتين ادِّعاء حملهم عليه عداؤهم للإسلام والمسلمين، هذا العداء الذين يحملهم على أن يعملوا على تجريد الإسلام وأهله من كل فضيلة، والقول بأن المسلمين عالة في نهضتهم الأولى على أوروبا كما هم عالة عليها الآن.

تقرير قول المستشرقين:

ذهب معظم المستشرقين إلى القول بتأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني على اختلاف فيما بينهم في درجات هذا التأثر، فمنهم فريق من أمثال جولدزيهر، وفون كريمر[1]، و«شيلدون آموسى»[2] يذهبون إلى القول بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني،

---

(١) ألفرد فن كريمر: (١٨٢٨ ـ ١٨٨٩م) مستشرق نمسوي، كان قنصلاً في بيروت ومصر، نشر نحو عشرين كتابًا. موسوعة ويكيبيديا.

(٢) شليدون: لم أستدل على ترجمته.

البحث تحقيقًا ثابتًا ـ آثارًا غير منكورة من الفقه الروماني، سواء في ذلك من ناحية الطريقة، أو من ناحية الأحكام الشرعية][1] وجولدزيهر في رأييه جميعًا حال الغلو وبعد التخفيف مجانب للصواب كما انتهى العلماء المنصفون في أبحاثهم.

تقرير رأي الدكتور طه حسين:

تذبذب الدكتور وتأرجح في مسألة تأثر الشريعة الإسلامية ـ الفقه الإسلامي ـ بالقانون الروماني فتارة يذهب إلى أن التأثر كان في الفروع لا في الأصول وأنه لم يكن تأثرًا مباشرًا وإنما كان تأثرًا خفيًا ربما شعر به الفقهاء المسلمون أو لم يشعروا، وتارة يقول بأن هذا التأثر كان كبيرًا شمل الأصول والفروع حتى يذهب إلى القول بأن نظام الخلافة إنما هو نظام روماني!! وهذه أقوال الدكتور شاهدة بهذا التردد والاضطراب.

يقول الدكتور: [نحن نعلم أن العرب لم يترجموا فقه الرومان ولم يدرسوه درسًا منظمًا، ولكنا لا نشك في أن الفقه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلاً أو كثيرًا سواء أعلم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا. ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهرًا، ولأن هذه القوانين قد درست درسًا مزهرًا في الشام والجزيرة ومصر.

فيجب أن يتركَ حكمُ الرومانِ وقوانينُهم ودرسُ هذه القوانين آثارًا

---

(١) جولدزيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، نقلاً عن الشيخ محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق ١٩٨٧م، ص٨٦، ٨٧.

المصري (المسلم) بقوله: (خذ نتائج العقل الإسلامي كلها فستراها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية الخالصة والفلسفية والفنية، التي مهما تكن مشخصاتها فهي متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين مهما يكن أمرهما فهما متصلان أشد الاتصال بما كان للرومان من سياسة وفقه، وإلى هذا الدين الإسلامي الكريم وما يدعو إليه من خير وما يحث عليه من إحسان)[1].

ومحل الشاهد في هذا الاستطراد أن الدكتور جعل التأثير الروماني في أمور السياسة والفقه قاسمًا مشتركًا بين العقل الأوروبي والعقل المصري أو المسلم.

ولما أرخ الدكتور لحياة الخلفاء الراشدين تخيل أوجه تشابه بين نظام الخلافة ونظام الحكم عند الرومان ثم عاد فنقضها بقوله: [ليس من شك في أن المسلمين قد اقتبسوا كثيرًا من نظم القياصرة والأكاسرة في السياسة والإدارة والحرب ولكن هذا الاقتباس جاء متأخرًا جدًّا عن العصر الذي نتحدث فيه، فلننصرف إذن عن هذا التشابه الذي لا يقوم على أساس متين][2].

وفي موضع آخر يشيد بما عند الرومان من فقه ثم يقول: [ولعل الأمة الوحيدة التي يمكن أن تشبَّه بالرومان في الفقه إنما هي الأمة العربية][3].

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م، ٣٩/٩ بتصرف.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) عثمان ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٥، ١٩٩٦م، ٢٢٦/٤.

(٣) طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة ٤٣١/٥.

المنصفون من غير المسلمين يقول العلامة المحقق فارس الخوري[1]: [أمر المقايسة بين الشرع الإسلامي والشرع الروماني لا يستقيم لنا بالنظر لاختلاف الهدف والسُّنَّة بين الشرعين، الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق، ومقتضيات العقول، والثاني على المصالح والمنافع الدنيوية... فيبنى على هذا التخالف أن الأساس في الشرع الإسلامي مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة، وفي الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط.... وإذا طالعت أقوال فقهاء الأمتين في إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة، مراعية المبادئ المتقدم ذكرها، غير متأثرة بالأساليب وطرق التعليل التي سلكتها الفئة الأخرى][2].

أما موضوع السبق التاريخي للقانون الروماني وأن المسلمين درسوه درسًا متقنًا في كثير من البلاد تحت ظل الحكم الروماني، فإن وقائع التاريخ تدحضه؛ [لأن الإمبراطور جوستنيان قرر بموجب دستور أصدره في ١٦ ديسمبر سنة ٥٣٣م إلغاء جميع مدارس القانون الروماني في الإمبراطورية عدا مدرسة: روما وبيروت والقسطنطينية، ولم يكن بواحدة من هذه المدارس تأثير لا في الفقه ولا في الفقهاء المسلمين. فادعاء المستشرقين ومن خلفهم الدكتور طه تأثر الفقه والفقهاء المسلمين بالقانون الروماني بسبب السبق الزمني قول باطل لإغلاق هذه المدارس

---

(١) فارس الخوري (١٢٩٠/١٣٨١هـ - ١٨٧٣ - ١٩٦٢م) قانوني سوري، شغل العديد من المناصب السياسية في سوريا، وكان عضوًا عاملاً في المجمع العلمي بدمشق، وعضوًا مراسلاً في مجمع اللغة بالقاهرة، معجم المؤلفين ٢/٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الدعوة، إسكندرية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٤٨، ٤٩ بتصرف.

ـ وأما دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني لمجرد التشابه في بعض النظم فلا تسلم لهم لأن التشابه [لا يدل حتمًا على أخذ إحداهما من الأخرى، فقد يكون التشابه ناشئًا من تشابه الظروف الاجتماعية التي مرت بها كل من الشريعتين، كما أن العقول تتشابه في كثير من أنواع التفكير، وهذا أمر طبيعي في الأمم جميعًا، فلا يصح لمجرد هذا التشابه القول بأن هذه الشريعة نقلت عن الأخرى][1].

وإذا كانت هناك أوجه شبه بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني في بعض النظم فهناك اختلافات كثيرة ومهمة بينهما تدل بوضوح على استقلال كل منهما عن الآخر ولئن ذهبنا ندلل على ذلك لطال بنا المقام، ولكن أكتفي بذكر مثال واحد ذكره بعض الكتاب النصارى[2]، وهو يتحدث عن الشريعة الإسلامية والقانون الدولي.

يقول: [قرر مؤتمر القانون المقارن الذي عقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٣٨م أن الشريعة الإسلامية هي نظام قانوني مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني. ولا شك عندي في صحة قرار المؤتمر المشار إليه، ولست أحاول تأييد قراره الذي أعده من البديهيات لأن القانون الروماني قائم على أساس سلطة رب الأسرة الذي أنزله هذا القانون منزلة الآلهة، فجعل له على أعضاء أسرته من زوجة وأولاد ومن انتسب إلى أسرته من نساء بالزواج،ومن رزق بهم من حفدة... السلطان الكامل، بما في ذلك حق الموت، كما جعل له على أموال هؤلاء جميعًا الحق المطلق بحيث يصبح المالك وحده لأموالهم بتصرف فيها كيفما شاء أما الشريعة الإسلامية فأساسها حرية الفرد، فالابن إذا ما بلغ

---

(١) د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، ص٢٣٤.

(٢) هو الأستاذ: صليب سامي.

المبحث الثاني

رأي طه حسين في رجم الزاني المحصن

من الأحكام الفقهية التي تناولها الدكتور طه حسين حكم الزاني المحصن وكان تناوله له تناولاً شفهيًا مع جلسائه. يذكر الدكتور محمد الدسوقي الذي كان يقرأ للدكتور في السنوات الأخيرة من حياته ذلك فيقول:

[ثم شرعنا في القراءة في كتاب: «شرح نهج البلاغة» وكان أول موضوع نقرؤه خاصًا بالمطاعن التي وجِّهت إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها أنه عمل على دفع حد الزنا عن المغيرة بن شعبة، فعلق العميد ـ يعني طه حسين ـ على هذا قائلاً:

[إن القرآن صريح في أن عقوبة الزنا الجلد دون الرجم، وأما أن الرسول ﷺ رجم فصحيح، ولكنه رجم قبل نزول آية الجلد، وفعل هذا أخذًا بما كان في الإنجيل، وتعد آية الجلد ناسخة لما كان في شريعة عيسى، وما يقول العلماء من أن هناك آية خاصة بالرجم نسخ معناها وبقي لفظها[1] وهي: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة

(١) أثبت الدكتور في كتابه العبارة بهذا اللفظ والصواب أن يقال: نسخ لفظها وبقي معناها.

لأدى الأمر إلى ذهاب ديننا؛ إذ أن الكثرة من تشريعات الإسلام وتفاصيلها ثبتت بالسُّنَّة المطهرة.

ولقد دأب كثير من الكتاب العزف على هذا الوتر في تلك القضية بالذات فيكتب أحدهم مقالاً تحت عنوان: «عقوبة الرجم ليست من الإسلام في شيء»[1] واعتمد في القول بهذه النتيجة على أن الرجم لا نص عليه في كتاب الله وهو أوثق النصوص وأجدرها بالثقة أما السُّنَّة ففيها المكذوب والموضوع وكذا وكذا إلى آخر ما قال من الدعاوى الكاذبة والتحريفات الباطلة.

لكن الحق ما أجمع عليه أهل الحق من العلماء كما حكى الإمام النووي في تعليقه على صحيح الإمام مسلم قال:

(وأجمع العلماء على وجوب جلد الزاني البكر مائة جلدة ورجم المحصن وهو الثيب ولم يخالف في هذا أحد من أهل القبلة إلا ما حكى القاضي عياض وغيره عن الخوارج وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه فإنهم لم يقولوا بالرجم...)[2].

والأحاديث التي تقول بثبوت الرجم كثيرة أذكر منها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه:

(١) عن عبادة بن الصامت قال: قال: رسول الله ﷺ: «**خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» أخرجه مسلم رقم (١٦٩٠).

---

(١) الكاتب هو علي يوسف علي في جريدة (صوت الأمة) الصادرة في ٦ يناير سنة ٢٠٠٣م.

(٢) الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ١١/١٨٩.

من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «**قل**». قال: إن ابني كان عسيفًا[1] على هذا فزنى بامرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذه الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله الوليدة والغنم رد وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أُنَيْسُ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**» قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فَرُجِمَتْ»[2] مسلم (١٦٩٨).

ـ أما الادعاء الثاني بأن رجم رسول الله ﷺ وصحابته منسوخ بآية الجلد فيكذبه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عبادة بن الصامت والذي قال فيه الرسول ﷺ: «... **قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» رواه مسلم.

فقول النبي ﷺ: «**قد جعل الله لهن سبيلاً**» إشارة إلى قول الله سبحانه في سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾[3].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: [﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ

---

(١) عسيفًا: هو بالعين والسين المهملتين، أي: أجيرًا وجمعه عسفاء كأجير وأجراء وفقيه وفقهاء. قاله النووي في شرح صحيح مسلم ٢٠٦/١١.

(٢) راجع: صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/١١ وما بعدها باب حد الزنا.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥.

وقالوا: لا يجوز ترك كتاب الله الثابت بطريق القطع واليقين لأخبار آحاد يجوز الكذب فيها ولأن هذا يفضي إلى نسخ الكتاب بالسُّنَّة وهو غير جائز.

ولنا أنه قد ثبت الرجم عن رسول الله ﷺ بقوله وفعله في أخبار تشبه المتواتر، ثم ساق ابن قدامة الآثار القولية والعملية الدالة على ما قاله.

ـ ثم قال: وقولهم: إن هذا نسخ ليس بصحيح وإنما هو تخصيص ثم لو كان نسخًا لكان نسخًا بالآية التي ذكرها عمر رضي الله عنه ـ يعني الآية المنسوخة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا...» ـ وقد روينا أن رسل الخوارج جاؤوا عمر بن عبد العزيز رحمه الله فكان من جملة ما عابوه عليه الرجم وقالوا: ليس في كتاب الله إلا الجلد، وقالوا: الحائض أوجبتم عليها الصوم دون الصلاة والصلاة أوكد فقال لهم عمر: وأنتم لا تأخذون إلا بما في كتاب الله تعالى؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن عدد الصلوات المفروضات وعدد ركعاتها ومواقيتها أين تجدونه في كتاب الله تعالى؟ وأخبروني عما تجب الزكاة فيه ومقاديرها ونصبها فقالوا: أنظرنا فرجعوا يومهم ذلك فلم يجدوا شيئًا مما سألهم عنه في القرآن فقالوا: لم نجده في القرآن قال: فكيف ذهبتم إليه، قالوا: لأن النبي ﷺ فعله وفعله المسلمون بعده.

فقال لهم: فكذلك الرجم وقضاء الصوم فإن النبي رجم ورجم خلفاؤه بعده والمسلمون، وأمر النبي بقضاء الصوم دون الصلاة وفعل ذلك نساؤه ونساء أصحابه][1].

---

(١) ابن قدامة: المغني والشرح الكبير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ١١٨/١٠، ١١٩ بتصرف.

نسبة مجازية باعتبارها وريثة شريعة موسى عليهما السلام .. ولأن الإنجيل لم ينص على تطبيق الرجم وإنما الذي ذكره الإنجيل عن المسيح:

«ثم حضر أيضًا إلى الهيكل في الصبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلمهم. وقدَّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أُمْسِكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط قالوا له: يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت. قالوا هذا ليجرّبوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه، وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر...»[1].

فعيسى لم ينقض شريعة موسى فهو الذي قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس. ما جئت لأنقض بل لأكمل»[2] ولكنه هنا لم ينفذها[3].

أما التوراة فقد نصت على عقوبة الرجم ولم تفرق بين محصنة ولا بكرية إذ قضت بأن الفتاة التي تزني في بيت أبيها ـ أي: قبل زواجها ـ ترجم متى اكتشف زوجها عدم عذريتها جاء في سفر التثنية: «ولكن إن كان هذا الأمر صحيحًا لم توجد عذرة للفتاة ـ أي: صدق ادعاء زوجها بأنه تزوجها وقد زالت بكارتها ـ يخرجون الفتاة إلى بيت

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن ٨/١.
(٢) متى: الإصحاح الخامس: ١٧.
(٣) راجع: عباس محمود العقاد: حياة المسيح ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مهرجان القراءة سنة ٢٠٠٢، ص١٤٤ ـ ١٥٢.

وهي لا بد أن تكون قد دخلت في الإسلام منذ وقت مبكر، ترجع بلا شك إلى الشريعة اليهودية)[1].

فالملاحظ اختلاف ألفاظ المستشرق وألفاظ الدكتور لكن المعاني واحدة، وما قدمناه من ردود على الدكتور هو رد على شاخت، وقد رد الدكتور محمد يوسف موسى على مقالة شاخت ردًّا وافيًا في أعقاب المادة التي كتبها المستشرق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنا ١٠/٤١٤.

الباحث المنصف معه في بعضها ويختلف معه في بعضها الآخر.

فأما مواطن الاتفاق فمنها رؤيته للتعليم على أنه القدرة على الحياة وأن الغاية منه تكوين الشاب النافع لنفسه ولأمته[1] وقوله بأن التعليم ضرورة لحماية الأمة لذاتها فإذا كانت أمور الدفاع الوطني موقوفة على استقامة أمور التعليم، لأن الشعب الجاهل لا يحسن الدفاع عن نفسه، فكل تقصير في أمور التعليم ككل تقصير في أمور الدفاع لا ينبغي أن يقبل من أي إنسان[2].

والتعليم في رأيه ليس ترفًا يمارسه هواة وإنما هو ضرورة حياة وحاجة من حاجاتها[3]، وهو سبيل مهم من سبل الرقي والتقدم[4].

ولذا طالب بأن يتاح التعليم لكل طالب «لا يفرق في ذلك بين أهل المدن وأهل القرى ولا يفرق فيه بين الأغنياء والفقراء»[5].

ولقد اعتنى طه عناية شديدة بشقي العملية التعليمية: أعني المعلم والتلميذ.

«فالمعلم أولاً يجب أن يكون محط العناية والرعاية ويجب أن يعد إعدادًا سليمًا وأن يمنح الثقة وأن تتوافر له الحياة الكريمة حتى يستطيع أن ينهض بأعباء مهمته السامية»[6].

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص١٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٣.
(٤) طه حسين: «برنامج» مقال بالأهرام ١٩٤٩/١١/٧م.
(٥) طه حسين: «برنامج» الأهرام ١٩٤٩/١١/٧م.
(٦) رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص٧٦، وراجع الفصلين ١٥، ٢٥ من مستقبل الثقافة.

تلتها والتي ترتبت عليها مثل دعوته لتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية اللتان يجزم الدكتور أن رقي التعليم الجامعي في مصر مرهون بتعليمها للطلاب[١].

ولقد حارب الدكتور بعض أساتذته من المستشرقين في الجامعة المصرية لإقرار هاتين اللغتين ودخل معهم في نقاشات طويلة لم تنته إلى شيء كما حدث مع ديجي[٢] وكوبلند[٣]، وكان الدكتور شديد الأسف، لأن أمنيته التي أخذها عن المستشرق جريجوار[٤] لم تر طريقها إلى التحقيق.

ولقد كانت هذه النتيجة أيضًا هي التي دفعته إلى أن يعيب التعليم الديني في الأزهر، لأنه حرب على الحياة الحديثة ولذا دعا إلى تحديث الأزهر وإشراف الدولة عليه[٥].

وكأن الدكتور أيس من هذا التوجيه فدعا إلى أمر آخر له خطورته، لقد دعا إلى إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية بكلية الآداب وبرر ذلك بأن كلية الآداب «متصلة بالحياة العلمية الأوروبية على نحو

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة فصل ٣٤، ص٢٦٢ وما بعدها.

(٢) ديجي: مستشرق فرنسي، عمل عميدًا لكلية الحقوق في جامعة بوردو، عمل مدرسًا بالجامعة المصرية في بدايات القرن الماضي. راجع: مستقبل الثقافة، ص٢٦٤.

(٣) كوبلند: أستاذ من أساتذة ليفربول تخصص في تاريخ القرون الوسطى، درس بالجامعة المصرية القديمة، مستقبل الثقافة ٢٧٣.

(٤) جريجوار: بلجيكي تخرج من جامعة بروكسل وسمي أستاذًا بها، ثم عميدًا لكلية الآداب بالجامعة المصرية (١٩٢٦ ـ ١٩٣٠). المستشرقون ٢٣١/٣.

(٥) طه حسين: مستقبل الثقافة فصل ٥٠، ص٤٣٦ وما بعدها.

المبحث الأول

طه حسين والتدريس

[عمل طه حسين في الجامعة عام ١٩١٩م بعد عودته من أوروبا وانتقل معها عندما أصبحت جامعة حكومية ١٩٢٥م أستاذًا، وظل يرقى حتى أصبح عميدًا لكلية الآداب، ثم أخرج منها ١٩٣٢م وأعيد أواخر ١٩٣٤م، واستمر بها إلى ١٩٣٨م عندما انتدب مستشارًا لوزارة المعارف ثم عمل من بعد مديرًا لجامعة الإسكندرية ثم عمل بعد ذلك في وزارة المعارف مديرًا للثقافة حتى أحيل إلى المعاش ١٩٤٩م، أي: ظل متصلاً بالجامعة والتعليم أكثر من ثلاثين عامًا متصلة كانت له خلالها أثاره البعيدة في المناهج ونظام الدراسة وأخلاقياتها وتقاليدها][1].

ابتدأ الدكتور طه حسين عمله بالجامعة أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني، وثار جدل واسع حول تدريس التاريخ اليوناني والروماني ووجه النقد إلى الدكتور لماذا لم يخص التاريخ الإسلامي بالتدريس والتوجيه؟

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٧.

ويقول خامسة: «وظيفة المحتسب في الإسلام تشبه ما كان شائعًا عند اليونان ومعروفًا من أمر تأديب العامة ومراقبة أعمالهم»[١].

... ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن المستشرق الألماني بورج[٢] كرايمر ذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية أثرت تأثيرًا فعالاً في الحضارة الإسلامية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تبعية طه حسين في تفكيره وآرائه لدوائر المستشرقين][٣].

وقد أخذ الدكتور طه حسين يدرس لطلاب الجامعة تاريخ اليونان؛ فكان أول كتاب درسه لطلابه «نظام الأثينيين» الذي ألفه أرسطاطاليس وذلك بعد أن نقله إلى العربية، والذي أسف الدكتور على عدم تدريسه لهذا الكتاب بلغته الأصلية «لغة اليونان» لأن الطلاب لم يكونوا على علم بها[٤].

وكان الدكتور مع تعليمه لتاريخ اليونان يكتب محاضراته في صحيفة الجامعة، فقد نشر بعضها في الأعوام (١٩٢٣م، ١٩٢٤، ١٩٢٥) كان الدكتور يدبج بعضها بنفسه والبعض الآخر كان الطلاب ينسخونه ويعدونه للنشر[٥].

ولقد كانت كتب المستشرقين بمثابة المرجع الأساس الذي يعد

---

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر، المجموعة الكاملة ٥/٦٠٠.

(٢) كرايمير، بورج: مستشرق ألماني، أستاذ الفلسفة العربية في جامعة توبنجين ١٩٥٠م أقام بمصر شتاء (٥٣ ـ ١٩٥٤م) انتحر عام ١٩٦١م، له آثار عديدة في اللغة وعلومها. المستشرقون ٢/٤٦٦.

(٣) عبد الحميد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧١ ـ ١٧٣ بتصرف.

(٤) راجع: مقدمة كتابه «نظام الأثينيين»، المجموعة الكاملة ٨/٢٩٥.

(٥) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص١٧٧ وما بعدها.

الناس أني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن تفسيرًا لغويًا خالصًا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقًّا][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما إلى النص المقدس بالتغيير، وهذا التغيير قد حدث بعبارة بلغت حدًّا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلاً». نقلاً عن طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦١.

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦٠.

ورغم هذا الحب والحرص على النصح الصادق للأزهر والأزهريين فلم يكن الدكتور موفقًا في الكثير من تلك المعارك؛ إذ تبنَّى خلالها آراء باطلة كما في معركة الشعر الجاهلي، أو دافع عن آراء باطلة كمؤازرته لزميله وصديقه الشيخ علي عبد الرازق في معركة الإسلام وأصول الحكم، أو حين وقف من علماء الأزهر مواقف لم يراع فيها أدب النصح وانساق فيها لطبعه الحديد فسخر من علماء الأزهر وشيوخه بألفاظ لا تليق والأمثلة على هذا التوجه كثيرة، منها: ما نعت به الشيخ الظواهري[1] في مقال له بجريدة السياسة لسان حال الأحرار الدستوريين يقول: «ما دامت هذه الأيام السود قد جعلت رأي الشيخ الظواهري فوق الدين والعلم وفوق الحرية والدستور والقانون، فمن الحق على هذا (البابا) أن لا يحكم رعاياه البائسين حكم قراقوش وأن لا يقضي في أمر حتى يفهم ويتبصر، وأنا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التي يطبعها في مصر جماعة من المصريين والأجانب الشرقيين والغربيين»[2].

لقد أخطأ الدكتور طه حسين حين اتخذ من الهجوم الشديد والنقد اللاذع أسلوبًا لنصحه وإرشاده للأزهر والأزهريين مما حدا بالأزهريين أن يقدموا سوء الظن بالدكتور في كل مقال يتحدث به أو كل رأي يقترحه.

---

(١) الشيخ الظواهري: هو محمد الأحمدي إبراهيم الظواهري ولد بقرية كفر الظواهري بمحافظة الشرقية سنة ١٨٨٧م، كان أبوه من خيرة علماء الأزهر وزميلاً للشيخ محمد عبده، تولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٩م، وكان متأثرًا بفلسفة الشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني، جريدة الشروق العدد الأول جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ.

(٢) السياسة ١٩٣٢/٦/٢٨م.

خاصة من حرب أو سلام. يجهلون هذا كله ويجهلون لغة الذين ينتحلون هذا كله، وإذا كانوا عاجزين عن وعظ المسلمين وإرشادهم وإذا كانوا عاجزين عن رد المخالفين وتبشيرهم بالإسلام، فهم عاجزون أن يؤدوا ما للإسلام عليهم من حق، وهم عاجزون عن أن يحققوا ما عقد المسلمون بهم من أمل وما وكلوا إليهم من منفعة][1].

الدكتور في مقاله السابق يصف الحالة المرضية بشيء من الإسهاب ويلاحظ على هذا الوصف الإغراق والتعميم وعدم الاستثناء وكأني بالأزهر وطلابه لا خير فيهم ولا أمل يرجى منهم، لأنهم جميعًا جهلاء ليس فيهم غناء.

وهذا ظلم بيِّن ينكره كل أحد ولو خص الدكتور واستثنى لما كان عليه من إنكار، ومواطن الضعف التي أشار إليها يعرفها كل من عاش تلك المرحلة أو قرأ عنها.

ثم تحدث الدكتور عن علاج هذه الحالة في نهاية مقالته فقال: [فإذا أريد إصلاح التعليم الديني فواضح جدًّا أن هذا الإصلاح يجب أن يزيل هذا النقص الذي أشرنا إليه، ويسلح حماة الدين بما هم في حاجة إليه من السلاح للذود عن الدين][2].

واقترح لقسم التخصيص الذي يفرغ له العلماء بعد شهادة العالمية آنذاك أن يقسم إلى قسمين قسم الدينيات، وقسم اللغويات.

(فأما الأول فكان ينبغي أن يدرس فيه الإسلام درسًا عاليًا مفصلاً بحيث يستطيع العالم أن يتخصص حقًّا في فرع من فروعه وأن يدرس فيه إلى جانب الإسلام تاريخ الديانات الأخرى على اختلافها سواء منها

---

(١) (٢) السياسة ١٩٣٢/٨/٣١م.

فيه لم يكن مقيدًا بالبرامج التي تكتب على الورق والمناهج التي تصدر بها القوانين والنظم التي تقيد العقل والصحف التي تعد على الأساتذة والطلاب عدًّا. كان الأزهر معهدًا يدرس فيه العلم، لأنه العلم الذي لا يحد الدرس فيه إلا بطاقة الأستاذ المعلم والطالب المتعلم)[1].

كما أشاد بالإصلاح الذي نادى به الإمام محمد عبده الذي أدخل بعض العلوم الحديثة ضمن مناهج الدراسة والذي اعتمد أسلوب التدرج والمرحلية سبيلاً لتعميم هذا العلوم وتمنى الدكتور طه حسين أن (لو مضى إصلاح الأستاذ الإمام في الأزهر على وجهه ولم يلق من مقاومة السياسة ما لقي لكان حظ الأزهر الآن من مشاركة العالم الحديث في علمه وثقافته ومن الاحتفاظ بطبيعته الخاصة عظيمًا مغنيًا)[2].

لقد انبهر الدكتور بالغرب في الكثير من الجوانب وكان من الأشياء التي أخذت بلبه أن رأى رجال الدين من القساوسة والرهبان يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا فتمنى أن لو كان من علماء الإسلام كذلك (لقد كان على رجال الدين الإسلامي أن يجمعوا بين الفقه والفلسفة أو بين الفقه واللغة أو بين التوحيد والرياضة أو بين الفقه وما شئت من الحياة العملية، ولعلي لا أخطئ إن قلت: إن أبا حنيفة رحمه الله كان من أئمة الفقه والكلام وكان يشتغل مع ذلك بالتجارة ليعيش، فطبيعة العلوم الدينية الإسلامية ليست مباينة لطبيعة العلوم الحديثة ولا مضادة لها، والإسلام أطهر وأرق وأسمح من أن يحول بين رجاله وبين البحث عن الحق في أي فرع من فروع العلم، ولن يكون اللاهوت المسيحي أو الإسرائيلي أسمح من اللاهوت الإسلامي ومن

---

(١) (٢) إبراهيم عبد العزيز: أوراق مجهولة من طه حسين، ص١٠٨، ١٠٩.

شئنا أن نبحث في التاريخ الأوروبي عما يشابه إصلاح الأزهر فمن السهل أن ندرك أن إصلاح الأزهر ـ أي: إدخال الأفكار الجديدة إليه ـ إذا لم يكن من المستحيلات فهو على الأقل لا يمكن أن يتحقق إلا مع الزمن»[1].

فالمستشرقي يرى تطور الأزهر إنما ينحصر في «إدخال الأفكار الجديدة» هذه الكلمة المجملة دون أن يوضح المراد بالأفكار الجديدة، هل المراد بها المواد العملية التي تعنى بالجانب المادي من حياة الناس مثل الرياضيات والطبيعة والكيمياء وغيرها أم يراد بها الأفكار الجديدة في تصور الدين والنظر إلى الحياة.

العالم الأزهري الموسوعي الخدمي:

لقد كان الدكتور طه حسين كثير الاختلاط بعلماء الغرب من اليهود والنصارى فهاله أن كثيرًا من هؤلاء العلماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فأكثر الدكتور طه حسين من مناشدة علماء الأزهر بالعمل على توسيع مداركهم وأن يكون لهم معرفة وعلم بواقع المجتمع من حولهم، وأن يوجدوا من الوسائل الحديثة ما يساعدهم على التغلغل في المجتمع والوصول إلى كل طبقاته وفئاته.

لقد كان يعيب تصور العلماء لمهمتهم ويرميهم بفهمهم القاصر لهذه المهمة فيقول: «يتصور العلماء واجبهم الديني تصورًا ضيقًا جدًّا فهم مكلفون شيئًا آخر غير إلقاء الدروس وإقامة الصلوات، هم مكلفون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ولم يقل أحد: إن

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الأزهر ٢/٦٢.

فيواسيهم ويعزيهم، ويلقى ألوان العناء في حمل الناس على الصدقات يأخذ من أغنيائهم ما يرده على فقرائهم، ثم هو بعد هذا وذاك رجل طُلَعة يريد أن يتعلم، فهو يختص بدرس نوع من أنواع العلم أو لون من ألوان الفن. هذه خلاصة حياة القسيسي في قرى أوروبا ومدنها، فأين منها حياة رجال الدين في الشرق الإسلامي)[1].

الخطوة الثانية:

تحت هذا العنوان كتب الدكتور مقالاً في جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٥م يدعو فيه الحكومة لأن تتخذ خطوة ثانية بعد خطوتها الأولى والتي تمثلت في إلغاء القضاء الشرعي.

الخطوة الثانية التي يقصدها الدكتور شرحها بقوله: (فلندعُ الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطرًا وعسى أن تكون أبعد منها أثرًا فيما ينبغي للحكومات الرشيدة أن تفكر فيه وتسعى إليه وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها؛ بل في حياتهم العقلية، لأن هذه الحياة هي أساس التفكير، وهي قوام العمل، وهي التي تتيح للشعب أن يفكر تفكيرًا متجانسا، وأن يعمل عملاً مطردًا لا ينافر بعضه بعضًا، ولا يلغي بعضه بعضًا، وهذه الخطوة الثانية هي توحيد التعليم في طور الصبا والشباب)[2].

لما نشر الدكتور هذا الرأي وقرأه علماء الأزهر ثارت ثائرتهم

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢/١٢٧.

(٢) أبو بكر عبد الرزاق: وثائق قضايا طه حسين المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٣٥٣.

رابعًا: يوفق بين هذا المنهج وبين ما يدرس في الأزهر من علوم أساسية للتخصص في علوم الدين. ويكون ذلك بإصلاح المناهج الأزهرية وإلغاء ما فيها من التزيد والتكرار. . .)[1].

(وقد حرص طه حسين في مختلف محاضراته وكتاباته أن يعلن أن الجامعة المصرية هي الجهة الوحيدة التي ينبعث منها نور العلم في مصر والتي يكون فيها طلب العلم لذاته. أما الأزهر فلا يصح أن يطلب المدرسون فيه شيئًا من المال، لأنهم يجب أن يكونوا متزهدين في الحياة الدنيا[2].

(وفي مقال له في مجلة الرابطة الشرقية تحت عنوان: «إصلاح الأزهر» دعا إلى اعتبار الأزهر مدرسة وعظ وإرشاد وألا يكون للمتخرجين فيه حق الوظائف وأن يعيشوا عيشة الرهبان ويدعوا الدنيا وأغراضها)[3] وهذه الآراء صدرت من الدكتور لسوء ظنه بالأزهر والأزهريين هذا الأمر الذي كان يدفعه إلى المغالاة في آرائه وعدم التزام القصد فيها. وربما أوقعه في شيء من التناقض والاضطراب.

حين وضع الدكتور تصورًا لبعض أوجه الإصلاح في قضايا التربية والتعليم في كتابه مستقبل الثقافة تناول قضية إصلاح الأزهر على وجه يدل على تناقضه واضطرابه.

ففي بداية الكتاب يقول: (كل شيء يدل، بل كل يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع نحو الحديث، يريد أن يتخفف من القديم

---

(١) أبو بكر عبد الرزاق: وثائق قضايا طه حسين ٣٦٢/١.

(٢) قال ذلك في محاضرة له بجمعية الشبان المسيحيين في مارس ١٩٣٠م.

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٩٤.

واقعًا حين (سنت الدول قانون تنظيم وتطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م والذي كان من أهم بنوده إتاحة الفرصة لكل طالب في التعليم الديني والتعليم المدني إدخال كليات التعليم المدني إلى الجامعة الأزهرية.

وعلى الرغم من أن الأزهر ما زال حريصًا على استقلال التعليم الأزهري والإعدادي والثانوي إلا أنه حريص على أن يترسم خطى وزارة التربية والتعليم في محاولة لتحقيق التقارب بينه وبين التعليم المدني العام)[١].

وهذا الأمر طالما طالب به طه حسين أثناء حياته وهو اليوم حقيقة واقعة يعرفها كل متابع لمسيرة التعليم بالأزهر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. كمال حامد مغيث: طه حسين مصادره الفكرية... ص١٦١.

مثاله»[1].

ولذا، فقد شغلت المرأة فكر الدكتور وعقله منذ حياة الطلب الأولى حينما توجه إلى الكتابة الصحفية ثم صاحبه هذا الانشغال بقية حياته.

ولقد حظيت المرأة في أدب طه حسين بنصيب كبير، فقد جاء أدبه في هذا الجانب [تسجيلاً حيًّا دقيقًا شديد التنوع لما قطعناه من أشواط بعيدة في مراحل تطورنا الاجتماعي والفكري... لقد استطاع أن يصور واقعنا الاجتماعي الصميم في ريف مصر وحواضره لا سيما في الصعيد (بيئته الأولى) فإذا بنا نلتقي وجهًا لوجه بالأم الصعيدية العريقة الحصان[2]، والكاعب[3] الصعيدية الرزان[4]، والغانية «الغازية» اللعوب، وتاجرة الأسرار والغوايات، والمرأة الميسورة المستغنية بجاه أسرتها، والمرأة الفقيرة الكادحة المتجملة، والمرأة المحرومة المنكودة المتعففة... إلخ][5].

وما أريد أن أعرض للمرأة في أدب طه حسين فما لهذا قصدت، وإنما الوجهة أن أعرض لفكر طه حسين في قضايا المرأة.

---

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٣٩.
(٢) الحصان: هي المرأة بينة الحصانة، ويقال للمرأة محصنة: إذا تزوجت وكذلك للمرأة العفيفة. راجع: مختار الصحاح، مادة: حصن، ص١٤٠.
(٣) كَاعِب: فتاة نَهَد ثدياها المعجم الإسلامي، ص٤٨٦.
(٤) الرزان: الوقور من النساء. راجع: المعجم الوجيز، مادة: رزن، ص٢٦٢.
(٥) صوفي عبدالله: المرأة في أدب طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٢١٥ بتصرف.

ارجموا[1] واجلدوا كما أمر ... الله يجانبكمو الخنا والفجور
إن من يهدر الفضيلة يهدر ... ليس كفوًا لذنبه التعذير
طرب النيل ثم قال ... لعمر الله قد كاد يزيدهيني السرور
أمحب للدين من أهل مصر ... أنت والله بالنجاة جدير
نسيت مصر دينها فعداها ... كل خير وجللتها الشرور[2]

وكذلك جاءت أراؤه متَسمة بالقوة والأخذ بالأحوط حتى في المسائل الخلافية كرأيه في حكم زواج المسلم بالكتابية[3] الذي وضحه بقوله:

[أقول: إن مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا في عصر غير العصور الماضية، تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح، ومن جميل إلى

---

(١) كان طه يرى الرجم أول حياته كما هو ثابت في شعره، ثم رفضه بعد ذلك كما سبق أن رأينا.

(٢) عبد العليم القباني: طه حسين في الضحى من شبابه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٣٣٧ الصادر سنة ١٩٧٦م، ص١٥٤، ١٥٥.

(٣) جاء في المغني لابن قدامة: «ليس بين أهل العلم ـ بحمد الله ـ اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب»، ممن روي ذلك عنه عمر وعثمان وطلحة وحذيفة وسلمان وجابر وغيرهم. قال ابن المنذر: ولا يصح عند أحد من الأوائل أنه حرم ذلك. وروى الخلال بإسناده أن حذيفة وطلحة والجارود بن المعلى وأذينة العبدي تزوجوا نساء أهل الكتاب وبه قال سائر أهل العلم. وحرمته الإمامية متمسكة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ولنا قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥] وعليه إجماع الصحابة. المغني والشرح الكبير ٧/٥٠٠.

البحث الأول

طه حسين وحجاب المرأة المسلمة

نشأ طه حسين في الفترة التي اشتدت فيها معركة الحجاب والسفور في بدايات القرن الماضي التي كان لقاسم أمين[1] حظ كبير فيها إذ أصدر كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»[2]، واللذين زخرا بالدفاع عن سفور المرأة وتبرجها.

[وقد تناول قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» أربع مسائل: وهي الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يتواءم ويتلاءم مع الحضارة الغربية وفلسفتها، زاعمًا أن ذلك هو ما يعنيه الإسلام ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني «المرأة الجديدة» ذلك أن قاسم أمين التزم فيه بالمنهج الغربي الحديث الذي يرفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء ما

---

(١) سبق ترجمته، ص٤٦.

(٢) قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بإعادة نشر الكتابين تحت دعوى التنوير ضمن سلسلة المواجهة فنشرت الأول في صيف ١٩٩٣م، والثاني في صيف ١٩٩٧م.

في نهضتنا إصلاح نفس المرأة والرجل إصلاحًا دينيًا منذ النشأة الأولى فنشعر قلبيهما حب الفضيلة، وبغض الرذيلة ونملأ فؤاديهما رهبة من الله ورغبة في مرضاته. وهذا هو الدواء النافع لهذا الداء العضال.

وليست مسألة المرأة منحصرة في الحجاب أو السفور كما يظن بعض الكاتبين وإنما ترجع في الحقيقة إلى أصلين كبيرين، أحدهما: تربية المرأة، والثاني: حريتها.

إن الحرية المطلقة حق فطري للذكر والأنثى من الحيوان على السواء وليس الإنسان إلا فردًا من أفراد الحيوان وفرعًا من فروعه، فالرجل والمرأة قسيمان في الحرية المطلقة والمنفعة وحدها هي التي تحد هذه الحرية بحدود العقل والعادة والدين، فكل ما يقيد حرية الرجل من هذه الحدود يقيد حرية المرأة كذلك.

هذا شيء متفق عليه لا معنى للبحث عنه والجدال فيه، وإنما نبحث عما جعل للرجل سلطانًا على المرأة ميزه عليها وقيدها بقيود خاصة لا ينال الرجل منها شيء.

ونقول: ليس لهذه القيود مصدر إلا نظام الأسرة فهو الذي اقتضى أن يكون للرجل قيامة على المرأة فيكسب لها القوت ويجمع من أسباب الراحة والدعة ما يمكنها من أن تقضي حاجة المنزل وتقوم على تربية البنين والبنات، وليس من الممكن غير ذلك لأنه مقتضى الفطرة والطبيعة.

ولكن هل قيام المرأة بحاجة المنزل، وفروض التربية يقضي بأن تسلب حريتها وتقصر في القيود كما تقصر الأمتعة؟ هذا ما لا يمكن القول بهن بل يجب القول بنقيضه فإن المرأة إذا لم تكن مطلقة اليد

قال القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1]، وفهم المسلمون من هذه الزينة الظاهرة الوجه واليدين[2]، فأي تكلف في هذا الأمر؟ وأي عناء ينال المرأة من اتباعه.

ما الذي تريده المرأة إذا أباح الله لها أن تظهر من زينتها ما يظهره الرجل؟

لم يأخذها الإسلام بحجاب ولا نقاب][3].

والدكتور بعبارته الأخيرة هدم ما تقدم عليها من قول لم يخالف فيه جمهور المسلمين. فهو يقرر في صراحة أن الإسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب: ولعله يقصد بالحجاب هنا القرار في البيت وعدم البروز والمخالطة للرجال. ولأنه قرر في حديثه سالف الذكر أن الإسلام فرض على المرأة العفة واستدل بآية سورة النور التي تحض النساء على الخمار حيث يقول الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[4].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) قرر ذلك القرطبي في التفسير حيث قال: «لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعًا إليهما. يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ﵂ أن أسماء بنت أبي بكر ﵂ دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها: «**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا**» وأشار إلى وجهه وكفيه... وقد قال ابن خويز منداد إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها فعليها ستر ذلك». راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢١٢/٦ بتصرف.

(٣) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤١.

(٤) الآية ٣١ من سورة النور، وخلاصة أقوال المفسرين فيها أن الواجب على المسلمة أن تغطي رأسها وعنقها وأذنيها ونحرها وصدرها... ولا يظهر منها إلا الوجه، ويمكن أن يغطى الوجه كما صرح بذلك ابن حزم. راجع: د. عبد الكريم زيدان: المفصل في أحكام المرأة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م، سنة ١٤١٣هـ، ٣٢٠/٣ بتصرف.

المبحث الثاني

طه حسين وقضية الاختلاط

حين أطلق الدكتور طه حسين حكمه بأن الإسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب، فإنه لم يرد الحكم لذاته وإنما أراد ما يترتب عليه، ولذا عقب على الحكم السابق بأمثلة توضح مقصده وما يهدف إليه وهو مشروعية الاختلاط بين الرجال والنساء فكان من قوله مباشرة بعد ذكر الحكم السابق: «أباح الإسلام للمرأة أن تخرج من منزلها فتغشى مجالس العلم، ومساجد الصلاة ومواضع الرياضة في غير ما فتنة ولا فسوق»[1].

ثم أراد أن يضفي على الاختلاط في الأمثلة المذكورة صفة المشروعية فذكر النهي عن الخلوة بين المرأة والرجل الأجنبي فكان من قوله مباشرة: «عرف الإسلام من طبيعة الرجل والمرأة أكثر مما تعرف فحظر عليها أن تخلو بالأجنبي كما حظر ذلك على الرجل، وأي مصلحة عامة أو خاصة ينالها الإنسان من خلوة الأجنبي بالأجنبية؟ ليس هناك مصلحة ما. ولكن هناك مفاسد كثيرة إن لم تكن متحققة فهي

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤١، ٤٢.

وامتدت المعركة خارج أروقة الجامعة حتى تناولت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة المساجلات والمناظرات في هذا الشأن، وكان من ذلك أن رغب محرر جريدة المصري إلى الدكتور طه أن يكتب برأيه إلى الجريدة في هذا الموضوع فكان مما كتبه:

[**أولاً**: لا أعرف في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله نصًّا يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن.

ثانيًا: لا أعرف أن شيئًا حدث في الجامعة يخيف من الفتنة ويدعو إلى الاحتياط بالتفرقة بين الفتيان والفتيات في قاعات الدرس، وأنا أعلم أن سيرة الجامعيات والجامعيين حسنة لا غبار عليها، وهي في كلية الآداب بنوع خاص مرضية كل الرضى، يرضى عنها الأساتذة، وترضى عنها الأسر، وترضى عنها السلطات الجامعية.

ولو أحست الأسر شيئًا يخاف لنبهتنا إليه، ولو أحسسنا نحن شيئًا يخاف لاحتطنا له؛ ولكن الأمور تجري على خير حال، وربما كانت إثارة هذا الموضوع شرًا في نفسها بأنها تلفت إلى ما لا يلتفت أحد إليه، فالطالبات والطلاب في الجامعة منصرفون إلى الدرس والتحصيل، فلا ينبغي أن يثار لهم ما يصرفهم عن الدرس والتحصيل.

ثالثًا: إن الذين يطالبون بالفصل بين الفتيات والفتيان لا يحققون ما يطلبون ولا يقدرون نتائجه، فإن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقتضي أن يشتد الاتصال بين الرجال والنساء، ولا سبيل إلى مقاومة هذه الطبيعة، كما لا سبيل إلى مقاومة كل ما يقتضيه التحول الحديث في حياتنا على اختلاف فروعها.

في سيرة الشباب ما يدعو إليه... إلخ][1].

والدكتور ـ غفر الله له ـ يعتمد في تقرير رأيه على نقاط أربع لا يسلم له بها، وهي:

١ ـ أنه لا يجد في الدين نصًّا يحرم الاختلاط.

٢ ـ أنه لا يجد داعيًا لمنع الاختلاط فالفتنة في نظره مأمونة.

٣ ـ أن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقضي أن يشتد الاتصال بين الرجال والنساء.

٤ ـ إنفاق الأموال في إنشاء جامعات خاصة بالفتيات مهلكة للأموال ومضيعة لها.

ولقد رد عليه علماء الأزهر آنذاك وفندوا تلك الدعاوى التي استند إليها.

فأجابوه على تبريره الأول بأن الدكتور يجعل من جهله وعدم معرفته بما في كتاب الله وسُنّة رسوله، حجة على إباحة اختلاط الفتيان بالفتيات؛ وأن عدم هدايته لنص في المسألة يستلزم عدم الوجود. واستدل العلماء بآيات من القرآن تدل على عدم مشروعية الاختلاط من مثل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾[2].

وأشاروا إلى أن السر في تشريع الحجاب يلزمه عدم الاختلاط بين الجنسين في حلقات الدرس، وفي غير ذلك من المجتمعات

---

(١) من مقال للدكتور بجريدة المصري الصادرة في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٣٧م، نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ١/٢٩٧، ٢٩٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

«ولماذا لا تضرب مصر مثلاً أعلى، وطرازًا حديثًا يجمع بين الآداب الإسلامية والثقافة الغربية، ونتلافى في أول سيرنا ما جربوه في آخر أمرهم وسيرهم»[1].

وأما تبريره الأخير بأن الدولة لا تملك الإمكانات المادية وإن ملكتها فإنفاقها في غير هذا السبيل ـ إنشاء جامعات خاصة للبنات ـ أولى، فيرد عليه بأن حفظ أخلاق الأمة أولى من أي مصلحة بل هو أساس المصالح، إذ أنه لا بقاء لأمة بغير أخلاق. وإنفاق الأمة النفقات في سبيل الحفاظ على الأخلاق لا يقل بحال عن إنفاقها في سبيل الدفاع عن الوطن وتحقيق الأمن.

دفاع وإصرار:

الحق أن موقف الدكتور من قضية الاختلاط لم يكن موقفًا عارضًا، فحين واجه العلماء وذكروا له أغاليطه وأخطاءه، لم يتراجع؛ بل زاده الأمر إصرارًا على رأيه ودفاعًا عنه.

فيكتب في جريدة المصري جوابًا على سؤال محررها عن قضية الاختلاط ما نصه:

«أقول لك في صراحة لا تحتمل لبسًا ولا تثير شكًّا، ولا تحتاج إلى تأويل: إن هذه المسألة التي أثيرت أخيرًا والتي تتصل بأخلاق الجنسين في الجامعة مسألة سخيفة لا أكثر ولا أقل. ومن الإثم في حق الذوق، وفي حق الوطن أن يشاع الفساد في الجو المصري لمسألة

---

(١) من مقال الشيخ محمد عبد السلام القباني، الذي نشر بجريدة المصري يوم غرة المحرم سنة ١٣٥٦هـ. نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ٣١٦/١.

مزاحمتهم، فاجعل لنا ـ أي: عيِّن لنا ـ يومًا من الأيام نسمع ونتعلم أمور الدين.

ويستنبط من هذا الحديث ـ كما قال الإمام العيني ـ [1]: «جواز سؤال النساء عن أمور دينهن وجواز كلامهن مع الرجال في ذلك وفيما لهن الحاجة إليه».

فهذا الحديث يدل على أن تعليم النساء يكون على حدة ووحدهن دون اختلاط بالرجال، إذ لو كان الاختلاط لسماع العلم وتعلم أمور الدين سائغًا، لما طلبن من النبي ﷺ أن يعين لهن يومًا خاصًا بهن يجتمع فيه بهن يعلمهن أمور الدين. وكذلك لو كان اختلاطهن بالرجال سائغًا لتعلم أمور الدين لما جعل لهن النبي ﷺ يومًا وحدهن عندما طلبن ذلك منه.

ويستفاد من الحديث أيضًا أنه لا يسوغ الاختلاط في التعليم عن طريق جعل النساء خلف الرجال كما هو جائز في الصلاة والله أعلم][2].

ويقول الشيخ جاد الحق[3] في هذا الموضوع أيضًا: (واختلاط

---

(١) العيني: هو الإمام بدر الدين العيني صاحب كتاب عمدة القاري بشرح صحيح البخاري توفي سنة ٨٥٥هـ. راجع: مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، ص٣٤.

(٢) د. عبد الكريم زيدان، المفصل في أحكام المرأة ٤٣١/٣، ٤٣٢.

(٣) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق من مواليد بطرة مركز طلخا بمحافظة الدقهلية سنة ١٩١٧م. نال العالمية من كلية الشريعة سنة ١٩٤٣م، ودخل تخصص القضاء الشرعي ونال إجازته سنة ١٩٤٥م، تدرج في العمل والوظائف حتى عين مفتيًا سنة ١٩٧٨م ثم وزيرًا للأوقاف سنة ١٩٨٢م ثم شيخًا للأزهر في نفس العام. جريدة الشروق جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

المبحث الثالث

طه حسين وقضية المساواة بين الرجل والمرأة

كما تحدث طه حسين عن التبرج وتبريره والاختلاط وتزينه، فقد خاض في قضية المساواة بين الرجل والمرأة، وتكلم فيها بألفاظ تشعر بالتأييد لمن ينادون بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

ففي سياق حديثه عن بعض جهود المفكرين في معالجة قضايا المرأة قال ما نصه: (وقد برأناهن نحن من الضعف ورأينا فيهن لنا أمثالاً وأندادًا وأخذنا أنفسنا بأن نسير معهن سيرتنا مع أنفسنا إكبارًا لهن، واعترافًا بحقهن في هذه المساواة التي يحرصن عليها ولا نبخل بها نحن بها لأنا نراها حقًّا مقررًا لا معنى للمناقشة فيه)[1]، وأكبر الظن أن الدكتور لا يقصد بالمساواة التي يعترف بها للمرأة المساواة في الأحكام الشرعية ومنها التي تثبت بها الحقوق والواجبات فهذه يعترف بها القاصي والداني، ويعرفها كل من له صلة بشرائع الإسلام.

(فالمرأة كالرجل مكلفة بتكاليف الشريعة ومخاطبة بأحكامها، وإذا كان مناط التكليف والخطاب بأحكامها البلوغ والعقل، فإن المرأة

---

(١) د. رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص٧٤.

أن نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل غالبًا، لأنه المسؤول عن النفقة كما قدمنا، فهي إذا تزوجت أخذت منه المهر واستحقت عنده النفقة ومن الظلم أن تسوى معه في الميراث بعد تحميله هذه الواجبات»[1].

وقديمًا تمنت النساء أن ينلن مثال ما ينال الرجال أو يعطوا مثل ما أعطوا فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾[2] (روى الترمذي عن أم سلمة[3] أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾... وقال قتادة[4]: كان الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان فلما وُرّثوا وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾)[5].

---

(١) محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: دار الدعوة، ط١، سنة ١٤١٣هـ، سنة ١٩٩٣م، ص١٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية واسمها هند وكان أبوها يعرف بزاد الركب. زوج النبي ﷺ وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، هاجرت إلى الحبشة والمدينة. أسد الغابة ٣٥١/٦.

(٤) قتادة بن دعامة الدوسي. تابعي، كان ثقة مأمونًا حجة في الحديث روى عن أنس بن مالك والحسن البصري، كان يقول بشيء من القدر، توفي سنة ١١٨هـ أو سنة ١١٧هـ على خلاف. الطبقات الكبرى ٢٦٣/٥ وما بعدها.

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٢/٥.

المبحث الرابع

تقييم آراء طه حسين في قضايا المرأة

من خلال قراءتنا لآراء طه حسين في القضايا المشار إليها أستطيع القول: إن تلك الآراء جاءت موافقة لمخططات المبشرين الذين يكيدون للإسلام والذين رأوا في قضايا المرأة بابًا واسعًا ومرتعًا خصبًا لإثارة شبهاتهم، وسبيلاً ممهدة لتحقيق مخططاتهم.

(ففي سنة ١٨٩٤م أي: بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بحوالي اثنتي عشرة سنة ظهر في مصر كتاب أصدره صليبي حقود، أظهره محتميًا بالنفوذ البريطاني الذي أمَّن له الطريق نحو طعن الإسلام وأهله، ذلكم هو المحامي المصري (مرقص فهمي) وكتابه هو «المرأة في الشرق» دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة، وهي:

أولاً: القضاء على الحجاب الإسلامي.

ثانيًا: إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها.

ثالثًا: تقييد الطلاق، وإيجاب وقوعه أمام القاضي.

الأول الذي يزعم البعض أنه من تأليف الإمام محمد عبده[1].

وذلك لما عرف عن قاسم بأنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يتمكن من إضفاء الصبغة الفقهية على كتابه، لكن بعض الباحثين[2] «رجح أن الأفكار إنما كانت للشيخ وأن الإنشاء والصياغة إنما كانت صنيع قاسم، والمعروف عن الشيخ محمد عبده أنه كان يملي الأفكار ويوجه إليها أكثر مما يكتب»[3]. ولو صح هذا الكلام فإنه لا يستبعد أن يكون لذلك المؤثرين ـ الدراسة في فرنسا والتأثر بفكر الإمام محمد عبده ـ أثر في تكوين فكر الدكتور طه حسين فيما يتعلق بقضايا المرأة، فقد تأثر الدكتور طه بالأستاذ الإمام في أيام الطلب الأولى حين استمع إلى دروسه بالأزهر وحين كان يقرأ آثاره في الإجازات الصيفية. أما أثر دراسته في فرنسا فواضح غير منكور ولا أدل. على ذلك من أن طه كان يرى حرمة زواج المسلم من الكتابية فلما ذهب إلى فرنسا لم يكتف بتغيير رأيه حتى ضم إلى القول العمل فتزوج بزوجته النصرانية سوزان!!

رأي المستشرقين في قضايا المرأة:

اختلفت آراء المستشرقين في قضايا المرأة حسب توجهاتهم ومنطلقاتهم، فرجل مثل غوستاف لوبون عقد فصلاً في كتابه حضارة

---

(١) ممن قال ذلك: داود بركات رئيس تحرير الأهرام بجريدته الصادرة في ٤ يناير سنة ١٩٢٨.

(٢) هو الدكتور السيد محمد فرج.

(٣) محمد بن إسماعيل المقدم: عودة الحجاب ٤٧/١ نقلاً عن «المؤامرة على الأسرة المسلمة» للدكتور السيد محمد فرج، ص٧٦، ٧٧.

[وقد سمح محمد ﷺ للنساء بحرية التصرف في أموالهن كما أنه حسَّن مركزهن من ناحية الميراث، ولكنه لم يقض على ذلك الاتجاه العام الذي كان ينزل النساء منزلة ثانوية في تقدير المجتمع ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (أعني مهورهن)[1]، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[2] ولا يزال المبدأ القائل بتفوق الذكور الطبيعي ـ والذي يتخذ مبررًا لامتيازاتهم القانونية والاجتماعية ـ معمولاً به في بلاد الإسلام إلى هذه الساعة حيث لا تبرح الحرية المفرطة للمرأة موضع التخوف والريبة، وحيث لا يقر الإجماع إلا بغاية البطء تمثل العرف الأوروبي من الناحية السطحية فقط دون إدخال أي تغيير كبير على الاتجاهات الأساسية، التي تنظم العلاقة بين الجنسين عامة ومركز المرأة الاجتماعي بوجه خاص.

. . . . وعند ابتداء عهد هارون الرشيد كان قد تم حجب المرأة عن الحياة العامة والاجتماعية فلم يعد يجوز أن يرى المرأة الحرة إلا زوجها وأقاربها الأقربون من المحارم. وعلى حين أن هذا الحجاب قد أدى فيما يرجح إلى تسهيل الاختلاط بين الطبقات، فإنه أعجف الحياة الاجتماعية إلى درجة جديرة بالنظر، كما تولد عنه أيضًا نشوء أحوال قوية المشابهة لما كان يسود العهود العهيدة من حيث إن الرجل المتعلم

(١) تفسير المستشرق قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالمهور تحكم لا يستقيم فالآية أعم من ذلك فهي تشمل المهور والنفقات التي تتطلبها القوامة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

ولا خير لها أن تكون على مبدأ الفروسية الكاذبة ملكًا في مباذل السوقة)[1].

بعد هذا الغمز القبيح يردد مزاعم كاذبة وخيالات مريضة فيذكر أن القرآن يقرر أن مكانة المرأة ثانوية ويدلل على ذلك بآية من القرآن لا تؤيد دعواه. ثم هو يحاكم الإسلام بفعل المسلمين بأنهم يفضلون الذكور على الإناث[2].

ثم يتحدث عن حرية المرأة المفرطة في الغرب وتخوف العرب والمسلمين منها؛ وكأنها حق يجب التزامه وخير لا يجب الانصراف عنه، ثم ينعى على بلاد الإسلام تباطئها في تقبل العرف الأوروبي.

أما اضطرابه في أمر الحجاب فأعجب من العجب، فيدعي أن الحجاب صان المرأة عن غير محارمها ثم يدعي أن الحجاب سهل الاختلاط بين الطبقات وأنه أعجف الحياة الاجتماعية فأي فكر مضطرب يحمله هذا الرجل.

ومن هنا نستطيع القول بأن آراء الدكتور طه حسين في قضايا المرأة تسير في ركاب أفكار المتطرفين من المستشرقين وتتسق معها على حين أن نفرًا من المستشرقين أنصفوا الإسلام في نظرته للمرأة مع مخالفتهم له في المعتقد.

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩م، ص١٣٩.

(٢) أصدق ما يقال تعقيبًا على هذا: رمتني بدائها وانسلت.

(civilization) فمرة ترجمت بالثقافة ومرة بالحضارة، وهكذا][1].

والالتباس المؤدي إلى الحيرة والاختلاف مرده إلى الخلاف حول دلالات المصطلح.. (فقضية المصطلح تكاد تكون من أدق القضايا في عصرنا فالمصطلح كما هو معروف هو مفتاح العلم والثقافة... وبدون القدرة على استيعاب المصطلحات وتوليدها وفهمها لا يمكن استقرار علم ولا فهم)[2].

ولكي نمضي مع البحث بترتيبه الطبيعي أبدأ بتعريف الحضارة في اللغة.

الحضارة في اللغة:

تأتي الحضارة على عدة معانٍ[3]:

أ ـ يقال: حضر يحضر حضورًا وحضارة: ضد الغياب.

ب ـ يقال: حكمت فلانًا بحضرة فلان، أي: بوجوده، كما يقال: كان بحضرة ماء، أي: عنده.

جـ ـ يشيع اليوم لفلان حضور متميز، أي: وجود متميز.

كما يقال: رجل حاضر وقوم حضور، وحُضر: ضد الغياب.

د ـ الحضارة: الإقامة في الحضر، أي: المدن. وقد أنشد

---

(١) د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٨٠ ذو القعدة سنة ١٤٢١هـ ٦١/١.

(٢) سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي... وسمة حضارية، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٧٨ رجب سنة ١٤٢١هـ، ص٢٩.

(٣) ابن منظور: لسان العرب ١٩٦/٤، المعجم الوجيز، ص١٥٧، ومختار الصحاح، ص١٤١، ١٤٢.

أما على المستوى الأرفع فإن للثقافة أوجهًا ثلاثة، هي:

تنمية الفكر وترقية الحس النقدي، تكوين الحس الجمالي وإرهاف الذوق، الاستمساك بالقيم وغرس الحس الأخلاقي.

وإذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية فإن الحضارة تنزع إلى العمومية.

فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم لا يشاركها في شأنها أحد، تحمل صبغة هذه الأمة، وتتسم بسماتها، ووراء كل حضارة دين وقد تصب عدة ثقافات في نهر حضارة واحدة)[١].

«ومن هنا عرفوا الحضارة بأنها تراث مشترك يجمع بين جميع الشعوب، قديمها وحديثها، وأنها إرث إنساني، في نمو لا ينقطع، مثل بحر زاخر بالمياه والأمواج، وله روافد عديدة تصب فيه على الدوام، تلك الروافد هي الثقافات القومية»[٢].

لكن بعض المثقفين (يجعل من المصطلحين (culture - civilization) مترادفين كما لدى تايلور[٣]؛ وهناك من جعل Civilization قاصرًا على

---

(١) د. أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، بحث ضمن كتاب الإسلام والغرب كتاب العربي رقم ٤٩ يوليو سنة ٢٠٠٢، ص١١٦.

(٢) د. نعمان السامرائي: نحن والحضارة والشهود، ص٦٨.

(٣) تايلور توم (١٨١٧ ـ ١٨٨٠) ناشر وكاتب مسرحي إنجليزي أشهر مسرحياته ابن عمنا الأمريكي ١٨٥٨ التي مثلت على مسرح فورد بواشنطن عندما اغتيل لنكولن، ومن مسرحياته الأخرى التي تربو على المائة «تذكرة المسافر ١٨٦٣»، «وجوه وأقنعة ١٨٢٢» التي كتبها مع صديقة تشارلس ريد. الموسوعة العربية الميسرة ٦٦٩/٢.

إقامة علاقة مع بني الإنسان، في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة، وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

للرجل الوفي لزوجه أن يقاومها، ولذلك سوف ينغمس في الخطايا، وهو يبيح لنفسه أن يكذب على الجامعة، ولكنه لا يبيح لنفسه أن يكذب على امرأته كذبًا متصلاً، فيزعم لها أنه وفي أمين، فيجيبه طه حسين وقد اضطرب قلبه وأخذه غضب عميق لا يكاد يجهر به ولا يكاد يخفيه: أنت تعلم أنك ستأثم في أوروبا ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها، وتشتد في هذا السفر، فأنت إذن تريد الإثم وتتعمد الخطيئة وتصر على المعصية.

ولكن كلمة المعصية هذه لم تكد تبلغ أذنيه ـ يعني صديقه ـ حتى جن جنونه واندفع في ضحك عريض يقول طه: وأنا واجم ذاهل مبهوت أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخبل الذي مسه ثم تثوب إليَّ نفسي قليلاً قليلاً، وإذا أنا أحس العمامة التي على رأسي وأحس الجبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمي إسباغًا، وأذكر أني شيخ وأني أزهري، وأني تحدثت إلى صاحبي حديث رجل الدين، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول، ويرى أن أمله فيّ قد خاب، وأن اختلافي إلى الجامعة واستماعي للأساتذة الأوروبيين وتحدثي إليه واستماعي منه، وما قرأنا من كتب أوروبية وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم، وما كنت أرمي به من المروق وحب البدع وما كنت أجد اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع جديدًا كل هذا لم يكن إلا غشاءً رقيقًا وطلاء يسيرًا لا يكاد يثبت للتجربة الأولى، فإذا جد الجد، وكان أول درس من دروس الحياة العملية التي ليست كلامًا ولا غرورًا، فأنا الشيخ الأزهري القح الذي حفظ ما حفظ من كتب الدين وورث ما ورث من آثار القرون، واحتمل في قلبه الضئيل، وعلى كتفيه

طبيعته وللغرب زيًا يقتضيه جوه وإقليمه، فليس تبديل الزي الشرقي بالزي الغربي في الشرق صادرًا إلا عن نفس مرتبكة مختلطة ومزاج غير منتظم)[1].

وفي مقال آخر[2] يقول:

(قَلَّ بين أبناء مصر الذين يتعلمون في أوروبا أو يصطافون بها ـ وهم كثيرون ـ من يستبقي على رأسه العمامة فإلى هؤلاء المصريين الذين سيقرأون كلمتنا في أوروبا نتقدم بالنصيحة الخالصة ألا يبيعوا كرامتهم بثمن بخس وألا يبلغ الضعف في نفوسهم هذا القدر المخجل).

يسافر إلى فرنسا ويختلف إلى جامعاتها ومعاهدها ويستمع إلى أساتذتها ثم (يوازن بين حياته هذه الجديدة وبين حياته القديمة ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظًا من النجاح والتوفيق)[3].

ويمكث طه عامًا في فرنسا ثم يرد إلى مصر لأزمة مالية ألمت بالجامعة فيمكث في مصر قرابة أربعة أشهر كانت شديدة القسوة عليه كأنها أربعة قرون.

سجل طه مشاعره في هذه الفترة في شبه يوميات نشرتها مجلة السفور نورد طرفًا منها لنصور أسفه وحزنه على رجوعه إلى مصر يقول:

---

(١) الجريدة في ٣٠/١٠/١٩١٠م.
(٢) الجريدة في ٢/١١/١٩١٠م.
(٣) طه حسين: الأيام ٣/٨٠.

طه حسين والحضارة اليونانية:

استطاع طه حسين أن يدرس الكثير من آثار اليونان إبان دراسته بأوروبا، الأمر الذي أثر في فكره وفي وجدانه، حتى أنه كان ينظر إلى اليونان على أنهم آباء الحضارة الحديثة، وآباء عهد النهضة الأوروبية فكان يقول: «لا أستطيع أن أخطف سارتر[1] خطفًا من جذوره، إذا ابتغيت لوطني أن ينهض ويلحق بركب الحضارة، عليَّ أن أقوده إلى جذور النهضة العالمية الحاضرة. القائلون بالتراث في بلادنا ينسون أو يتناسون اليونان، بذلك هم يجهلون أو يتجاهلون، والنتيجة سواء، أن الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها نقلت اليونان»[2].

ولذا استأثرت الثقافة اليونانية بالجانب الأكبر من إنتاجه بعد عودته من أوروبا، ومما ساعده على هذا التوجه عمله بالتدريس في الجامعة القديمة أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني.

«وقد اعتقد طه حسين أن نظرية المعرفة اليونانية، التي قامت عليها حضارة قوية في الزمن القديم لا تزال تقوم عليها حضارة قوية في أوروبا وأمريكا في العصر الحديث، بل يذهب إلى أن نظرية المعرفة اليونانية هي مصدر الحياة العقلية التي لا تزال الإنسانية متاثرة بها إلى اليوم وإلى غد وإلى آخر الدهر، وأن قادة الفكر اليوناني واللاتيني الذين ترجم لهم يلخصون تاريخ العقل الإنساني وما اعترضه من

---

(١) ساتر: هو جان بول سارتر. فيلسوف فرنسي من كبار الدعاة إلى الوجودية. ولد سنة ١٩٠٥م حاضر في جامعة القاهرة في نهاية العقد السابع من القرن الماضي توفي سنة ١٩٨٣م. راجع: د. مصطفى غلوش: الوجودية في الميزان: رسالة الإمام، وزارة الأوقاف عدد ٤ سنة ١٩٨٥، ص٥٣.

(٢) نقلاً عن د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧٠.

على التراث اليوناني ـ والعقل المصري فرقًا جوهريًا)[1].

ولذا يعلن طه بكل صراحة أنه (مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكارًا، ولن تخترع اختراعًا، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة)[2] وحتى لا تلتبس الأمور على الأفهام أو يفهم الناس فهمًا لم يقصده ولم يرد إليه أبان عن قصده بوضوح وفي غير التواء ولا مواربة فقال:

«لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ونكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب، من زعم لنا غير ذلك، فهو خادع أو مخدوع»[3].

ويعلل طه هذا التوجه بأننا [مدفوعون إلى الحياة الحديثة دفعًا عنيفًا تدفعنا إليها عقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التي لا تختلف في جوهرها قليلاً ولا كثيرًا منذ العهود القديمة جدًّا عن عقول الأوروبيين وطبائعهم وأمزجتهم وتدفعنا إليها المعاهدات التي أمضيناها وأبرمناها، والالتزامات التي قبلناها راضين، بل بذلنا في سبيلها جهودًا لا تحصى وضحينا في سبيلها بالأنفس الذكية والدماء الطاهرة وأنفقنا في سبيلها كرائم الأموال،

(١) المرجع السابق، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٦.

(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

هذه اللحظات قصة تحت عنوان: «العذراء المفتونة» وأخرى تحت عنوان: «الأم المفتونة» وثالثة تحت عنوان: «الحبيب».

ثم هو كذلك يكتب كتابًا بعنوان «من أدب التمثيل الغربي»[١] وهو تلخيص لعدد من القصص التمثيلي الأوروبي.

وقام طه بالترجمة الكاملة لبعض القصص الأوروبي كما فعل بقصة القدر[٢] للمفكر الفرنسي «فولتير» وكذلك يترجم قصتي «أوديب وثيسيوس»[٣] لأندريه جيد وهم قصتان استوحاهما جيد من الأساطير اليونانية ولم يكن إعجاب طه حسين بالأوروبيين مقصورًا على إعجابه بالأدب الأوروبي فحسب إنما بكونه يدعو إلى الانفتاح على الغرب في كل المجالات، تلك الدعوة التي أطلق عليها ثقافة البحر الأبيض المتوسط.

يُسأل طه في آخر حياته عن علاقة مصر بثقافة البحر الأبيض المتوسط، فيجيب:

[لماذا يخفيكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا، أم أنكم صدقتم أنه بحر الروم، إنه بحرنا كما هو بحرهم، وهو ليس عازلاً مائيًا بين الأمم بقدر ما هو وسيلة اتصال ليس لدي جديد في هذه النقطة. فرنسا وإيطاليا واليونان يخصوننا كما نحن نخصهم، قرابتنا لهم قرابة حضارية، من المستغرب أن يضمنا معهم شاطئ واحد ولا نتأثر بهم أو نؤثر فيهم... توجه المصريين شطر أوروبا من اليونان واللاتين حتى

(١) طه حسين: من الأدب التمثيلي اليوناني، الأعمال الكاملة المجلد ١٥.
(٢) طه حسين: القدر الأعمال الكاملة المجلد ١٥.
(٣) طه حسين: أوديب وثيسيوس الأعمال الكاملة المجلد ١٥.

ولقد كان طه حسين في توجهه هذا متأثرًا بأستاذه لطفي السيد الذي كانت دعوته تتلخص في أمرين:

(**أولهما**: أن تكون مصر للمصريين وأن تنفصم الرابطة بينها وبين الخلافة العثمانية.

ثانيهما: أن تأخذ مصر عن الغرب كل مظاهر التقدم والحضارة ولذلك فقد دعا إلى الديمقراطية النيابية وإلى نشر التعليم العالي... إلخ.

ولقد شاركه في الدعاوى ذاتها طه حسين تلميذه النجيب)[1].

تأثر طه الشديد بمفكري الغرب:

لقد تأثر طه حسين بكثير من مفكري الغرب عامة والمفكرين الفرنسيين على الخصوص، ولقد مر بنا كيف تبنى طه حسين منهج ديكارت الفلسفي الذي يقوم على الشك وإنكار المعتقدات السابقة واستقبال البحث خالي الذهن. ثم هو يتابع هؤلاء المفكرين في حرية الأدب ـ أعني عدم الالتزام بالأخلاقيات والثوابت المميزة للأمة ـ إلى غير ذلك من مظاهر التأثر.

ولئن ذهبنا ندلل على من تأثر بهم طه حسين من الفرنسيين خاصة لطال بنا المقام لكننا نقتبس من بحث الأب قلتة[2] هذه السطور:

---

(١) صلاح عبد الصبور: ماذا يبقى منهم للتاريخ، ص٣١.

(٢) كمال قلتة: طه حسين وأثر الفرنسية في أدبه نقلاً عن أنور الجندي: طه حسين وفكره في ميزان الإسلام، ص٤٥.

رسالة جامعية كان يعدها طه عن ابن خلدون، وتوفي المشرف أثناء الإشراف وتأثر طه حسين كثيرًا لموته.

طه حسين ورينان[1]:

كانوا في فرنسا يطلقون على طه حسين «رينان الإسلام». أما عن رينان نفسه فهو كما قال طه حسين: «كان يعبد العلم وكفر وألحد بآلهة الناس»، كما كانت حياته صورة من الشك والتقلب حتى قيل إنه لم يكن يعرض له ـ رينان ـ في عصره الأخير فكرة إلا قبلها ورفضها في وقت واحد حتى أحدث في العقل الفرنسي في ذلك الوقت اضطرابًا شديدًا.

طه حسين وسانت بيف[2]:

يقبل طه حسين مذهب سانت في قطع الأدب عن الدين والعقيدة كما يتفق معه على الرفض لتقديس السلف والقدماء.

طه حسين وبودلير[3] وأندريه جيد[4]:

ترجم طه أسوأ قصائد ديوان بودلير (زهور الشعر) ويقول: إنه

---

(١) سبق ترجمته، ص١٠٥.

(٢) سانت بيف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) كاتب وناقد فرنسي كبير، له دراسات تحليلية في الأدب الفرنسي عميقة، وله منهج خاص في تحليل شخصية الأديب، وهو صاحب أحاديث الإثنين التي هي عبارة عن مقالاته النقدية، د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد ١٢٩٢/٢.

(٣) بودلير: (١٨٢١ ـ ١٨٦٧م) كاتب وشاعر فرنسي، اشتهر بالشعر الإباحي. راجع: د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد ١٢٨٨/٢.

(٤) أندريه جيد: سبق التعريف به، ص١٠٨.

الفرنسي المسيو ماسينيون يوم أدى زكي مبارك[1] امتحان الدكتوراه عن رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ويقول:

«إنني حين أقرأ بحوث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت إلينا... وحسين أقرأ بحوث زكي مبارك أشعر بأنني أواجه شخصية جديدة»[2].

ولذا كان من افتتان طه حسين بأوروبا عامة وفرنسا خاصة أنه حث على اقتفاء أثرها في التعليم حتى نحظى بالنجاح كما حظي به الفرنسيون[3].

تقييم رأي طه حسين في الحضارة الغربية:

لا يخفى على منصف أن الدكتور طه حسين حين دعا إلى أخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب لم يكن موفقًا في هذه الدعوة التي تصور الاندفاع الكامل إلى الغرب وحضارته؛ وهذه النظرة تبناها جماعة من المثقفين العرب في النصف الأول من القرن الماضي (الذين تربوا في المدارس الأجنبية فجهلوا ثقافة وطنهم وأجدادهم، بمقدار ما تشبعوا بثقافة أوروبا لقد انعزلوا عن الحياة العربية واكتفوا بأن يعيشوا على هامشها)[4].

---

(١) زكي مبارك: أديب مصري ولد بسنتريس سنة ١٨٩١م، وتعلم بالأزهر وحصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية توفي سنة ١٩٥٢م. راجع: محمد الدسوقي: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٨.

(٢) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢١٠.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص١٥٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣٨١.

(٤) حبيب أمين كوراني: تفاعل الفكر الإسلامي بالفكر الغربي في البلاد الإسلامية، بحث ضمن كتاب: الشرق الأدنى (مجتمعه وثقافته) ت. كوليرينج، الهيئة المصرية للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، ص٢١٠، ٢١١.

فيتعرضوا لخطوب أشد هولاً وأعظم أثرًا من الخطوب التي تتابعت عليهم، **والثانية**: أن يستيقظوا حقًّا ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة وأنداد للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى...

وسبيلهم إلى هذه اليقظة واحدة لا ثانية لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا: إنهم يذكرونه بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه حق الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين هذه واحدة.

والثانية: أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالاً على المستأثرين به، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء)[1].

وهذه النظرة ليست النظرة التوفيقية (التي تحاول أن تقوم بعملية تصالح بين شيئين هما بطبيعتهما متصارعان ولا أقول: متعارضان (الحضارة الإسلامية ـ الحضارة الغربية ـ) فالأولى حضارة دين + موقف خارجي من الحياة أو بعبارة أخرى: هي ممارسة للحياة تهديها عبادة دينية. أما الحضارة الغربية فهي حضارة عقل + صناعة إنسانية أو بعبارة أخرى: عقل بشري يقوم بعملية الاستنباط ويد تحول هذا الاستنباط إلى واقع)[2].

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام: المجموعة الكاملة ٧/٣٦٠، ٣٦١.

(٢) د. عبد الحميد إبراهيم: نحو وسطية معاصرة حلاً للأزمة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ أبريل ومايو ١٩٩٢م، ص٣٣ ـ ٣٥ بتصرف.

من جهة ولتوعيته حضاريًا ـ من جهة أخرى ـ ليدرك الفرق بين مصطلحين هامين مختلفين كل الاختلاف وهما مصطلح (التغريب) و(التحديث) فلا علاقة بينهما البتة.

فالأول يعني أن غايتنا هي أن نكون أشباه الغربيين حتى في سلبياتهم، والثاني يعني أن (التحديث) ـ أي: امتلاك أحدث وسائل العصر ـ هو الهدف سواء جاء التحديث من أوروبا أم من اليابان.

والأول: ذوبان وتبعية، والثاني: معاناة وصراع حضاري بين متسابقين، ومن شأن الصراع أن يحفز إلى العمل والجد ومعرفة كل ما لدى الخصم مع الحفاظ على الذات.

وثانيهما: فهو موقف (البناء الذاتي) لحضارة (إسلامية حديثة) تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه الشرع وتحافظ في الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد الإسلامية مفرقة بين ما هو حرام وما هو حلال... متمسكة بدينها بوعي وإصرار وإخلاص مؤمنة بصلاحيته الكاملة لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق، سواء في: العقيدة الصحيحة أو في الاقتصاد أو في السياسة أو في الإعلام أو في الفن والأدب أو في علوم النفس والاجتماع والتربية)[1].

ولعل كلام الدكتور الأخير بمثابة تعديل الاتجاه أو التوبة الفكرية عن مبدأ الذوبان في الحضارة الغربية[2].

---

(١) د. عبد الحليم عويس: موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥، ص٢٠.

(٢) لأن هذا الكلام جاء في كتابه «مرآة الإسلام» الذي كتبه سنة ١٩٥٩م وهو من أواخر مؤلفاته.

وأصبحوا من أبنائها واتخذوا تقاليدها وسننها لهم تقاليدًا وسننًا والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها قد خضعت لسلطان الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر، ومقاومة متصلة، فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف وإخضاعها للحكم العرفي.

والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون[1]، وفي ظل الدول المختلفة التي قامت بعده][2].

وهذه الفكرة لم يتفرد بها طه حسين فقد قال بها عالم الآثار ماسبيرو عام ١٩٠٨م «الذي وضع نظرية لربط مصر المعاصرة بمصر الفرعونية في محاولة ملفقة قوامها أن مصر قاومت كل الغزاة وأثرت فيهم بما فيهم العرب وأن المصريين أقباط أصلاً، وأن التراث الفرعوني القبطي صمد في وجه الفتح الإسلامي، وأن الأقباط حافظوا على نقاوة دمهم بينما اختلطت دماء المسلمين مع دماء شعوب أخرى»[3].

وكذلك فعل المفكر الفرنسي جوستاف لوبون فقد ذكر «أن عشرة شعوب قد افتتحت مصر، وكانت مصر مقبرة للجميع وما استطاع فاتح أن يستقر فيها، ولم يترك فيها واحد منهم أثرًا من دمه، وهي اليوم عربية دينًا ولغة ولكنها بقيت فرعونية من حيث الدم، وأن مصر لما

---

(١) أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية وهو أول ولاة مصر والشام الذين لم يكونوا تابعين للخلافة إلا بالاسم، ولد سنة ٢٢٠هـ سنة ٨٣٥م، وتوفي سنة ٢٧٠هـ سنة ٨٨٤م، دائرة المعارف الإسلامية ١/٤٨٧، ٤٨٩.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص٢٦، ٢٧.

(٣) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢٢٢، ٢٢٣.

أكانت ميتة حين أساغت الديانة المسيحية وطبعتها بطابعها الخاص؟ أكانت ميتة حين أساغت الإسلام وطبعته بطابعها الخاص؟»[1].

لقد أفرط طه حسين في الغلو في شأن الفراعنة والاعتزاز بالنسب إليهم حتى صرح ذات يوم لصحيفة المكشوف البيروتية قائلاً:

[إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربيًا، ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام وانس نفسك واتبعينا، ولا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي، مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد وأؤكد قول أحد الطلبة القائل:

«لو وقف الدين الإسلامي حاجزًا بينا وبين فرعونيتنا لنبذناه» إن المصري مصري قبل كل شيء فهو لم يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف][2].

ولذا كان طه غير راض عن تدريس التاريخ المصري القديم؛ إذا كان يرى في المناهج المقررة أنها دون المطلوب وأنها أقل مما ينبغي ولذا فهو يعتبر التقصير في ذلك إجرام من قبل وزارة المعارف[3].

ولذا أوصى بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية في مصر، لأنهما السبيل لفهم الحضارة المصرية القديمة التي يعرف عنها الأوروبيون أكثر

---

(١) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة ٦٧٨/٢، ٦٧٩. بتصرف.
(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٣٣.
(٣) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ٩٩/١٢.

بالحديث عن التاريخ المصري القديم عناية كبيرة. فاسم المجلة واسم الدار التي تشرف على إصدارها والتي كان اليهود من ورائها هو «الكاتب المصري» ولقد شرح طه حسين الاسم في افتتاحية العدد الأول من المجلة فقال: (يقال: إن الشعب المصري أول من كتب بالقلم واتخذ الحرف رمزًا للكلام الذي يؤدي عن القلوب والنفوس والعقول ما يثور فيها من عواطف وما يضطرب فيها من الأهواء وما يخطر لها من الآراء وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصري القديم اسمًا لها وشعارًا واتخذت هذه المجلة التي تصدرها هذه الدار من الكاتب المصري القديم اسمًا لها وشعارًا أيضًا[1]، وهذه المجلة تستخدم برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث، ومن المهمة التي نهضت بها مصر منذ شاركت في الحضارة الإنسانية)[2].

وبالمجلة ذاتها يكتب أحد النصارى الذين يعملون بتحرير المجلة مقالاً يشرح فيه آيات الإعجاز في تمثال الكاتب المصري فكان من مقاله: (اتخذت دار الكاتب المصري لنفسها ومجلتها شعارًا، هو صورة ذلك التمثال المشهور الذي يعتبر من روائع الفن المصري القديم، ومن أفضل بدائعه وآياته، كما أنه شعار يرتبط بصميم القومية المصرية العريقة التي يسعى قادة الثقافة جاهدين إلى إحيائها، وإلى إذكاء الشعور بها. لهذا كان من حق القارئ أن يقف على بعض المعلومات الوجيزة عن هذا الشعار الموفق المختار. . .)[3].

---

(١) يشير طه إلى أن المجلة قد اتخذت من تمثال الكاتب المصري شعارًا.

(٢) طه حسين: برنامج، مجلة الكاتب المصري المجموعة الكاملة ١/١.

(٣) إسكندر أسعد: تمثال الكاتب المصري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٥٨٢/١.

حتى المسيحية والإسلام، لم يكد يغير دخولهما البلاد من أخلاقنا القومية إلا قليلاً)[1].

هذه الكلمات وغيرها كثير ينشر تحت رعاية طه حسين، مما يدل على رضاه عنها واقتناعه بها وهي متوافقة مع ما نادى به وحث عليه من إحياء النزعة الفرعونية والاعتزاز بها.

تقييم نظرة طه حسين عن الحضارة المصرية القديمة:

لقد التقت دعوة طه حسين إلى إحياء الحضارة المصرية القديمة مع توجهات المستشرقين وغيرهم من الغربيين فلقد كان إحياء الحضارات القديمة مرحلة من مراحل تغريب الأمة المسلمة فقد عمدوا إلى (إثارة النزعات الشعوبية في الأمم الإسلامية بقصد إضعاف وحدتها مثل الدعوة البربرية في شمال إفريقيا والفرعونية في مصر، والفينيقية في ساحل فلسطين ولبنان والآشورية في العراق)[2].

(وممن صرح بهذا الهدف من المستشرقين المستشرق الإنجليزي «جيب» الذي ألف كتابًا سماه «إلى أين يتجه الإسلام» يقول فيه: «من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة» وقد أعلن في بحثه هذا صراحة إلى أنه هدف إلى معرفة إلى أي مدى وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي

---

(١) رياض شمس: العناصر الثلاثة للقومية المصرية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٥٠٤/٣.

(٢) محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات، مجمع البحوث الإسلامية طبعة سنة ١٩٧٧م، ص٤٥.

حضارتهم ولا علمهم من دون الله من شيء][1].

ولقد جاءت السُّنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بما يتوافق مع ما أشير إليه من ذلك ما قاله ابن إسحاق:

وكان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحجر (مساكن ثمود) نزلها واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا من مياهها شيئًا، ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا**»[2].

هكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يعمر بن بشر، حدّثنا عن عبدالله بن المبارك أخبرنا معمر عن الزهري، أخبرني سالم بن عبدالله، عن أبيه أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم**»[3].

(ففي هذا الإرشاد النبوي توجيه عميق للمسلمين كي يكونوا دائمًا على وعي لما يرون ويسمعون، والمعروف أن في آثار القدامى متعة للسواح تملأ فراغهم بالطريف من الأخبار للماضين، وقد يضمون إلى المتعة بعض المعرفة إذ يتخذون من ذلك فرصة لدراسة التطورات

---

(١) د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، ص١١٦.

(٢) ابن هشام: مختصر سيرة ابن هشام، اختصار وتحقيق: لجنة السيرة النبوية بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٣ سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢/٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ الحديث: (٣٣٨٠) وأخرجه أيضًا في كتاب المغازي باب نزول النبي ﷺ الحجر الحديث (٤٤١٩)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم (٥٣٤٢) من مسند عبدالله بن عمر.

المبحث الثالث

طه حسين والحضارة الإسلامية

دأب الدكتور طه حسين عند الحديث عن حضارة الإسلام أن يؤكد أنها ورثت حضارة الفرس واليونان، والمسلمون في رأيه (صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القديم هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التي أزهرت أيام بني أمية وبني العباس والتي يحرص المحافظون منا عليها أشد الحرص. وهذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس، وببعضها الآخر من نصارى الروم)[1].

ولم يقصر الدكتور الإرث على جانب نظم الحكم والسياسة كما زعم الدكتور في أكثر من موضع[2] بل ورثوا الحضارات السابقة بجميع جوانبها (فالدولة الإسلامية لم ترث سياسة اليونان والفرس وحدها،

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٦٥/٩، ٦٦.

(٢) راجع: لطه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة ١٣٨/١٤، ١٣٩، من لغو الصيف إلى جد الشتاء، المجموعة الكاملة ٣١١/١٤، الشيخان، طبعة المعارف، ص١٩٢، الفتنة الكبرى (١) ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٢٧/٤، وغيرها.

للرومان من سياسة وفقه[1]، وإلى هذا الدين الإسلامي الكريم وما يدعو إليه من خير وما يحث عليه من إحسان ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام قد جاء متممًا ومصدقًا للتوراة والإنجيل)[2].

هذه المقارنة بين العقل الأوروبي والعقل الإسلامي هدف الدكتور من خلالها إقناع القارئ بأن حضارة أوروبا لا تخالف حضارة الإسلام فما كان المسلمون إلا نقلة للحضارة الأوروبية القديمة!

ويكرر الدكتور الدعوى ذاتها في ثياب مختلفة فيقول: «إن هذه البلدان القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والممتدة من العراق إلى سوريا ولبنان وإلى فلسطين ومصر، هذه البلدان لا تختلف في حضارتها عن حضارة أوروبا؛ لأن الحضارتين هما خلاصة أو نتيجة للحضارات القديمة التي انتقلت بطريق اليونان إلى أوروبا، فمستقبل الحضارة في الشرق والغرب ومستقبلها في أوروبا واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحدًا، وبعد كيف نستطيع في الشرق القريب أن نؤلف شعوبًا مستقلة ودولاً ذات سيادة وتجاري أوروبا في مدنيتها إن لم تأخذ بمبادئ حضارتها المادية».

والدكتور في كلامه هذا يغالط في حقيقتين:

أولاً: إنه لا يوجد شيء اسمه الحضارة العالمية، فحضارة الغرب هي حضارة مستقلة عن الحضارة الإسلامية لاختلاف العقيدة والمنهج.

---

(١) قمت بالرد على دعوى تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني في الفصل السابع من البحث.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٣٩/٩.

أولها: اشتراك أجناس مختلفة في صنعها مع اصطباغ الجميع بصبغة الإسلام.

ثانيها: أصبحت اللغة العربية اللغة الوحيدة للحضارة الإسلامية.

ثالثها: عدم استئثار العرب والمسلمين بالحضارة الإسلامية والعربية.

مكونات الحضارة في نظر الدكتور طه حسين:

حين أشفق كثير من المصلحين من دعوة الدكتور طه حسين إلى اقتباس الحضارة الغربية حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب، ردَّ الدكتور على معارضيه تخوفهم هذا بزعمه أن الحضارة مزيج من الخير والشر، وأنه لكي يستمتع الإنسان بالخير لا بد وأن يحتمل الشر ويصبر عليه، فحضارة المسلمين الأولى مثلها مثل الحضارة الغربية فيها الخير وفيها الشر يقول الدكتور طه شارحًا هذا المعنى بقوله:

[الذين يظنون أن الحياة يمكن أن تكون كلها خيرًا وبرًا وصلاحًا يخطئون خطأ عظيمًا، فالخير المطلق في هذه الأرض مستحيل، وقد أراد الله للناس أن تكون حياتهم مزاجًا من الخير والشر، وأودع الإنسان عقله وإرادته وأنزل إليه دينه ليميز بين الخير والشر وينصح لنفسه ويختار لها.

وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين قاوموا ذلك في الحدود المعقولة ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون.

وقد شهد المسلمون زندقة الزنادقة وفسوق الفساق ومجون

ومع اعتراف الدكتور للحضارة الإسلامية ببعض الميزات إلا أنه في موطن آخر ينقض ما ذهب إليه إذ يقول:

[من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول، فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسًا للملك وقوامًا للدولة وليس المهم أن يكون هذا حسنًا أو قبيحًا، وإنما المهم أن يكون حقيقة واقعة وما أظن أحدًا يجادل في أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع الدنيوية وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضًا][1].

يأتي هذا الكلام من الدكتور كمبرر لدعوته للأخذ بمناهج الغرب ونظمه في الاجتماع والسياسة وغيرها.

ولأن الدكتور يرى الفصل بين الدين والسياسة لم يرض عن الحكم الإسلامي في عصر من العصور! بل إنه يعد الفتح الإسلامي لمصر وحكم المسلمين لها ضرب من البغي فيصرح بأن [«مصر ابتليت بالبغي والعدوان من الفرس والعرب وغيرهم» فكأن هذا الكلام خلاصة رأيه في حكم العرب والمسلمين، وكأن كفة الشر والجور رجحت عنده فاستحق عهدهم أن يذكر مقرونًا بالبغي والعدوان][2].

وقد يظن المطالع لهذا الكلام أن الدكتور يبغض العرب ويكره حضارتهم، ولكن مواقف أخرى للدكتور ترد الباحث عن ظنه هذا

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٢٥/٩، ٢٦.

(٢) طه حسين: تجديد، تحقيق: وتقديم محمد سيد كيلاني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن سنة ١٩٨٤م، ص١٣.

الهنود والفرس والمصريين القدماء لما كان من حقكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال لأننا لا نكاد نعرف من أدب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئًا يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي. . .»[1].

والدكتور طه الذي ظل طول حياته يشيد بأدب اليونان وحضارتهم هو نفسه الذي يضع الميراث العربي والإسلامي في موضعه اللائق به، وذلك حين يوضح أن كثيرين من المستشرقين قد كرسوا جهودهم لدراسة آداب العرب لينهلوا من معينها ويقطفوا من أزاهيرها ويجزم الدكتور بأن مجد الأوروبيين الحاضر إنما هو مؤسَّس على ميراثنا العربي يشرح الدكتور هذا الأمر بقوله: «أما أنا فأعتقد أن هذا الأدب العربي المسكين كان سببًا في تأسيس مجد مؤثل لأوروبا، وحسبكم أن تنظروا إلى المجهودات العنيفة التي يبذلها المستشرقون في درس الأدب العرب، ويفنون فيه قوتهم وأموالهم. ما عناية أوروبا وما عناية أمريكا بدرس الأدب العربي؟ ألأنه أدب لا قيمة له؟ أم لأنه أدب له قيمته، خليق أن يدرس؟

إذا استطاعت أوروبا أن تفخر الآن بعلمائها المستشرقين، فأنا واثق بأنها مدينة بهذا للأدب العربي، فلولا سيبويه[2] والجاحظ[3]

---

(١) طه حسين: تجديد. مرجع سابق، ص١٦، ١٧، طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة ٥/٤٣٠، ٤٣١ بتصرف.

(٢) سيبويه: لقب شيخ من أئمة فقهاء النحو على مذهب البصريين، اسمه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، اختلف في تاريخ مولده ووفاته، ذكر ابن الجوزي أن وفاته سنة ١٩٤هـ وحدد عمره وقت وفاته بأنه كان ٣٢ عامًا، وضع كتابًا في النحو قدر بألف صفحة. دائرة المعارف الإسلامية ١٢/٤٠٧.

(٣) سبق ترجمته، ص٢٨٧.

وكانت هذه اللغة مظهرًا من مظاهر وحدة المسلمين فيما بعد. وقد جعل النبي بها للمسلمين رابطة ثقافية تجمع قلوب المسلمين على عاطفة ومنطق واحد. . .)[1].

ورد على الذين يعيبون على الحضارة الإسلامية تعاون الأجناس المختلفة في بنائها بقوله: «ويقول خصوم الثقافة العربية إن تعدد جهات الاقتراض ليس خيرًا من الاقتراض من جهة واحدة فليس في أي الحالين ما يدل على ذاتية علمية وهذا النوع من الجدل مغالطة صريحة وخاصة فيما يتعلق بعلوم الرياضيات. . . فلم يقف دور الرياضيين العرب عند نقل التراث الإغريقي أو السنسكريتي فمثل هذا العمل تافه لا طائل تحته، ولكنهم جمعوا هذا إلى ذاك ولقحوا التفكير الإغريقي بالتفكير الهندي، وإذا لم يسم مثل هذا العمل ابتكارًا علميًا. فليس هناك ابتكار في أي علم. فما الابتكار العلمي إلا نسج الخيوط المختلفة وربط بعضها ببعض أما الابتكار من العدم فلا وجود له»[2].

وأشاد بنقل العرب ما لديهم من علم وعدم استئثارهم به حرصًا منهم على نفع الإنسانية وخدمتها فيقول: (وإذا نظرنا للأمر باعتباره الإنساني الواسع لوجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات قيمة بالغة الخطر، لأنها لم تكن القنطرة التي وصلت الشرق الأدنى بالغرب فحسب ولكنها وصلت الشرق الأدنى بآسيا البوذية أيضًا وبهذا أصبح الشرق الأدنى حلقة الوصل بين هذين الطرفين المتباعدين)[3].

يشيد سارتون بهذا كله ولكنه قبل ذلك يشيد بالإسلام كمنطلق

---

(١) (٢) (٣) جورج سارتون: العلم الإسلامي، بحث ضمن كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته من ص١٢٠ ـ ١٤٠.

أعرف دائمًا أن الحضارة تحتاج إلى دين، كما أن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك». ثم يتابع «إن الحضارة تسقط في اللحظة التي تكون قوة الإنسان أشد وأكبر من قوة الدين»[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. نعمان عبد الرازق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، ص١٣٠، ١٣١ بتصرف.

والبحث في اللغة: لفظ مفرد يدل على إثارة الشيء والتفتيش عنه والاستقصاء في طلبه. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] واستعملت الكلمة في معنى السؤال، والطلب، والعلم، والكشف عن المجهول، والتحري والتنقيب، والتفتيش[2].

أما عن البحث في إصلاح العلماء: فللعلماء في تعريف البحث تعريفات عدة، منها:

البحث هو عملية تقصي الحقائق وتبويبها وتحليلها. بالنسبة لظاهرة ما أو مشكلة ما لإظهار حقيقة المشكلة وأسبابها وما يناسبها من حلول[3].

وعرفه البعض بأنه: بذل المجهود في موضوع ما وجمع المسائل التي تتصل به[4].

ومن أبرز التعريفات الاصطلاحية لكلمة البحث (أنه وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق الذي يقوم به الباحث بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة بالإضافة إلى تطوير أو تصحيح المعلومات الموجودة فعلاً، على أن يتبع في هذا الفحص والاستعلام الدقيق خطوات المنهج العلمي واختيار الطريقة والأدوات اللازمة للبحث

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣١.

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١/٢٠٤.

(٣) د. علي عبد الحليم محمود: نحو منهج بحوث إسلامي، دار الوفاء، المنصورة ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٢.

(٤) المعجم الوجيز، ص٣٧، بتصرف.

المبحث الأول

تحكيم الهوى والوهم

اتباع الهوى مرض من الأمراض الخطيرة إذا تمكن من نفس جعلها تهيم في الباطل وتخوض فيه ولا ترضى بغيره، وتكره الحق وتضيق به وتسعى لإفساده وإهلاكه. قال الإمام الشاطبي[1]:

(ولقد جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعده قسيمًا له؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[3]. وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

---

(١) الشاطبي هو الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي ت٩٧٠هـ، من آثاره: الاعتصام بالسُّنَّة، الموافقات في أصول الشريعة وغيرها راجع الموافقات في أصول الشريعة من مقدمة المحقق.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

الغربية وغيرها ـ علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟

لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضًا وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.

فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد فكانت خلاصة لماض طويل.

فالشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدها فقط هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم، فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرًا في الظاهر فيحترم.

لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة فصارت جزءًا من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى، الخفي أحيانًا، والعميق دومًا)[1].

ولقد تأثر الدكتور طه حسين بالمستشرقين في هذا الجانب فالحسن ما استحسنوه والقبيح ما عابوه.

يقول إسماعيل أدهم وهو أحد تلامذة الدكتور طه حسين واصفًا أبحاث أستاذه.

---

(١) د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٢٦ نقلاً عن حضارة العرب لجوستاف لوبون، ص٦٨٨ وما بعدها.

على الذين لا تردعهم روادع دين ولا خلق وتفسيره لسلوك المسلمين أفرادًا وجماعات بأنه مدفوع بأغراض شخصية، ونوازع نفسية دنيوية وليس أثرًا لدافع ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة[1].

وأبرز الأمثلة على ذلك اتهامه لبعض النيات في أمر الدخول في الإسلام فيرمي البعض بأنه دخل الإسلام طامعًا حين رأى المسلمين يخرجون من نصر إلى نصر ومن فتح إلى آخر، ويرمي آخرين بأنهم دخلوا في الإسلام كرهًا أو رهبًا فقد أسلموا حين لم يروا من الإسلام بدًا على حد تعبير الدكتور[2]، وكذلك اتهامه للجيل الأول في جهادهم وفضلهم حين يزعم أن فتوحهم كانت من أجل المال والغنيمة وأنهم أرباب دنيا يعملون على جمعها ويتنافسون في طلبها[3] إلى غير ذلك من التهم والشبهات التي وقفنا معها في موضوعها حين تحدّثنا عن موقفه من التاريخ الإسلامي.

إن اتباع الهوى جعله يتناقض مع نفسه فيثبت اليوم أمورًا نفاها بالأمس أو ينفي اليوم أمورًا قد أثبتها بالأمس.

لقد تحول طه بعد عودته من السوربون إلى بعض العادات التي دعا إلى الإقلاع عنها فارتدى الملابس الأوروبية بعد دعوته إلى الالتزام بالزي الشرقي وتشدد في ذلك، وتزوج بأجنبية رغم أنه بالغ في حكم

---

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم دمشق، ط٥ سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦، ص١٤٨.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١١٨، ١١٩.

(٣) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٧٧/٤، ٢٧٨، ٣١١، ٣١٥، ٣١٧. الفتنة الكبرى (٢) ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤٤٦/٤، ٤٤٧، ٦٢٧.

المبحث الثاني

التهوين والتهويل

يقال: (هَالَ هَوْلاً: خاف ورعب، وهالت المرأة الناظر بحسنها: أعجبته... وهَوَّلَ على فلان: أفزعه، وهَوَّلَ الأمر: شنعه وبالغ فيه حتى جعله هائلاً.

ويقال: هان فلان هونًا وهوانًا ومهانة: ذَلَّ. وفي أمثالهم: «إذا عز أخوك فهن، وإن عاسرك فياسره، وهان الشيء عليه هوانًا: استخف به»[1].

(**والتهوين**: تفعيل من هوَّن، ويقصد به منهج من مناهج المستشرقين أرادوا به إطفاء وهج المبادئ الفاضلة، وألق الشخصيات البارزة في الإسلام لتظهر في صورة غير جديرة بالانتباه ولا الذكر فضلاً عن الاحترام والتقدير.

والتهويل: تفعيل من هوَّل، وأعني به تضخيم ما لا يستحق، وإبراز الأمور على غير ما هي عليه وتضخيمها، وتصديرها في صورة

(١) أ. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط ٢/١٠٠.

الإسلامي كحركة الزنج والقرامطة والبهائية والقديانية وغيرهم فجعلوها حركات بطولية تعمل لخير الإنسان ورفعة شأنه[1].

ولئن كان المستشرقون في ذلك كله مدفوعين لأغراض كامنة في نفوسهم أظهرها النيل من الإسلام وتشويه تعاليمه، فما الذي حدا بالدكتور طه حسين أن يشاركهم في صنيعهم وأن يسير على مثل طريقهم.

فالدكتور يوهن من شأن تعاليم الإسلام حين يدعي أن الإسلام بشرائعه وتعاليمه مجرد صلة بين العبد وربه، وأن الحكم وسياسة الناس أمر مرده إلى الناس يتخذون إليه الوسائل والأسباب التي يرونها مفيدة لهم وإن نبذوا كتاب الله وسنة رسوله جانبًا ويوهن الدكتور من شأن الصحابة حين يعالج تاريخهم كما يعالج تاريخ اللصوص في حانات باريس ولندن ويرمي مؤرخي المسلمين بأنهم كانوا أسرى ما أسماه ـ بنظرية تقديس السلف ـ فإذا به:

يفسر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بالمنظار الذي يفسر به الغربيون تاريخهم مع تباين الواقعين عقيدة وشريعة ونظامًا، ويرفض الحق بالنفي المجرد الذي لا يدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم، ويركز على الشخصيات الضالة كالحلاج والسهروردي وأبي نواس وابن الراوندي ويحاول تحطيم شخصيات عظيمة مثل ابن خلدون والمتنبي، ويعظم من شأن الأثر الفارسي والهندي واليوناني، ويحاول أن يجعله مصدرًا للفكر الإسلامي.

---

(١) راجع: د. محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، الأردن، وعالم الكتب السعودية، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٨ وما بعدها.

أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه)[1].

فهو كما يقول أحد الكتاب[2]: (يضع نفسه فوق النقد، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به، ولا يريد أن يقيم له وزنًا. ولماذا؟ لأنه يريد أن يكون حرًا فيما يكتب ويذيع على الناس! وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي؟ ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدامى والمحدثين على السواء)[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طه حسين: المعذبون في الأرض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦، ص٢٢.

(٢) هو الأستاذ محمود عبد المنعم مراد في جريدة المصري الصادرة في ١٩٥٣/١/٣٠م.

(٣) نقلاً عن: أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٧٥.

في «حياة الحيوان» بينما يكذبون ما يرويه مالك في «الموطأ»)[1].

ولقد تابع الدكتور طه حسين أساتذته من المستشرقين في اعتماده على المصادر الضعيفة وأبرز صورة لذلك هو كتابه عن «الفتنة الكبرى» فحين أراد أن ينكر وجود شخصية «عبدالله بن سبأ» المعروف «بابن السوداء» لم يجد من مصدر يرد إليه هذا الإنكار سوى «فتوح البلدان» «للبلاذري» هذا الكتاب الذي قال عنه العلماء: إنه كتاب ملفق والصهيونية هي التي عملت على إخراجه فكانت طبعة الكتاب الأولى في إسرائيل.

وتناسى الدكتور المصادر الكثيرة التي تثبت أمر عبدالله بن سبأ، ومنها تاريخ الطبري ـ الذي كان الدكتور يكثر الاستدلال به ثم تجاهله في هذا الموضع كما تجاهل غيره من الكتب المعترف بها في هذا الشأن مثل الملل والنحل للشهرستاني[2]، والفصل في الأهواء والنحل لابن حزم[3].

بل نستطيع القول بأن الدكتور اعتمد في كتابته للتاريخ الإسلامي على سواقط الروايات التي روجها أعداء الإسلام من غلاة الرافضة أو من الشعوبيين، والناظر في كتبه تلك يجد أنه أذاع القواصم التي لفقت على تاريخ المسلمين والتي تصدى لها علماء الإسلام من قديم كالعلامة أبي بكر ابن العربي في كتابه «العواصم من القواصم» والذي رد على

---

(١) د. علي محمد عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص٢٣١.

(٢) سبق ترجمته، ص٤٦٢.

(٣) ابن حزم (٣٨٤هـ/٩٩٤م ـ ٤٥٥هـ/١٠٦٤م) فقيه عربي متكلم ومؤرخ وشاعر أندلسي ولد بقرطبة، تحمس في البداية للشافعية ثم تحول إلى آراء الظاهرية، من آثاره: «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، المعجم الإسلامي، ص١٧.

واصل الحموي[1] المتوفى سنة ٦٩٧هـ، ويكتب في تقديمه (هذا كتاب من كتب القرن السابع للهجرة، ننشره للناس لأنه بعض تراثنا القديم؛ الذي يجب إحياؤه وتمكين الأجيال المعاصرة من الانتفاع به ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً وننشره كذلك لأن أوساط المثقفين في هذا العصر أشد ما يكونون حاجة إليه فهو يقرب إليهم من الأدب العربي القديم بعيدًا وييسر لهم منه عسيرًا... ستجد فيه أدبًا كثيرًا قيمًا، وقصصًا كثيرًا رائعًا، وتاريخًا كثيرًا نافعًا... ولست أخفي على القراء أني أقرأ كتاب الأغاني فأستمتع بأسانيده كما أستمتع بما يروى فيه من الشعر والأحاديث)[2].

(وكذلك عمل الدكتور على إخراج كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار[3]، وهو كتاب يصور مذاهب المعتزلة في علم الكلام.

وحين تولى اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية عمل على إخراج بعض الكتب التي تتوافق مع رغباته فيهتم بإخراج أنساب الأشراف الذي ينفي صاحبه وجود عبدالله بن سبأ، ويخرج كتاب البرهان في وجه البيان لأبي الحسن إسحاق بن إبراهيم بن وهب الذي

---

(١) ابن واصل الحموي (المتوفى سنة ٦٩٧هـ) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي، اختصر كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وسماه تجريد الأغاني، طبعة الدكتور طه حسين سنة ١٩٥٥م. راجع: تجريد الأغاني مقدمة الكتاب.

(٢) ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني، تحقيق: د. طه حسن وإبراهيم الإبياري، مطبعة مصر ١٣٧٤هـ/١٩٥٥ مصر ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص أ، ج بتصرف.

(٣) القاضي عبد الجبار: شافعي، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره، لقب بقاضي القضاء، ولي قضاء الري، توفي عام (٤١٥هـ/١٠٢٥م). المعجم الإسلامي، ص٤٥٩.

المبحث الرابع

تعميم الخاص وتخصيص العام

وهذا الأمر واضح في أبحاث كثير من المستشرقين في دراساتهم عن الإسلام إذ يعمدون إلى (إطلاق حكم عام على شيء ما، بناءً على التشابه الجزئي بين المحكوم عليه، وبين ما يعاب به من المذاهب والمعتقدات ويكون التعميم الباطل من وجهين.

الوجه الأول:

أن يكون للفظ العام تطبيقات جزئية مقبولة ومعقولة وفيها حق وخير وهي تقع ضمن دوائر وحدود خاصة، والناس يطلقونه دون بيان حدوده الخاصة، فهو يتردد على الألسنة دون قيود ويستغل المفسدون المضللون هذا اللفظ بإطلاقه، ويعطونه مدًا تعميميًا، ليكون له في نفوس الجماهير صدى عام يشمل مساحات لا يصح أن يشملها، فإذا طبق على هذه المساحات الواقعة وراء الحدود المعقولة المقبولة كان تطبيقه باطلاً ونجم عنه شر وفساد مثل ألفاظ: الحرية، المساواة، التقدم، الواقعية، المثالية، الرجعية، الوطنية، القومية إلى غير ذلك من

انطلت على بعض الناس لا تنطلي على المسلم الحاذق فللحرية سقف تنتهي إليه وضابط يحدها والمساواة المطلقة في كل شيء لا تمكن وليست من العدل في شيء ولئن غالى الاشتراكيون في طلب تلك المساواة فقد باءت جهودهم بالفشل، لأنهم يخالفون نواميس الكون الغلابة التي قضت باختلاف الناس بطبيعتهم في قواهم وملكاتهم وفي جدهم ونشاطهم.. فالتعامل معهم على أنهم نسخ متشابهة لا فرق بين هذا وذاك في وسائل الحياة كالمال ونحوه كان ذلك مجافيًا للعدل فليس من العدل تساوي الجميع في الدخل والكسب طالما اختلف الناس في سعيهم ونشاطهم، نعود فنقول: لقد حملت هذه الألفاظ على بعض معانيها وهدف من وراء ذلك الاتجاه ترويج دعايات كاذبة والدعوة لآراء هدامة فكان من هذا الباب ما تحدث عنه الدكتور طه حسين من الدعوة إلى «حرية الإبداع» أو «حرية الأديب» وما سموه «بأخلاقية الأدب» والذي يعني أن يكتب الأديب روايته أو قصته أو مقالته بحرية مطلقة دون مراعاة لدين أو خلق أو تقاليد محترمة ارتضاها المجتمع لنفسه ورضيها له الدين بدعوى أن مراعاة هذه الجوانب يحد من الإبداع أو يعوق ذهن الأديب عن الإنتاج الحر الذي يرمي إليه.

الوجه الثاني:

(من أوجه التعميم الباطلة أن تقدم الملاحظة أو التجربة العلمية أمثلة محدودة جرت في أفراد العام كنوع أو جنس، وهذه الأمثلة لا يصح بناء قاعدة كلية عامة عليها في المنهج السليم، ولكن المضللين يوهمون بأن هذه الأمثلة المحدودة. التي جرت في أفراد معدودة كافية لإعلان قاعدة كلية أو قانون شامل لكل أفراد النوع أو الجنس.

المبحث الخامس

النقل عن الآخرين بغير وعي

دأب كثير من المستشرقين المحدثين أن يتناولوا آراء من سبقهم من أئمة الاستشراق مأخذ التسليم ثقة منهم في عملهم، مع أن كثيرًا من تلك الآراء تنبع من التحامل خاصة ما يتعلق بالدراسات الإسلامية أو تاريخ العرب والمسلمين.

وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي[1] أنه التقى بعدد من المستشرقين وحادثهم عن أخطاء أساتذتهم فأقره بعضهم وخالفه البعض فيذكر الدكتور السباعي (أنه التقى في جامعة كمبريدج بالمستشرق المعروف (آربري)[2] المتخصص في اللغة العربية، وأنه قال له خلال

(١) مصطفى السباعي (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤هـ/١٩١٥ ـ ١٩٦٧م) خطيب وداعية ومؤلف ومجاهد سوري، نال الدكتوراه من الأزهر في التشريع الإسلامي وتاريخه، شارك مع الإخوان المسلمين في حرب فلسطين من آثاره السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، معجم المؤلفين ٨٥٩/٣.

(٢) آربري، أ، ج. المولود سنة ١٩٠٥ مستشرق إنجليزي تخرج من كلية بمبروك في كمبريدج وعين أستاذًا للغة الفارسية في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، وهو يتقن اللغة العربية، عين رئسيًا لقسم الدراسات القديمة بالجامعة المصرية من عام (١٩٣٢ ـ ١٩٣٤)، وانتخب عضوًا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، المستشرقون ١٣٦/٢.

فيخلق من النظرية حقيقة، وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة، ومثال ذلك جاء الدكتور «فيجانا»[1] فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائها يريد بذلك أن يوهم القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن، وكان «فيجانا» هذا قد حاول قبل ذلك أن يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن فيجانا عثر على نسخة سريانية عريقة في القدم، وأشار إلى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة وهذه العريقة في القدم التي أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام، ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحًا يحارب به القرآن)[2].

وهذا ما حدث بالفعل إذ اتخذ المستشرقون من قضية «تمام القرآن وجمعه» شبهة كبيرة أرغوا حولها وأزبدوا حتى انطلت الشبهة على بعض المسلمين فرددها وأثار غبار الشبهات حولها، وكان ممن سقط في هذا المنزلق الدكتور طه حسين إذا ادعى (أن عثمان بن ﷺ حين جمع الناس على مصحف واحد وحرق ما سواه أضاع على المسلمين شيئًا من دينهم، وإن لم يكن كذلك فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيرًا من العلم بلغات العرب ولهجاتها، ثم يؤكد أن الأمر أعظم وأخطر شأنا من علم وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات فكأن

---

(١) فيجانا. إبرو مستشرق برتغالي خلف لويس على كرسي العربية في كلية الآداب بلشبونة ثم علمها في معهد اللغات الأفريقية والشرقية وانتخبت عضوًا في مجمع التاريخ البرتغالي، من آثاره: سيرة الرسول. المستشرقون ٢/٢٦٨.

(٢) أنور الجندي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص٢٠٨، ٢٠٩.

ومذهبه في النقد = أخذ نظريته من تين وبرودنير.

واتجاهه في حديث الأربعاء = أخذه من سانت بيف)[1].

ولقد صارح بعض المثقفين الدكتور طه حسين بأنه استمرأ السطو على آراء المستشرقين، وكان على رأس هؤلاء المثقفين الدكتور زكي مبارك الذي خاطب طه قائلاً:

(ذهبتَ إلى باريس على نفقة الجامعة، ومضيتُ أنا متوكلاً على الله... ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نُسخًا من آراء مسيو كازانوفا.. واتصلتُ أنا بمسيو مرسيه ففرضتُ عليه آرائي فرضًا.

وقف مسيو ماسينيون يوم أديتَ امتحان الدكتوراه فقال:

إنني حين أقرأ بحث طه حسين أقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة.

مضيتَ فانتهبت آراء المستشرقين، وتوغلت فسرقت حجج المبشرين... كُنتَ لوحة إعلانات لا تذيع الرأي إلا لتغيظ الجمهور، ولتصبح حديث الناس في الأندية والمجتمعات)[2].

وأراد الدكتور زكي مبارك أن يدلل على صدق ما ذكره من سطو طه على آراء المستشرقين فقال:

(إنه ـ يعني طه حسين ـ ينقل عن كتب الغرب فأحيانًا ينقل

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٣٤.

(٢) نقلاً عن: محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣٢٩.

من كتب تاريخ المتنبي على هذا الوضع الذي تراه في كتابنا، ولكنا نقرر ذلك إقرارًا للحق وبيانًا للذي فعله الدكتور طه حسين إذ أخذ آراءنا فأفسدها ووضعها في غير موضعها واستغلها بغير حقها، وأخرج كتابه على غرار كتابنا غير متهيب ولا متورع من مذمة ولا إثم، وأغراه لذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا».

ولم يترك الأستاذ محمود شاكر سطو الدكتور طه حسين على كتابه «المتنبي» يمر بدون محاسبة ولكنه كتب اثنتي عشرة مقالة نشرها في صحيفة البلاغ تحت عنوان: «بيني وبين طه حسين»[(١)].

كشف فيها سطو الدكتور طه حسين على كتابه المتنبي وكتاب الدكتور عبد الوهاب عزام[(٢)]، وكتاب المستشرق بلاشير][(٣)].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ابتدأ الأستاذ شاكر نشر مقالاته في ١٣ فبراير، سنة ١٩٣٧م.

(٢) عبد الوهاب عزام (١٣١٢/ ١٣٧٩هـ - ١٨٩٤/١٩٥٩م) عبد الوهاب عزام، أديب، ولد في شويك الغربي بمصر من أسرة ليبية الأصل، تخرج بمدرسة القضاء الشرعي، عمل سفيرًا لمصر في العديد من الدول، من آثاره: الشوارد أو خطرات عام وغيرها كثير. معجم المؤلفين ٣٤٥/٢.

(٣) راجع: جابر رزق: طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام ب. ت، ص١١، ١٢، ٢١ بتصرف.

فإذا حمد كثير من الباحثين لنفر غير قليل من المستشرقين تنوع معارفهم وموسوعية علمهم، فإن هذه الموسوعية على الرغم مما فيها من محامد تمثل جانبًا سلبيًا، والذين أتقنوا منهم هم الذي تخصصوا في مجال من مجالات المعرفة وإن شابت علومهم شوائب فهي بجانب أخطاء غيرهم تعتبر هنات يسيرات تغفر لهم جزاء ما قدموا من بحث جاد.

ولقد أنتج بعض المستشرقين بعض المؤلفات الهامة والتي أفاد منها كثير من الدارسين من العرب والمسلمين وغيرهم، ومن تحصيل الحاصل أن يقال: إن المستشرقين نشروا كثيرًا من كتب العرب والمسلمين المطوية وأنهم وقفوا على طبعها جهودهم وأموالهم فأجادوا وأحسنوا إخراجها وتبويبها.

(ومما يشكر للمستشرقين جلدهم على العمل الأمر الذي ضرب به المثل، فربما انقضى عمر أحدهم في تحقيق مخطوط أو تصنيف كتاب، فواحد مثل بارانوف[1] خص القاموس العربي الروسي بعشرين سنة من حياته)[2].

ولقد شارك الدكتور طه حسين المستشرقين في كثير من الأمور ألصقها بمجال الحديث هنا توسيع دائرة البحث فكتب عن القرآن وعلومه وكتب عن الحديث ورواته وكتب عن العقيدة ومباحثها وكتب في التاريخ الإسلامي وتاريخ أوروبا القديم وصور من التاريخ الحديث صحيح أن بعض تلك الكتابات لا تتجاوز مبحثًا من عدة صفحات،

---

(١) بارانوف مستشرق روسي ولد عام ١٨٩٢م اهتم باللغة العربية، وأشهر مؤلفاته: القاموس العربي الروسي، المستشرقون ٣/٩٧.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٦٠٠، ٦٠١.

التحقيق الدقيق) لما أحجمت عنه، ولا صدك الإشفاق على رؤوس القراء والترفق بأدمغتهم ولو كان في جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولا احتلت وتلطفت وألححت في عرضه ولرفعته قبلنا في كل ناحية».

... والحقيقة أن كل كاتب ـ مهما عظم قدره ـ يكتب البحث في فترة، ثم يراجعه في فترة أخرى، فيرى به نقصًا يجب أن يكمل والدكتور صادق بينه وبين نفسه حين لمس بعض هذا النقص فيما كتب، وكان عليه بالذات أن يعمل على تلافيه لا أن يعتذر عنه؛ إذ أنه كثيرًا ما حمل العصا فوق رؤوس الكرام من الكتاب لينعي عليهم العجلة، وليعدها عيبًا خطيرًا، وليطيل في تسجيل هذا العيب وينحى باللائمة عليه.

لقد أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف[1] أول كتاب جاد عن الأدب الأندلسي في هذا العصر تحت عنوان: (بلاغة العرب في الأندلس)، وهو بحث يجب على الناقد أن يأخذ في اعتباره أنه أول تاريخ منهجي لهذا الأدب، وأن هذه الأسبقية تتسع لغفران ما به من الخطأ، ولكن الدكتور طه يجرد الكتاب من حسناته ويقول عنه في إسراف:

(وأحسبني لا أخطىء ولا أتجاوز القصد إن قلت: إن السبب الأساسي الذي يحول بين الأستاذ وبين الإجادة اللائقة في كتبه هو أنه نفسه سريعة الحركة، مسرفة في هذه السرعة لا تكاد تعرض للشيء

(١) أحمد ضيف (١٢٩٧/١٣٦٤هـ ـ ١٨٨٠/١٩٤٥م) أحمد بن علي بن إسماعيل ضيف، أديب، باحث مصري كان أستاذًا في جامعة فؤاد الأول، من تأليفه بلاغة العرب في الأندلس. معجم المؤلفين ١٩٧/١، الزركلي: الأعلام ١٧٨/١.

خاتمة في أهم نتائج البحث

بعد عرضنا لموضوع طه حسين والفكر الاستشراقي أمكننا أن نخرج بالنتائج التالية:

١ ـ من الضرورات التي تقتضيها طبيعة الحياة المعاصرة ـ والتي أصبح فيها العالم كقرية صغيرة ـ أن يبحث الدارسون عن علاقة مفكري العرب والمسلمين ـ الذين كان لهم دور في توجيه الحياة الثقافية ـ بالفكر الغربي لتحديد أوجه التأثير والتأثر ومن ثم تقييمها والحكم عليها بما يوافقها.

٢ ـ يعتبر الدكتور طه حسين أحد الرموز الثقافية التي شغلت الفكر العربي والإسلامي في القرن الماضي بما أثاره من قضايا كانت محل الأخذ والرد والقبول والرفض والرضا والسخط.

٣ ـ اتصل طه حسين بالاستشراق في مرحلة الطلب بالجامعة المصرية حين تعرف على أساتذته من المستشرقين وكانت له بالكثير منهم علاقة خاصة.

٤ ـ تعددت قنوات الاتصال بين طه حسين والمستشرقين وأخذت صورًا وأشكالاً عديدة منها صورة التلمذة في مصر بالجامعة

١٠ ـ تأثر طه حسين بالإمام محمد عبده في إعمال العقل فقدمه على النص، لكنَّ طه حسين غالى في إعمال العقل لقدمه على النص عند ورود ما يوهم التعارض.

١١ ـ يعتبر لطفي السيد الموجه الأول لطه حسين إلى الفكر الليبرالي القائم على الفصل بين الدين والحياة وتبني النظام العلماني في الفكر والسلوك.

١٢ ـ وافق الدكتور طه حسين أستاذه دوركايم في رأيه في نشأة الدين وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نافيًا بقوله هذا الرسالات السماوية جميعًا.

١٣ ـ قال الدكتور طه حسين بالتناقض بين العلم والدين ورفض أي محاولة للربط بين حقائق العلم وصحيح الدين.

١٤ ـ أعمل طه حسين نظرية الشك في غير موضعها فكذب صريح القرآن بدعوى الأخذ بمناهج البحث العلمي.

١٥ ـ قال طه حسين بنظرية الجبر التي تنفي الإرادة عن الإنسان وتجعله كريشة في مهب الريح مخالفًا بذلك حكم الشرع وبداهة العقول في قولهما بمسؤولية الإنسان عن عمله ومؤاخذته به.

١٦ ـ قال طه حسين ببشرية القرآن وأنه تعبير عن الحياة التي عاشها محمد ﷺ ومستوحى منها.

١٧ ـ حث طه حسين على دراسة الكتب المقدسة دراسة أدبية وإبداء الآراء حول قيمتها الفنية والأدبية دون تقيد بقداستها وعصمتها.

٢٥ ـ شكك الدكتور طه حسين في دوافع الفتوحات الإسلامية وردد ما قاله بعض المستشرقين عن تأثير الدافع المادي وكذلك دعوى إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام.

٢٦ ـ أشاد الدكتور بحركتي الزنج والقرامطة وذكر أنهما من حركات التحرر التي تدعو إلى العدل الاجتماعي وتمنى أن تكون هاتين الثورتين مصدر إلهام للأدباء والكتاب ليضمنوا أفكار هاتين الثورتين قصصهم ورواياتهم.

٢٧ ـ وافق الدكتور نفرًا من المستشرقين في دعواهم تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني.

٢٨ ـ ردد الدكتور مقالة المستشرق الألماني شاخت في إنكار حد الرجم للزاني المحصن بدعوى أنه لم يذكر في القرآن الكريم.

٢٩ ـ للدكتور طه حسين بصمات ظاهرة في مجال التعليم إذ كان أول من نادى بمجانية التعليم وإليه يرجع الفضل في دخول الفتيات في التعليم الجامعي إلا أنه كانت له هنات أبرزها دعوته أنه يكون التعليم في مصر والعالم العربي على النسق الأوروبي وكذلك تهوينه من شأن التعليم الديني.

٣٠ ـ شايع الدكتور طه حسين أدعياء تحرير المرأة فهوَّن من شأن الحجاب ودعا إلى اختلاط الفتيان بالفتيات في التعليم الجامعي ونادى بالمساواة بين الرجل والمرأة من خلال المنظور العلماني.

٣١ ـ دعا طه حسين في مقتبل حياته إلى اقتباس الحضارة الأوروبية حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب ثم عدل عن هذه الدعوة

التوصيات

١ ـ وزن الناس بحسناتهم وسيئاتهم والاستفادة من الخير أيًا كان مصدره فالحكمة ضالة المؤمن أن وجدها فهو أحق الناس بها.

٢ ـ أن يقرأ الدعاة والعلماء والعاملون بالدعوة عطاء الأدباء وإنتاجهم فإن ذلك يمنحهم العبارة المشرقة والمعنى الجميل والتعبير الرائع. ثم إن ذلك يمكنهم من تقويمه والحكم عليه بميزان الشرع وبيان ذلك للناس حتى يمتاز الطيب عن الخبيث.

٣ ـ تشجيع الدراسات المتعلقة بالاستشراق ترجمة وتحليلاً أو نقدًا وتقويمًا أو عرضًا وتقريرًا.

٤ ـ أن يعمل الأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية على إيجاد لجنة لتصويب الأفكار الخاطئة خاصة التي تتناول أمور الدين في الدوريات والكتب التي تصدر في مصر والعالم الإسلامي ومن ثم إرسالها للهيئات التي قامت بطبعها لإلحاقها بها في الطبعات اللاحقة، حتى لا تشيع الأفكار الخاطئة في غيبة الناصح الأمين.

٥ ـ إبراز الأعمال الأدبية التي تنطلق من الإسلام وهديه ولفت الناس إليها حتى يعم الخير وتعلو رايته.

المراجع

١ ـ إبراهيم الإبياري: طه حسين المؤرخ الإسلامي، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، دار الهلال ب ـ ت.

٢ ـ د. إبراهيم جميل بدران، د. علي علي حبيش: نحو حضارة إسلامية أساسها العلم والإيمان، وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية العدد ٨٦ سنة ١٤٢٢هـ.

٣ ـ إبراهيم عبد العزيز: رسائل طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.

٤ ـ إبراهيم عبد العزيز، أوراق مجهولة من طه حسين: دار المعارف، سلسلة اقرأ.

٥ ـ ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول، دار الفكر، بيروت، المكتبة التجارية، مكة المكرمة ط٢ سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦ ـ ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٧ ـ ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

٨ ـ ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، دار عكاظ، جدة. ب. ت.

٩ ـ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

١٠ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ط: ١٤١٦هـ ـ سنة ١٩٩٦م.

١١ ـ ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت. ب. ت.

٢٧ ـ الإمام: أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، تحقيق: العلامة أحمد محمد شاكر، دار المعارف. ب. ت.
٢٨ ـ أحمد بن علي الفيومي: المصباح المنير: تحقيق: علي محمد البجاوي، د. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية، بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ.
٢٩ ـ أحمد رضا: معجم متن اللغة، بيروت، دار مكتبة الحياة ١٣٧٧هـ.
٣٠ ـ د. أحمد شلبي: الاستشراق تاريخه وأهدافه، مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٦م.
٣١ ـ د. أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات (بحث ضمن كتاب الإسلام والغرب) سلسلة كتاب العربي، العدد رقم ٤٩ يوليو ٢٠٠٢م.
٣٢ ـ أحمد عادل كمال: علوم القرآن، دار المختار الإسلامي. ب. ت.
٣٣ ـ المشير/أحمد عزت باشا: الدين والعلم، ترجمه عن التركية حمزة طاهر، وراجعه د. عبد الوهاب عزام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
٣٤ ـ أحمد عطية عبدالله: القاموس السياسي. ب. ن، ب. ت.
٣٥ ـ أحمد لطفي السيد: قصة حياتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.
٣٦ ـ أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ـ دار الكتب العلمية، بيروت ب. ت.
٣٧ ـ د. أحمد محمد كريمة: الاعتداءات الأثيمة على السُّنَّة النبوية القويمة، وزارة الأوقاف سلسلة قضايا إسلامية عدد ٥٤ سنة ١٤٢٠هـ.
٣٨ ـ أحمد محمود هويدي: الاستشراق الألماني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٣٩ ـ أسامة يوسف شهاب: نحو أدب إسلامي معاصر، الأردن، دار البشير ط١، ١٤٠٥هـ.
٤٠ ـ إسكندر أسعد: تمثال الكاتب المصري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول.
٤١ ـ أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي، دار الشروق ط١، سنة ٢٠٠٢م.
٤٢ ـ الأزهري: تهذيب اللغة، مطبعة القاهرة ١٩٦٤م.
٤٣ ـ د. السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره. ب. ن، ب. ت.
٤٤ ـ السيد مرسي أبو ذكري: آثار المستشرقين في الأدب، مجلة الأزهر، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ أكتوبر ١٩٩٩م ج٦ السنة الثامنة والسبعون.

٦٣ ـ جابر رزق: طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام. ب. ت.
٦٤ ـ د. جابر قميحة: جريدة آفاق عربية (حزب الأحرار المصري) العدد ٣٧٩ الصادرة في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٦٥ ـ الشيخ جاد الحق علي جاد الحق: حول اتفاقية القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة من المنظور الإسلامي، هدية مجلة الأزهر، شهر صفر سنة ١٤١٦هـ ـ يوليو سنة ١٩٩٥م.
٦٦ ـ جار الله أبي القاسم الزمخشري: أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣ ١٩٨٥م.
٦٧ ـ جريدة آفاق عربية (حزب الأحرار المصري) العدد ٤٩٢ الصادر في ٢٢ شوال ١٤٢١هـ ١٨ يناير سنة ٢٠٠١م.
٦٨ ـ جريدة الجريدة: الصادرة في ٣٠/١٠/١٩١٠م، ٢/١١/١٩١٠م.
٦٩ ـ جريدة الشروق: صوت الأزهر جامعًا وجامعة، عدد تذكاري بمناسبة افتتاح مشيخة الأزهر الجديدة، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ سبتمبر ١٩٩٩م.
٧٠ ـ جريدة القاهرة (الصادرة عن وزارة الثقافة) العدد ١٤٠ الثلاثاء ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.
٧١ ـ د/جمال الدين الشيال: رفاعة الطهطاوي، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر العربي ط١٩٧٠م.
٧٢ ـ د. جمال عبدالهادي (وآخرون)، الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان دار الوفاء ب. ت.
٧٣ ـ د. جمعة علي الخولي: تاريخ الدعوة، دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٧٤ ـ د. جميل عبدالله المصري: الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين مجلة المنهل السعودية، العدد ٤٧١ رمضان ١٤٠٩هـ أبريل ومايو ١٩٨٩م.
٧٥ ـ جورج سارتون: العلم الإسلامي، بحث ضمن كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠٢م.
٧٦ ـ جورجيو ديلافيدا: طه حسين المؤرخ، بحث ضمن كتاب «طه حسن كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال، ب. ت.
٧٧ ـ جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٧م.

٩٣ ـ د. رأفت عبدالحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
٩٤ ـ رجاء عيد: التاريخ الأدبي والنظرية الأدبية، بحث ضمن كتاب «طه حسين مائة عام من النهوض العربي» في الذكرى المئوية لمولده، دار الفكر للدراسات والأبحاث سلسلة فكر، العدد ١٤، ب. ت.
٩٥ ـ رجاء النقاش: طه حسين والأحزاب السياسية، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، دار الهلال ب. ت.
٩٦ ـ د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير. ب. ن، ب. ت.
٩٧ ـ د. رشيده مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية ط١، ١٩٧٩م.
٩٨ ـ رياض شمس: العناصر الثلاثة للقومية المصرية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٩٩ ـ د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م.
١٠٠ ـ سامح كريم: معارك طه حسين الأدبية والفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
١٠١ ـ سامي الكيالي: مع طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ العدد ١١٢ مايو ١٩٥٢م.
١٠٢ ـ سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٧٨ رجب ١٤٢١هـ.
١٠٣ ـ سعيد بن علي القحطاني: قضية التكفير بين أهل السُّنَّة وفرق الضلال، السعودية ـ مؤسسة الجريسي ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٠٤ ـ سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير ١٩٩٧م.
١٠٥ ـ سوزان طه حسين: معك، دار المعارف، سلسلة كتب أكتوبر ب. ت.
١٠٦ ـ سهير القلماوي: ذكرى طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ، عدد ٣٨٨ الصادر في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٤م.
١٠٧ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ط١٠، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
١٠٨ ـ سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت ط٢. ب. ت.

١٢٦ ـ طه حسين: «برنامج» مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٤٩/١١/٧م.
١٢٧ ـ طه حسين: «بين بين»، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣ ج١٤.
١٢٨ ـ طه حسين: ثورتان، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني.
١٢٩ ـ طه حسين: ألوان، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢ ١٩٨٣ ج٦.
١٣٠ ـ طه حسين: تجديد، تحقيق وتقديم، محمد سيد كيلاني دار الفرجاني القاهرة وطرابلس ولندن ١٩٨٤م.
١٣١ ـ طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣م ج١٠.
١٣٢ ـ طه حسين: حديث الأربعاء (٣/١)، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٢.
١٣٣ ـ طه حسين: حديث المساء، تحقيق وتقديم: محمد سيد كيلاني، دار العربي للبستاني، ط١ ب. ت.
١٣٤ ـ طه حسين: حول الشعر الجاهلي، مقال بجريدة السياسة ١٩٢٦/٧/١٧م.
١٣٥ ـ طه حسين: خزانة الكتب بالإسكندرية وتحريق العرب إياها، جريدة السياسة الصادرة في يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ/٢٣ يناير ١٩٢٤م.
١٣٦ ـ طه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣ ج١٤.
١٣٧ ـ طه حسين: على هامش السيرة (٣/١) المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٣.
١٣٨ ـ طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٥.
١٣٩ ـ طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٨.
١٤٠ ـ طه حسين: في الأدب الجاهلي، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٥.
١٤١ ـ طه حسين: قادة الفكر، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٨.

١٥٧ ـ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.

١٥٨ ـ د. عبد الحليم عويس: موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/أبريل ومايو ١٩٩٢م.

١٥٩ ـ د. عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام، دار المعارف، ط٢. ب. ت.

١٦٠ ـ د. عبد الحميد إبراهيم: نحو وسطية معاصرة حلاً للأزمة، مجلة المنهل، العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/أبريل ومايو ١٩٩٢م.

١٦١ ـ عبد الخالق محمود عبدالخالق: شخصية رجل الدين في أدب طه حسين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثامن في ذكرى طه حسين، كلية الآداب جامعة المنيا، يناير ١٩٨٢م.

١٦٢ ـ د. عبد الرازق السنهوري: فقه الخلافة وتطورها، تحقيق: دكتور توفيق الشاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٣م.

١٦٣ ـ د. عبد الرحمن بدوي: إلى طه حسين في ميلاده السبعين. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

١٦٤ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٦٥ ـ د. عبد الرحمن الشيخ: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٣٤ سنة ١٩٩٤م.

١٦٦ ـ د. عبد الرحمن الشيخ: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٧٧ سنة ١٩٩٥م.

١٦٧ ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق ط٥، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

١٦٨ ـ د. عبد الصبور مرزوق: القرآن والرسول ومقولات ظالمة، وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية العدد ٣٩ سنة ١٤١٩هـ.

١٦٩ ـ د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ١٩٧٧م.

١٧٠ ـ د. عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين، مجلة رسالة الجهاد، ليبيا العدد ٩٥ جمادى الثانية سنة ١٤٠٠هـ.

١٨٦ ـ د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، مكتبة النهضة الإسلامية الأردن ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٨٧ ـ د. عبد المجيد دياب: تحقيق: التراث العربي منهجه وتطوره، منشورات سمير أبو داود، القاهرة ١٩٨٣م.

١٨٨ ـ د. عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠١م.

١٨٩ ـ د. عجيل النشمي: الخلفاء الراشدون ودورهم في التشريع في نظر المستشرقين، مجلة المنهل، العدد ٤٧١ سنة ١٤٠٩هـ.

١٩٠ ـ عدنان رضا النحوي: الشورى لا الديمقراطية ب. ن ط١، ١٤٠٥هـ.

١٩١ ـ علاء الدين البغدادي (الخازن): لباب التأويل في معاني التنزيل، دار المعارف، ب. ت.

١٩٢ ـ الشيخ علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام، دار الوفاء، ط١٤، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٩٣ ـ علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٩٤ ـ د. علي عبدالحليم محمود: نحو منهج بحوث إسلامي، دار الوفاء، المنصورة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٩٥ ـ الشيخ علي عبدالرازق: الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير ١٩٩٣م.

١٩٦ ـ علي عبدالفتاح: أعلام في الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، مصر ب. ت.

١٩٧ ـ د. علي محمد عبدالوهاب: بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، دار ركابي للنشر ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٩٨ ـ علي يوسف علي: عقوبة الرجم ليست من الإسلام في شيء، جريدة صوت الأمة الصادرة في ٦ يناير سنة ٢٠٠٣م.

١٩٩ ـ د. عماد الدين خليل: حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٠٥هـ.

٢٠٠ ـ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢١٧ ـ مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة وزارة التربية والتعليم ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢١٨ ـ مجلة الهداية: عدد شهر مارس سنة ١٩١١م.
٢١٩ ـ محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، المكتبة العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٥هـ.
٢٢٠ ـ محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ج٣.
٢٢١ ـ د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.
٢٢٢ ـ الشيخ محمد أبو زهرة: النصرانية، دار الفكر العربي، مصر. ب. ت.
٢٢٣ ـ د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، مكانتها، مصادرها إحصاؤها.. دار الاعتصام. ب. ت.
٢٢٤ ـ د. محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، الأردن مكتبة الأقصى، ط٢، سنة ١٤٠٦هـ/سنة ١٩٨٦م.
٢٢٥ ـ د. محمد أمحزون: ابن سبأ في كتابات المعاصرين، مجلة البيان، (المنتدى الإسلامي لندن) العدد ٣١ سنة ١٤١١هـ.
٢٢٦ ـ محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٩٧م.
٢٢٧ ـ محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٢٢٨ ـ محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت. ب. ت.
٢٢٩ ـ محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم: عودة الحجاب، دار العقيدة مصر، ط١٤، سنة ١٤٢٠هـ.
٢٣٠ ـ محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ب. ت.
٢٣١ ـ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢٣٢ ـ محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ط١، ب. ت.
٢٣٣ ـ محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: علي محمد البجاوي ود. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية، بيروت ط٢، ١٣٩٩هـ.

٢٤٩ ـ محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، السعودية دار الرياض. ب. ت.

٢٥٠ ـ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، بيروت، دار المعرفة ط٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٢٥١ ـ د. محمد عبدالله دراز: الدين، دار القلم، الكويت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٥٢ ـ د. محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت ط٤، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٥٣ ـ د. محمد عبدالله عنان: دولة شيوعية في القرن الرابع الهجري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة.

٢٥٤ ـ د. محمد عبدالمنعم خفاجي: حركة الاستشراق، مجلة المنهل، السعودية العدد ٤٧١ المجلد ٥٠ رمضان ١٤٠٩هـ إبريل ١٩٨٩م.

٢٥٥ ـ د. محمد عجاج الخطيب، أبو هريرة راوية الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب عدد ١٢٦ سنة ١٩٨٧م.

٢٥٦ ـ المستشار محمد عزت الطهطاوي: الأستاذ الإمام محمد عبده، مجلة الأزهر، عدد رجب سنة ١٤١٢هـ/يناير سنة ١٩٩٢م.

٢٥٧ ـ المستشار محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٥٨ ـ د. محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير: دار التراث العربي، مصر ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٥٩ ـ محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت ط١٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٦٠ ـ محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، المجموعة الإعلامية السعودية، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢٦١ ـ محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، بيروت ط٨، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٦٢ ـ د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، مصر، ط١٢ سنة ١٤١١هـ/١٩٩٢م.

٢٦٣ ـ د. محمد الدسوقي: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة إقرأ العدد ٥٧٨ ب. ت.

٢٧٩ ـ محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤٠٣هـ.
٢٨٠ ـ د. محمد محمد حسين: حصوننا مهددة من داخلها، المكتب الإسلامي، بيروت ط٥، ١٩٧٨.
٢٨١ ـ د. محمد مصطفى هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي بحث ضمن كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية» الصادر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج. ب. ت.
٢٨٢ ـ د. محمد يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان. ب. ن، ب. ت.
٢٨٣ ـ د. مختار التهامي: ثلاث معارك فكرية، ب. ن، ب. ت.
٢٨٤ ـ مرتضى الرضوي: مع رجالات الفكر في القاهرة، مطبوعات النجاح بالقاهرة ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٨٤م.
٢٨٥ ـ د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٨٦ ـ د. مصطفى السباعي: اشتراكية الإسلام، دار الشعب. ب، ت.
٢٨٧ ـ د. مصطفى الشكعة: الخطاب الديني والربط بين علوم الدين والدنيا بحث ضمن مؤتمر «تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف» وزارة الأوقاف سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٨٤ سنة ١٤٢٢هـ.
٢٨٨ ـ د. مطصفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١، ١٩٩٥م.
٢٨٩ ـ مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي بيروت ط٨، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٩٠ ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار المنار (القاهرة) وفياض (بالمنصورة) ب. ت.
٢٩١ ـ د. مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
٢٩٢ ـ د. مصطفى غلوش: الوجودية في الميزان، وزارة الأوقاف سلسلة الإمام عدد ٤ سنة ١٩٨٥م.
٢٩٣ ـ د. معجب بن معدي العتيبي: حقوق الجاني بعد صدور الحكم في الشريعة الإسلامية. د. ن. ط١، ١٤١٣هـ.
٢٩٤ ـ مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣١٠ ـ د. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الصحوة، دار الوفاء، ط١، ١٤١١هـ.
٣١١ ـ د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٩هـ.
٣١٢ ـ يوهان فك: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الموضوع	الصفحة

١ ـ الاتصال الدراسي ٩٧
أ ـ في مصر ٩٧
ب ـ في فرنسا ١٠١
٢ ـ الاتصال بالمستشرقين في مرحلة العطاء ١٠٦
أ ـ العمل الجامعي ١٠٦
ب ـ الزيارات المنزلية (الصداقة الشخصية) ١٠٧
جـ ـ حضور المؤتمرات الاستشراقية ١٠٩
د ـ الأعمال المؤسسية (اليونسكو) ١١٣
هـ ـ المراسلة والاهتمام بشأنه ١١٤
و ـ إنشاء المعاهد العلمية وتفعيلها ١١٧
ـ المبحث الرابع: اهتمام المستشرقين بأدب طه حسين ١١٩
*** الفصل الثالث: طه حسين والعقيدة الإسلامية** ١٢٣
تمهيد ١٢٥
ـ المبحث الأول: طه حسين ونشأة الدين ١٢٩
دعوى التناقض بين العلم والإيمان ١٣٤
الدين والعلم تكامل لا صراع ١٣٩
الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان ١٤٢
اضطراب وتحير ١٤٥
القرآن والنظريات العلمية ١٤٨
ـ المبحث الثاني: طه حسين ونزعة الشك ١٥٢
تبني طه حسين لنظرية الشك ١٥٢
دعوى حرية الأدب ١٥٩
أخلاقية الأدب أو الصدق الفني ١٦٠
من آثار القطيعة بين الإسلام والأدب في فكر طه حسين ١٦٣
ـ المبحث الثالث: طه حسين وقضية الجبر والاختيار ١٦٦
ـ القائلون بالجبر في القديم والحديث ١٧٢

الموضوع	الصفحة

دعوى الشك في التاريخ ٢٩٦
المطلب الأول: شكه في حديث جبريل عليه السلام ٢٩٨
المطلب الثاني: شكه في حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ ٣٠٦
ـ الدكتور طه يرد حديثًا في البخاري ٣٠٨
المطلب الثالث: شكه في حديث اختلاف الأمة وافتراقها ٣١١
المطلب الرابع: رده لحديث مراجعة عمر لأبي بكر في حرب المرتدين ٣١٧
المطلب الخامس: شكه في حديث الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ٣٢٠
المطلب السادس: شكه في أمانة أبي هريرة رضي الله عنه ٣٢٤
المطلب السابع: التشكيك في الرواة من الموالي ٣٢٩
المبحث الرابع: قبوله للروايات الضعيفة ٣٣٤
المبحث الخامس: تصحيحه الحديث بالظن ٣٣٩
*** الفصل السادس: طه حسين والتاريخ الإسلامي** ٣٤٣
تمهيد ٣٤٥
طه حسين وكتابة التاريخ الإسلامي ٣٤٨
المبحث الأول: موقفه من تاريخ الشيخين أبي بكر وعمر ٣٥٤
أبو بكر الصديق بمنظار طه حسين ٣٥٥
عمر بن الخطاب في كتابات طه حسين ٣٧٥
المبحث الثاني: دعوى تحريق المسلمين لمكتبة الإسكندرية ٣٨٦
المبحث الثالث: موقف طه حسين من صحابة النبي ﷺ ٣٩٧
المبحث الرابع: موقف طه حسين من القرون الثلاثة المفضلة ٤٢٢
المبحث الخامس: طه حسين وموقفه من الخلافة الراشدة ٤٢٥
المبحث السادس: رأي طه حسين في الفتوحات الإسلامية ٤٤١
المبحث السابع: رأي طه حسين في ثورتي الزنج والقرامطة ٤٥٤
المبحث الثامن: رأي طه حسين في قضية عبدالله بن سبأ ٤٦١
*** الفصل السابع: طه حسين والفقه الإسلامي** ٤٧١
تمهيد ٤٧٣

الموضوع	الصفحة

التوصيات ٦٥٠
المراجع ٦٥٢
فهرس الموضوعات ٦٧٣

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٤ ـ المصرف الوقفي للبر والتقوى.

٥ ـ المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦ ـ المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

وانطلاقاً من الإيمان العميق بدور العلم الشرعي والثقافة الإسلامية بشكل خاص، والعلوم التطبيقية بشكل عام في تقدم الأمة وتطورها، جاء إنشاء "المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية" ليكون رافداً غنياً للعطاء الثقافي والعلمي ضمن نطاق اختصاصاته. وأبرز مثال في إطار أعمال وإنجازات هذا المصرف رحلات العمرة للمتميزين إلى جانب إقامة العديد من الدورات العلمية.

ولا ننسى الإشارة إلى الدور المهم الذي نهض به الوقف تاريخياً في تنشيط الحركة العلمية والثقافية، وذلك بإقامة المدارس، والمكتبات والمعاهد وغيرها، ليصنع بذلك حضارة أفادت منها الإنسانية جمعاء.

- **من أهدافـــه:**

ـ تشجيع ودعم إقامة الأنشطة والفعاليات العلمية والثقافية.

ـ الحث على الاهتمام بالتعليم، وبيان دوره في رقي الإنسان ونمو المجتمعات.

ـ نشر العلم الشرعي والثقافة الإسلامية على أوسع نطاق والارتقاء بمستوى العاملين في هذا المجال.

- **من وسائلـــه:**

ـ دعم إقامة المؤتمرات والندوات وحلقات الحوار والمهرجانات والمعارض والمراكز الثقافية الدائمة والموسمية.

ـ دعم وإنشاء المكتبات العامة.

ـ دعم تنظيم الدورات التدريبية التأهيلية لتنمية المهارات والقدرات في مختلف المجالات العلمية والثقافية.